أحلام اليقظة

تأليف

دكتور جورج هنري جرين

ماجستير في الآداب . دكتوراه في الفلسفة

أستاذ علم النفس

بمعهد التربية العالي للمعلمين بإسكندرية

ترجمة

ابراهيم حافظ

دبلوم معهد التربية . درجة الشرف في الفلسفة

(جامعة لندن)

مدرس الفلسفة والترجمة بالمعلمين العليا

راجعه

زكي المهندس بك

العميد السابق لكلية دار العلوم

وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

الطبعة الأولى

الناشر

لجنة البيان العربي

مطبعة لجنة البيان العربي

٤ شارع مصطفى باشا كامل — لاظوغلى

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

مقدمة

حلم اليقظة من الظواهر المألوفة لنا جميعاً . وقد عُرف أمره منذ سنوات طويلة ، كما يدل على ذلك كثير من التعبيرات الشائعة فى بعض اللغات مثل قولنا فى العربية « لقد كنا فيما تمنيناه نخط على الماء ونبنى قصوراً فى الهواء » . وكثيراً ما يسجل الذين يكتبون تراجم حياتهم بأنفسهم عدداً من أحلام اليقظة التى كانت تراود خيالهم فى طفولتهم ، وإن كان يندر أن يدرك أحدهم ما تنطوى عليه تلك الأحلام من دلالات .

وهذه الجملة الأخيرة تعبر عن موضوع البحث فى هذا الكتاب . فقد افترضنا فيها أن لأحلام اليقظة مدلولات خاصة . وإذا كان هذا القول صحيحاً ، فإن علينا أن نحاول الكشف عن تلك المدلولات ، وتحديدها فى صورة وظيفية ، أكثر من التعبير عنها فى مبادىء وصفية . أو بعبارة أخرى علينا أن نحاول معرفة الدور الذى تلعبه أحلام اليقظة فى حياة الفرد ، وأن نبحث عن الوسائل التى تعيننا على استغلالها استغلالا ناجحاً بقدر الإمكان فى الوصول بالفرد إلى أكمل درجة من النمو المتزن .

ويمكن القول بصفة عامة بأن كل من لاحظ تكرار حدوث أحلام اليقظة ، سواء فى نفسه أو فى غيره من الناس ، يميل إلى الحديث عنها فى استخفاف مشوب بالسخرية . ومن الأقاصيص المشهورة ، قصة بائعة البيض التى ذهبت يوماً من الأيام إلى السوق تحمل سلة البيض على رأسها . وبينا هى سائرة فى الطريق ،

أخذت تفكر فى الثمن الذى سوف تحصل عليه من بيع البيض ، وكيف أن ذلك المال سيعينها على شراء أفراخ صغيرة تقوم بتربيتها فى بيتها لتبيعها فيما بعد ، وعندئذ سوف يتيسر لها قدر من المال تستطيع به أن تكرر عملية شراء الأفراخ وتربيتها و بيعها إلى أن تصبح ميسورة الحال . . . وهكذا استمرت الفتاة فى وضع الخطط ، فهى سوف تقتنى الفاخر من الثياب ، مما يجعل أولئك الذين كانوا من قبل يزدرون بائعة البيض المسكينة ، يحاولون الآن جاهدين أن يتقربوا إلى تلك السيدة الأنيقة . و بذلك يكون قد حان الوقت الذى تنتقم فيه لنفسها منهم لمعاملتهم المهينة السابقة ، فإنها سوف تهز لهم رأسها ، وتشيح عنهم بوجهها إذا ما ألقوا عليها التحية . . . وعندما وصل التفكير بالفتاة إلى هذه النقطة كانت قد نسيت تماماً ذلك العالم الواقعى القائم حولها ، وأصبحت تحيا فى ذلك الجو الذى ابتكره خيالها . لذلك هزت رأسها ، فسقطت السلة على الأرض ، وتحطم البيض ، وتناثر على قارعة الطريق . وهكذا تبخرت آمالها فى الهواء .

إن هذه القصة ليست مثالا جيداً لنوع من أنواع أحلام اليقظة فحسب ، و إنما هى أيضاً تعبير واضح عن اتجاه مألوف نحو أحلام اليقظة وحدوثها . فبائعة البيض تعتبر فتاة حمقاء قد تجردت من النزعة العملية . وقد كانت تحسن صنعاً لو أنها احتفظت بصفاء ذهنها ، بدلا من أن تسبح فى عالم الخيال والأوهام . وترمى القصة إلى تحذير الناس من شرود الذهن ، وتنبيه الصغار إلى سوء النتائج التى تترتب على التفكير فى أمور خارجية فى الوقت الذى ينبغى لهم فيه أن يكرسوا كل انتباههم لمدرّسيهم وكتبهم . كذلك يُقصد بها لفت نظر الصناع إلى ضرر انصراف فكرهم عن الآلات التى يُعهد إليهم بالإشراف على إدارتها ومراقبة سيرها ، وتذكير غيرهم من الناس بما قد يحدث بينهم من صدام على أفاريز الطرقات عندما يغفلون عن مواطىء أقدامهم ، أو ينصرفون عن التفكير فى الوجهة التى يقصدونها بسبب انشغال أذهانهم بأمور أخرى . فالقصة إجمالا موجهة إلى

جميع أولئك الذين يتركون عقولهم تهيم فى آفاق تبعد عن محيط الأعمال التى بين أيديهم .

ومن الناس من ينكر أن أحلام اليقظة تنتابه إذا ما سئل فى ذلك . ويفخر بأنه من ذوى النزعة العملية ، وأنه منشغل دوما بشئونه وأعماله عن كل ما عداها . ويرى فى انطلاق الخيال ، وأحلام اليقظة أموراً حقيقة بالزراية فمثله فى ذلك مثل إخوة يوسف عندما سخروا من أحلام أخيهم ، ومع ذلك فإن يوسف ، دون إخوته ، هو الذى وصل إلى قمة المجد . ولولا عمق استبصار الحالمين من الأفراد ذوى الخيال الخصب لما جوعا أولئك الذين كرّسوا كل جهودهم العقلية لأعمالهم . وليس المثال الذى أوردناه فريداً فى بابه ، فإن التاريخ حافل بحالات كثيرة مماثلة ، إذ كثيراً ما كانت جلائل الأعمال تتم على أيدى أناس امتازوا بسعة الخيال وخصوبته . ونحن وإن لم نستطع تقدير الدور الذى لعبته أحلام اليقظة فى عصور التاريخ ، لا يسعنا إنكار عظم ذلك الدور وأهميته .

إن فى وسعنا أن نعترف بذلك دون أن نقصد من ورائه القول بأن أحلام اليقظة تكون دوما ذات قيمة ، أو أن ننادى بضرورة تشجيع الاستسلام لها . ولا نعنى أن شرود الذهن يفوق فى الأهمية انتباهنا لما قد يكون أمامنا من أعمال . فنحن نرى فى المدارس مثلا أن ساعات بأكملها تضيع سدى من وقت التلاميذ والمدرسين على السواء بسبب المراجعات الكثيرة التى كان من الممكن الاستغناء عنها لو أن التلاميذ قد ركزوا انتباههم فيما يُلقى عليهم من دروس . كذلك يضيع جزء كبير من الوقت فى شتى الأعمال بسبب عدم الانتباه الجدى إلى التعليمات الضرورية لممارستها وإتقانها ، كما يتكرر فى المصانع وقوع الحوادث التى تؤدى إلى تلف الآلات ، وضياع الأرواح والمنتجات ، وذلك بسبب غفلة العمال عن التفكير فيما هم مكلّفون به من أعمال . لذلك فإننا إذا كان فى وسعنا أن ندلل على أن حلم اليقظة شىء مفيد لأنه كان السبب فى كثير من المخترعات والاستكشافات ،

فلا بد أن نذكر بجانب هذا أن فيه أضراراً ، فإن كثيراً من حوادث القطارات مثلا قد ترجع إلى شرود ذهن أحد عمال القاطرة .

يبدو إذن ، أو تلك هى الحقيقة فى أغلب الحالات ، أن مسألة النفع أو الضرر لا تتصل بحلم اليقظة نفسه ، بل بكيفية استخدامه . وهذا يثير على الفور مشاكل عـدّة . إذ قد يتساءل البعض عما إذا كان من المستطاع استغلال حلم اليقظة فى خدمة بعض الأغراض النافعة فى الحياة . ويمكن القول إجمالا إن ذلك ممكن ، إذ لا يحتمل أن نشاطاً من هذا النوع ، يحدث لجميع الناس ، لا يكون ذا نفع بيولوجى أياً كان . ومع ذلك فهناك ثغرة واسعة تفصل بين الاعتراف بنفع شىء ما ، و بين معرفة وسيلة استخدامه . ومثل هذه الثغرة لا يتسنى رتقها إلا عن طريق المعرفة الواسعة العميقة .

فالقول بأن أحلام اليقظة عند الصغار قد تكون مصدراً للمعرفة التى تساعدنا على إرشادهم إلى العمل المنتج ، والإشباع الضرورى فى حياتهم ، هـذا القول لا يعنى بالضرورة أن نعتقد بأن واجبنا ينحصر فقط فى توجيه جهودنا إلى الإشباع المباشر للعناصر الظاهرة فى حلم اليقظة . فإذا رأى الصغير فى حلم اليقظة أنه شرطى أو رجل من رجال الحريق مثلا ، فهل ذلك يعنى بالضرورة أنه لابد حاصل على النجاح والسعادة ، إذا ما تسنّى له فى المستقبل أن يكون شرطياً أو أحد رجال إطفاء الحريق ؟ لا يمكن أن يكون ذلك صحيحاً ، ولكن الشىء الأكثر احتمالا هو أن الطفل ينشد من الحياة أكثر مما هو ميسور له فعلا ، و يعتقد أنه سوف يحصل على ما يشتهى من إشباع إذا قام بالعمل الذى صوّر له خياله أن رجل الشرطة ، أو رجل الحريق ، يؤديه . و إذا والينا البحث بدقة رأينا على الفور كيف أن الصور الذهنية عن الشرطة ورجال المطافىء تبتعد عن الحقيقة كثيراً . و ينطبق ذلك على آلاف من الناس الذين يتخيلون أنفسهم فى أحلام يقظتهم فى صـور كواكب السينما ، أو مغنيات الأوبرا ، أو المستكشفين ،

أو الساسة ، أو القادة الحربيين ، أو غيرهم من الشخصيات الممتازة . ولا يقتصر الأمر على أنهم يفشلون فشلا ذريعاً إذا هم شغلوا فعلا تلك المراكز الرفيعة ، بل إنهم كذلك لن يجدوا فى حقيقتها ذلك الإشباع الذى كانوا يشتهونه لتلك الرغبات التى تعبر أحلام اليقظة عنها بشكل غير مباشر فلا ينبغى أن يُنظر إلى حلم اليقظة على أنه تعبير حرفى عن حاجة من الحاجات ، بل إنه ليس أكثر من مجرد قرينة قد تعيننا ، مع الدربة والصبر ، على تشخيص وجوه النقص التى يحتاج الحالم إلى إكمالها ، وترشدنا إلى الوسائل التى يمكن بها أن نساعده من الناحية التربوية .

إن المدرسين وغيرهم من المشتغلين بالتربية يشعرون باستسلام الأطفال كثيراً لأحلام اليقظة فى الأوقات التى يجب عليهم فيها الانتباه إلى دروسهم وهم يعلمون أن عقول الأطفال لابد أن تسبح فى آفاق الخيال ، مبتعدة عن الواجبات التى يكون عليهم أداؤها فى وقت من الأوقات ، ما داموا غير منشغلين بأداء عمل يستحوذ على جميع اهتمامهم . فعندما يلقى المدرس على بعض صغار التلاميذ درساً ، فكثيراً ما يكون انتباههم مسدّداً إلى شىء آخر . ولهذا السبب يُطلب دائماً من المدرس الذى ما زال تحت التمرين أن يوالى إلقاء الأسئلة أثناء الدرس كى يضمن انتباه التلاميذ . ولكن تركيز الانتباه أمر عسير ، بينما يعتبر انطلاق العقل هائماً فى أجواء الخيال من أسهل الأمور .

وقد يأخذ المدرس فى الكلام عن الجبال التى تغطى قممها الثلوج ، قاصداً بذلك البدء فى مناقشة يشترك فيها التلاميذ ، عن العلاقة بين الارتفاع والمناخ . غير أن ذكر «الثلوج» قد يذكّر أحد التلاميذ بالرجل الثلجى الذى ساهم فى بنائه فى الشتاء الماضى ... فيتذكر كرة الثلج الكبيرة التى صنعها ، ورمى بها غلاماً كان يهاجمه ، وكيف انفلت ذلك الغلام هارباً ... وهكذا ينطلق خياله فيرى مواقع قتال استخدمت فيها كرات كبيرة من الثلج ... وهنا يكون قد نسى

الدرس والمدرسة معاً . إذ تصبح هـذه الخبرة التى أخذ فى تصورها حقيقية فى نظره ، فتتغير تعبيرات وجهه ، ويبدو عليه الحماس كما لو أنه كان يساهم فعلا فى معركة ثلجية . فهو يبتسم عندما يرى كراته تصيب الأطفال الذين يرميهم بها ، ويشعر أنه واقف فعلا وسط الثلوج ، وأنه يؤدى جميع أنواع النشاط التى تمر بخياله ... فالخبرة لا تقل واقعية عن الواقع ذاته ، وهى لا تنتهى إلا عند ما يلحظ المدرس أن التلميذ غير منتبه إلى الدرس ، فيلقى عليه سؤالا يعيده إلى حياة الواقع .

وهناك فرق شاسع بين التفـكير البسيط الآلى والتفـكير المنطقى الذى ينتقل فيه الفرد تدريجاً و بصعوبة من المقدمات إلى النتائج . كما أن هناك فرقاً شاسعاً كذلك بين حياة الفرد فى ثنايا حادث حافل بالمجهودات الناجحة وحياته فى درس تـكون كل محاولة فيـه موسومة بالصعوبة ، ومؤدية غالباً إلى الشعور بالفشل والبلادة . لذلك لا يدهشنا أن تـكثر أحلام اليقظة عند التلاميذ ، وعلى الأخص أولئك الذين تحول استعداداتهم وقدراتهم دون أن يصيبوا من النجاح قـدراً يتناسب مع ما يبذلونه من مجهود .

وقد يكون مما يثير الدهشة أكثر من ذلك أن يتكرر حدوث أحلام اليقظة أثناء الامتحانات التى تعتبر من الحوادث الهامة فى حياة الطالب . فوقت الطالب فيها محدود بساعات معدودات ، عليه أن يجيب أثناءها عن عدد من الأسئلة الصعبة ، وقد يتوقف مستقبله كله على تلك الإجابات ، كما أن أقل ما يحدث له إذا ما رسب فى الامتحان أن يضطر للتقدم لنفس الامتحان فى نهاية عام قد سقط من حساب حياته . ومع ذلك فإن المراقبين فى الامتحانات الجامعية يعلمون تمام العلم أن الطلبة كثيراً ما يمسكون عن الـكتابة عند ما يعترضهم سؤال صعب ، ويبدو عليهم أنهم يحاولون حصر شتات ذهنهم لبضع دقائق ، ثم يتركون عقولهم تنطلق بعيداً عن المشكلة التى بين أيديهم . وفى مثل تلك الأوقات يظهر الاسترخاء التام على الطالب ، وتتغير تعبيرات وجهه ، ويدل مظهره على أنه قد نسى كل

ما يحيط به نسياناً تاماً ، كمرور الوقت ، وورق الإجابة ، وغرفة الامتحان ، وقد تنقضى عدة دقائق قبل أن ينتفض الطالب انتفاضة سريعة ، كشخص صحا فجأة من نومه ، ويعود إلى الامتحان ، مدركا أنه قد أضاع من وقته الثمين بضع دقائق .

لذلك يبدو أن الأمر من جميع نواحيه يتلخص فى أن الطالب قد أضاع وقته سدى . فهو قد شغل نفسه عن العمل الهام الذى أمامه ، ولم يستغل وقته فى معالجة الأسئلة وإجابتها . وكلما ازداد حديثنا عما « لم » يعمله الطالب ، قوى ميلنا إلى أن استرساله فى حلم اليقظة من الأمور التى تستلزم البحث والدراسة . ولذلك ينبغى أن نتكلم عما قام به فعلا . فهو قد أحلّ مكان غرفة الامتحان وسطاً آخر أكثر ملاءمة ، تخلص فيه من زملائه الطلبة ، ومن المراقبين ، وأوراق الامتحان ، بأن أزاح ذلك جميعه من شعوره ونسيه ؛ أى أنه أبدل بعملية التفكير العميق المنطقى الصعبة نوعاً من التفكير البسيط الآلى الذى لا يحتاج إلى جهد . وبذلك يكون قد طرد الامتحان الذى لا يسرّه أمره ، وما يحيط به من توتر وقلق ، وأحلّ مكانه موقفا يعتبر على الاجمال لذيذاً سارا . ويعتبر هذا بلا شك عملا رائعاً . ولا بد لنا من أن نقره ونستمسك به ، حتى مع اعترافنا فى نفس الوقت بأنه قد يكون عقبة فى سبيل امتحان ، أو قيادة سيارة ، أو إدارة آلة . وعلى الرغم من أن الذين ينظرون إلى النجاح فى الامتحان ، أو قيادة السيارات ، وإدارة الآلات ، على أنها أعمال هامة ، يؤكدون أن أحلام اليقظة لا غناء فيها ولا فائدة منها ، غير أننا يحق لنا أن نتساءل تساؤلا له ما يبرره عما إذا كانت تلك العملية العجيبة التى تؤدى إلى حلم اليقظة لا تقدم لنا فى ظروف أخرى شيئاً له قيمته الكبرى فى الحياة .

ومما يجدر بالذكر أن أولئك الذين لا يرضون عن حلم اليقظة يتحدثون دوما عنه كما لو كان فى وسع الفرد أن يقاوم الاسترسال فيه ، وأن يتخلص منه إذا أراد .

ولهذا ينادون بضرورة « التركيز » ، و « مسايرة الفكر للعمل » ، و « الانتباه » ، و « العودة إلى حياة الواقع » ، وغير ذلك ، إذ بتلك الوسائل يستطيع الفرد العادى عقد موازنة بين عالم الأحلام ، وعالم النشاط المألوف ، والتعبير عن يقينه بأن حلم اليقظة فى ذاته إنما ينتج عن فشلنا فى إعمال إرادتنا .

وسنناقش هذا الرأى فيما بعد . أما الآن فيهمنا أن نبحث حالة عدد من الناس الذين ينجحون فى مزج العمل بحلم اليقظة . وأولئك هم الذين يقال عنهم أنهم قد أفلحوا فى استغلال أحلام اليقظة . فمؤلفو القصص والروايات السينمائية والتمثيليات ؛ وكذلك الفنانون الذين يقومون برسم تلك اللوحات المألوفة التى تزين آلاف المنازل ؛ كل أولئك لا يقدمون صوراً دقيقة مضبوطة لأحلام اليقظة . ومع ذلك فإن أحلام اليقظة فى كثير من الأحيان تكون المادة الخام للصورة ، أو الفيلم ، أو القصة ، أو المسرحية . ثم يستخدم الرسام أو المؤلف وسائله الفنية كى يضفى عليها نوعاً من التماسك والوحدة يبرز تأثيرها . أى أنه ، بعبارة موجزة ، يسد الفجوة القائمة بين حلم اليقظة البدائى ، والإنتاج الفنى ، وذلك بواسطة عملية من عمليات التنسيق [١] .

فلدينا إذن فى الحياة العصرية ملايين من الناس يشتركون ، عن طريق المسرح والصحافة والكتب ، فى أحلام اليقظة التى كرّس عدد من الناس حياتهم ، لتحويلها إلى صور مألوفة . وتمتاز بعض تلك الصور بمهارة فنية تثير استهجان الذين ينظرون إليها من الناحية الجمالية ، كما أن بعضها قد ينال استحسان الجمهور ، وسخط النقاد . ومن ثمّ نشأ عند المهتمين بذوق الجمهور نوع من الاعتقاد الراسخ بأن سواد الناس لا يكترثون للقصة ، أو الفيلم ، الذى يغلب عليه الإتقان الفنى .

غير أننا نرى من حين لآخر ظهور قصة أو فيلم سينمائى أو مسرحية تشبع المطالب الجمالية عند النقاد ، كما تنال فى الوقت نفسه نجاحاً شعبياً غير عادى . وهذا

---

(١) Secondary Elaboration

وهذا يدفعنا إلى الاعتقاد بأن الجمهور قد يتطلب شيئاً مختلفاً عن اللون الفنى الذى ينشده النقاد ، شيئاً ينظر إليه على أنه ضرورى له . وهو لذلك يفضّل أن يحصل على ما يريد ولو كان فى صورة رديئة . على أن يُقدَّم له غيره مما لا يكترث به ولو كان فى إطار فنى بديع .

وتمثل قصة « سندرلا » ذلك فى وضوح . فقد اكتشف الذين قاموا بدراسة الثقافة الشعبية وجود أكثر من ثلثمائة صورة مختلفة لتلك القصة بالذات . وهى تختلف فى تفاصيلها بحيث تلائم الظروف الجغرافية والاجتماعية للبيئة التى تظهر فيها ، ولكنها تتفق فى جوهرها من حيث أنها تصوّر حياة الإبنة الصغرى المضطهدة التى تصبح زوجة لأحد الأمراء . وقد اتضح أن إحدى تلك الصور كانت من أقدم القصص التى ظهرت فى العالم . ومع ذلك فمنذ بضع سنوات أصدرت إحدى دور النشر اللندنية طبعة جديدة من قصة سندرلا بيع منها عدد من النسخ يعتبر رقماً قياسياً فى انجلترا والولايات المتحدة . وقد لا يجدينا أن نفكر فى عدد المرات التى قُدِّمت فيها قصة سندرلا للجمهور ، سواء فى صورة رواية أو فيلم سينمائى أو تمثيلية ، ومع ذلك ينبغى أن نعلم أن حياة سندرلا ليست إلا موضوعاً هاماً من موضوعات حلم اليقظة ، فى كل زمان ومكان ، بالنسبة إلى أولئك الذين يشعرون أنهم موطن لازدراء من أسعدهم الحظ بالمكانة الرفيعة والمركز السامى . ولذلك فإنهم يسبحون فى الخيالات التى يظهر لهم فيها فجأة من ينتشلهم من وهدة شقائهم ، ويسمو بهم إلى المركز الذى يستطيعون فيه أن يتمتعوا أولئك الذين طالما نالهم التحقير على أيديهم . وتظهر هذه الخطة فى قصة « متجر العجائب »[١] لشارلز ديكنز حيث يسرد فيها أحلام المركيزة التى ترى فى « ديك سويفلر »[٢] ، الذى اقتحم عليها حياتها ، منقذها البطل الذى ليس سوى صورة للأمير الساحر فى قصة سندرلا .

---

(١) Charles Dickens : "Curiosity Shop"

(٢) Dick Swivler

لذلك يبدو أن وظيفة القصص الشعبية ، وكذلك الفيلم السينمائى ، والتمثيليات ، هى ، فى كثير من الحالات ، أن تعيد على الناس سرد أحلامهم فى صورة استطاعت مهارة المؤلف أو المخرج أن تصبغها بصبغة الحقيقة والواقع ، بدلا من صورة الحلم المراوغة المفلاتة . فان كان ذلك صحيحاً فإن وسائل الإخراج والنشر الحديثة ، التى تجعل الأفلام والكتب فى متناولنا ، تكون قد أنزلت حلم اليقظة من الحياة منزلة لم يسبق له أن شغلها . ومن الجلى أن هذه حقيقة لها نتائج اجتماعية هامة ، على الرغم من أن هذه النتائج ليست جلية واضحة . والأمر فى عمومه أكثر تعقيداً من أن نصدر عليه أحكاما عامة سريعة سطحية .

كانت القصص الشعبية ، فيما مضى ، تنقل إلى لغات كثيرة ، كى يتهيأ للمؤلفين من انجليز وأمريكيين وفرنسيين وألمان أن يؤثروا بإنتاجهم الخيالى فى شعوب تعيش فى ظروف تختلف عن الظروف التى ألفها أولئك الكتاب . و إذا قلنا إن الشعب الإنجليزى يعرف الكثير عن مؤلفات « دستويفسكى » مثلا ، فلسنا نعنى بذلك أن عدداً كبيراً من الإنجليز يعرفون هذه المؤلفات . و إذا قيل لنا إن الأسبان يقبلون إقبالا شديداً على قراءة كتب أحد الكتّاب البريطانيين العصريين ، فينبغى ألا يغيب عن بالنا أن بلداً مثل أسبانيا ونسبة الأميين فيه كبيرة ، يقبل المتعلمون فيه دائماً على قراءة مؤلفات نفر قليل من المؤلفين الوطنيين والأجانب على السواء . ومنذ جيل تقريباً ، استطاعت أفلام السينما ، وهى مما يفهمه الأمى والمتعلم ، أن تقدم للعالم قصصاً لم تؤلف إلا فى عدد قليل من البلاد . وقد أمكن إلى عهد غير بعيد أن نرى جموعا من الفلاحين والعمال المصريين يبتهجون بجيل شارلى شابلن وألاعيبه ، ولم يكن تحمسهم لذلك يقل عن حماس الفرنسيين والبريطانيين والأمريكيين والألمان ممن كانوا يشاهدون فى نفس الوقت أفلام شابلن فى بلادهم . ولا يصدق هذا على شابلن وحده ، و إنما يصدق أيضاً على عدد من الممثلين الأمريكيين والانجليز والإيطاليين والفرنسيين ، وما أخرج لهم من

روايات فى عهد الفيلم الصامت . وقد يحدث فى بعض الأحيان أن يعجز نفر من المشاهدين عن فهم تفاصيل بعض المشاهد . فقد لا يدرك أجنبى مثلا أن تعليق ثلاث كرات نحاسية خارج أحد الحوانيت يرمز إلى أنه حانوت رهونات . ولكن مثل تلك الصعوبات ليست بذات قيمة ، إذ يستطيع المتفرجون فى العادة أن يتتبعوا قصة الفيلم ، و يفهموها تمام الفهم ، كما أنهم يحيون أثناءها مع البطل ، فيشاطرونه آلامه ومخاوفه ومسراته وانتصاراته . ومما لا شك فيه أن تأثر الكثيرين منهم بتلك المناظر قد يكون من القوة بحيث يساوى عندهم تماماً الحياة فى جو الخبرات التى تصفها . و يبدو أن هناك من الأدلة ما يوحى بأن ذلك الأمر ليس بالخبرة الجديدة عليهم ، بل إنها تكون من التجارب التى مرت بهم فعلا فى أحلام يقظتهم الخاصة ، ولكنها تعرض أمامهم على المسرح فى صورة تفوق حلم اليقظة فى الوضوح والواقعية . وفى السينما يحل التصوير الشديد الوضوح محل الغموض فى حلم اليقظة مما يكسب المشهد جميعه لونا من الحقيقة التى تتميز بها الصور فى نظر البسطاء من الناس . فليس من الغلو فى شىء أن نقول إن الناس كانوا ، وما زالوا ، يجدون فى السينما مكاناً تعرض عليهم فيه أحلام يقظتهم فى صور تتجاوز فى وضوحها وواقعيتها تلك الأحلام ذاتها . وأيا كان معنى أحلام اليقظة فى نظرهم ، فإن مشاهد الفيلم تتجاوز حدود هذا المعنى . كذلك يحتمل أن تلك المشاهد ما كانت لتثير عندهم اهتماما ، لولا أنها تتصل بأحلام يقظتهم .

و ينطبق هذا القول أيضاً على القارىء الذى تلهيه قراءة كتاب عن كل من حوله من الناس ، وعن مرور الوقت . فيحيا فى الخيال حياة ليست ملكاله ، بل ملكا لبطل الكتاب . والعلاقة واضحة بين هذا و بين حلم اليقظة . و يحتمل جداً أن يتوقف مبلغ المتعة بالكتاب هنا أيضاً على انطباق موضوعه على أحلام اليقظة عند القارىء . فهو يمر بين صفحاته بنوع من الخبرة أشد عمقاً ، وأكثر قوة وواقعية من جميع الخبرات التى ألفها من قبل .

ولا شك أن القول بأن تقديرنا للكثير من القصص والمسرحيات والكتب

يتوقف على العلاقة المتينة بينها و بين أحلام يقظتنا ، وعلى استطاعتنا رؤية أنفسنا فى صورة أبطالها وشخصياتها ، لا يعنى أننا قد ذكرنا كل شىء يجب ذكره عن الصور الفنية ومبلغ تقديرنا لها . ولكن الذى نعنيه فى الحقيقة هو أن اتجاهات الناس نحو الأشياء التى تثير اهتمامهم بشكل قوى ، وتحرك عواطفهم ، يكون بينها و بين أحلام اليقظة والعمليات العقلية التى تؤدى إليها أنواع مختلفة الدرجة من الارتباط فى الأغلب . وتلك مسألة ينبغى أن نبحثها بعد قليل .

كذلك يحتمل ألا تكون أفكارنا عن الفن ، كما يتمثل فى الصور والقصص والتمثيليات ، هى وحدها التى ترتبط بأحلام اليقظة ، بل إن هذا الارتباط قد يقوم أيضاً بين الأحلام و بين ما لدينا من اتجاهات نحو العالم الذى يحيط بنا كما نراه . فعندما بدأ الناس يتأملون فى أسباب الظواهر الطبيعية ، أخذوا يتحدثون عن كائنات قوية خفية تسبب سقوط الأمطار ، وسطوع الشمس ، وقصف الرعد ، وما شابه ذلك . ولم تكن تلك الكائنات فى جوهرها إلا هم أنفسهم ، وقد وهبوا تلك القوى الهائلة التى يحسدون عليها . وعندما اعتراهم الخجل بعد ذلك من تلك التخيلات الساذجة ، أخذوا يتكلمون عن القوى غير المنظورة ، وتجاذب الذرات ، ويصفونها أحياناً بأنها وحدات تجريدية ، ولكن التعبير عنها كان يوحى غالبا بأنهم ما زالوا يفكرون فى أولئك الأشخاص الذين سبق لهم أن أنكروا وجودهم الفعلى . فإن « إدجار ألان پو » يتحدث فى « يوريكا » [١] ، قصيدته المنثورة التي كان مولعاً بأن يتخيل أنها تحل لغز الحياة ، عن ذرات يسعى بعضها إلى بعض سعياً موصولا ، كما يسعى الطفل إلى أبيه الحبيب الذى فقده ، دالاً بهذه العبارة على أنه كان يفكر فى الذرات وهى تنشد نفس ما كانت تصوّره له أحلام يقظته .

ولقد دهش « فرانسيس جولتون » [٢] عندما اكتشف أثناء بحثه فى

---

(١) « Eureka » by Edgar Alan Poe

(٢) Sir Francis Galton وهو من رواد حركة القياس العقلى فى انجلترا ، وجه أول اهتمامه إلى التصور وأجرى فى ذلك تجربته الشهيرة المعروفة باسم « استخبار مائدة الإفطار » المترجم

العمليات العقلية عند معارفه من العلماء أن تفكيرهم المجرد كان مصحوباً بصور ذهنية لا يبدو أن لها ارتباطاً بالموضوع الذى يفكرون فيه . ولو أن جولتون عاود اليوم محاولاته فمن المحتمل أنه كان يستطيع التوصل إلى إثبات وجود تلك العلاقة التى ليس ثمة شك فى وجودها بين التفكير المجرد والصور الذهنية ، ولأمكنه أن يثبت ، فى كثير من الحالات ، أن صوغ الفروض العلمية إنما هو محاولة لصب مجموعة من الحقائق فى قالب شخصى — وقد لا يكون ذلك دائماً صريحاً كما فى محاولة « إدجار ألان پو » — ولكنه مع ذلك يحدث كثيراً بالفعل . ولو استطعنا أن نبرهن على وجود سلسلة من الارتباطات بين التأملات المجردة عند العلماء و بين أحلام يقظتهم ، فإن هـذا لن يقلّل إطلاقا من قيمة فروضهم العلمية ، لأن صحة النظريات العلمية لا تتوقف بحال من الأحوال على أصلها ، و إنما تتوقف على علاقاتها بالحقائق التى تحاول تفسيرها ، وعلى مـدى قدرتها على الصمود فى وجه الحقائق الواقعية ، والتنبؤ بنتائج صادقة عن تلك الحقائق .

وهناك نقطة أخرى تستحق الذكر فى هذا الصدد ، وهى أن نوع التفكير الذى علينا أن نبحثه عندما نقوم بدراسة أحلام اليقظة ، يكون أكثر بدائية وسذاجة من التفكير السليم المتزن الذى نميل إلى الاعتقاد بأنه النوع السائد عند المتعلمين من الراشدين . ولذلك ينبغى أن نتوقع أنه يلعب فى الحياة العقلية للأطفال دوراً أكبر مما يلعبه فى حياة الكبار من الرجال والنساء ، فإن هؤلاء ، ومنهم المدرسون والآباء ، يطلب إليهم باستمرار أن يفسّروا العالم ، كما يبدو فى نظرهم ، لأطفالهم الذين لم يكتمل نضجهم ، والذين يعجزون عن التفكير المجرد . وقد قيل إن والد « لويس كارول »[1] اعترضته مشكلة من هذا النوع حينما جاءه ولده الذى لم يكن قد تجاوز الثالثة من عمره ، وطلب منه أن يفسر له جدولا للوغار يتمات

---

(١) Lewis Carol مؤلف قصة « أليس فى أرض العجائب » ، وكان أستاذا للرياضة فى أكسفورد ، واسمه الحقيقى C.L.Dodgson (المترجم)

كان قد عثر عليه . لقد حاول الأب ذلك جهده ، ولكن الطفل كان يقاطعه باستمرار بقوله : « لا . لا . فسّره لى»

إن ما كان الطفل يريده بالضبط أمر لا يمكن القطع به . فالمدرس ، أو الأب ، لا يسعه عندما يطلب إليه شيء كهذا إلا أن يُجسّد الأشياء التى يتكلم عنها — كما فعل « پو » بالذرات — ويعرضها فى صورة تؤدى نوع النشاط التى يعرفها الطفل من خبرته الخيالية أو الحقيقية . فيقدَّم للطفل بذلك قصة بدلا من الفرض العلمى . وهو إذا لم يستطع أن ييسر للطفل مثل هذه القصة ، فإن الطفل غالباً ما يبتدع لنفسه واحدة . ويقدم لنا « بيير بوڤيه » فى كتابه « العاطفة الدينية »[١] أمثلة رائعة للطريقة التى يفكر بها الأطفال فى علاقة الظواهر الطبيعية بمخلوق بشرى هائل ، يرون فيه علة لحدوث تلك الظواهر عن طريق أعمال تشبه ما يشتهى الطفل القيام به . كذلك نجد فى دراسة الأستاذ «بياچيه»[٢] العميقة للأطفال قدراً كبيراً من هذا النوع من التفكير ، وذلك فى النظريات الكثيرة التى يكوّنها الأطفال عن عالمهم . ويبدو أن كل ما نعلمه عن محاولات الطفل لفهم العالم الذى يعيش فيه ، وفهم التفسيرات التى نقدمها له عن ذلك ، يبرر اعتقادنا فى أن الطفل إنما يخلع عليها أحلام يقظته .

إننا لا نشك فى أن هذه عملية طبيعية سوّية لا استثناء فيها . فالطفل فى تفكيره ، كما هو الحال أيضاً فى فعاله ، يكرر النمو الأنطولوجى لتاريخ الجنس كله . ومن المهم أن ندرك أن هذه المرحلة التى يجتازها الآن إنما هى إحدى مراحل النمو التى لابد له من المرور بها وتجاوزها إلى ما بعدها . وقد يكون حلم اليقظة عند الطفل الصغير تفسيراً نهائياً ما دام صغيراً . ونحن إذ نقبل هذا الرأى إنما نؤمن بأنه لابد أن يحين الوقت الذى ينتقل فيه الطفل من ذلك إلى البحث

---

(١) « Le Sentiment Religieux » par « Pièrre Bovet »

(٢) Jean Piaget كان أستاذاً بجامعة جنيف ، ومدير المكتب الدولى للتربية ، ومعهد جان جاك روسو . وله مؤلفات كثيرة منها : « اللغة والفكر عند الطفل » و« فكرة الطفل عن العالم » و« فكرة الطفل عن العلية » وهو من أئمة رجال التربية فى هذا العصر . (المترجم)

عن تفسير معقول ، وتعليل علمى صحيح . غير أننا قد لا نطيق أن نرى بعض الراشدين يعتقدون أن هذا العالم الحديث المعقد يمكن تفسيره تفسيراً كاملا بأسطورة « سان جورج والتنين ، والأميرة الهيفاء » . فالأميرة تمثل أرض الوطن والتنين يمثل الاشتراكية أو الرأسمالية أو أى مذهب آخر من المذاهب التى يبغضها الشخص . ونحن عندما نصغى إلى مثل تلك الخرافات السياسية فإننا ندرك أن سامعها لا يقبلها إلا لأنه يريد أن يرى نفسه فى دور سان جورج الخيالى .

ولا يصعب علينا فى ميادين السياسة والاقتصاد أن نرى أن أحلام اليقظة تستطيع أن تعيق الناس عن القيام بتلك المهمة الشاقة ، وهى مهمة مجابهة الواقع . وذلك لأن حلم اليقظة سار ممتع ، وسهل كذلك . فهو لذلك يقدّم نوعاً من الإغراء الذى كثيراً ما يستسلم له الرجال والنساء استسلاماً كلياً أو جزئياً . ويوجد فى مستشفيات الأمراض العقلية عندنا كثير من الأفراد الذين يرفضون رفضاً قاطعاً أن يتقبلوا العالم الواقعى ، بل يقضون حياتهم فى حالة مستمرة من الضلال والزيغان[1] . كذلك يوجد فى الحياة اليومية كثير من الأفراد الذين يكونون من ذوى النزعة العملية الواقعية المتزنة فى ميدان الأعمال العادية مثل علاقاتهم التجارية أو مهنهم وصناعاتهم ، ولكنهم يكونون ضعيفى التقدير لعالم الواقع خارج ذلك الميدان . ويمكن النظر إلى مثل أولئك الناس على أنهم أفراد نما فيهم جانب واحد ، ولكنهم ظلّوا صغاراً أو مراهقين فى جوانب أخرى مثل علاقاتهم بغيرهم من الناس ، وفكرتهم عن واجباتهم كمواطنين ، وتقبلهم للمسئولية .

فعلى الرغم من اعترافنا بمكانة حلم اليقظة فى الحياة العقلية العادية ، نرى فى الوقت نفسه أنه لا يخلو من الخطر إذا لم يتهيأ لنا أن نحسن استخدامه وتوجيهه . فلا ينبغى أن ندعه يعترض سبيل نمو الشعور بالواقع ، والقياس العقلى للخبرة ، وإن أول خطوة فى سبيل ضبطه واستخدامه هى أن نفهمه فهماً صحيحاً .

(1) Delusion

الفصل الثانى

حلم اليقظة

لقد دَلَّ ظهور كتاب « سيكولوجية حلم اليقظة » للدكتور « ڤارندونك »[1] على أن الأنظار بدأت تتجه أخيراً بشكل منظم إلى نوع من الخبرة ، لدينا من ما يدل على أنه من الخبرات العادية المألوفة لجميع الناس ، وأنه ربما كان أيضاً مرحلة طبيعية من مراحل النمو عند الكائنات البشرية . صحيح أن فرويد وأتباعه لم يتجاهلوا أحلام اليقظة ، غير أنهم كانوا دائماً يشيرون إليها باختصار عند قيامهم بدراسة الرؤى وغيرها من الظواهر العقلية .

ولقد قصر علماء النفس ، قبل العشرين عاماً الأخيرة ، كل عنايتهم على دراسة العمليات العقلية بطريقة التأمل الباطنى[2] ، أو بواسطة بعض تجارب تجرى فى المعمل على الذاكرة والتعب وزمن الرجع وغيرها من الظواهر التى تشبهها . كما أن غيرهم ممن كانوا يعملون فى ميدان علم النفس الفسيولوجى أخذوا يهتمون بتلك الظواهر التى ندرك اليوم — كما أدرك ذلك أيضاً واحد من أعظم العلماء الذين ساهموا فى تلك الدراسات — أنها فسيولوجية أكثر منها نفسية . وقد قال عالم آخر عند تعليقه على أكثر هذه البحوث أهمية ما يأتى : « اننا مانكاد نعتقد بأننا قد كشفنا إحدى الحقائق عن العقل ، حتى يتبين لنا أنها ليست سوى حقيقة عن الجسم » . غير أن الأستاذ « شارلز سبيرمان »[3] كان نسيج وحده فى

(١) Dr. Varendonck : "Psychology of the Daydream"

(٢) Introspection وتترجم أيضاً « بالاستبطان »

(٣) Prof. Charles Spearman من أعظم رواد حركة القياس العقلى فى العصر الحديث . وقد اشتهر « بنظرية العاملين » فى الذكاء (المترجم) .

ميدان علم النفس التجريبى ، فقد كانت بحوثه الرائعة فى دراسة الاختبارات العقلية وقياس الذكاء السبب الرئيسى فى أن اختبار القوى العقلية أصبح علماً دقيقاً. ولقد أقام أتباعه ، فى وقت قصير نسبيا ، بناء شامخا فوق ذلك الأساس الذى أحكم الأستاذ وضعه.

وقد بذر أنصار التأمل الباطنى بذور الريبة فى قلوب الناس فيما يختص بإمكان قياس القدرات العقلية ، كما أنكر بعضهم ذلك فى صراحة ، مما أدى إلى التشكك فى استطاعة العلم إخضاع الخصائص العقلية لعمليات القياس . و بدأ الناس يتساءلون عن السبب الذى يدعوهم إلى الكلام عن « الذكاء » [1] بدلا من التحدث عن « الفطنة » [2] التى يكثر ذكرها فى الكتب . وقد حدث فى إحدى الجامعات الهامة أن أحد الذين قدموا هبة مالية للإنفاق على أحد كراسى الأستاذية قد اشترط ألا يشغل هذا الكرسى عالم معين ، بحجة أن ذلك العالم من المشتغلين بعلم النفس التجريبى .

كذلك أصاب الشك والإنكار حركة أخرى من حركات علم النفس ، وهى الحركة التى بدأها فرويد وزميله « بروير » عند قيامهما بدراسة عدد من الظواهر العقلية الشاذة بطريقة جديدة ، دلت — بغض النظر عن اختلاف الآراء فى تأويل نتائجها — على أن جزءاً كبيراً من ميدان الظواهر العقلية يعجز التأمل الباطنى عن الوصول إليه مهما حاول . وقد التف حول فرويد نفر من الشبان الأذكياء ، ومن بينهم يونج وستيكل وأدلر وفيرنكزى و إرنست جونز وغيرهم . وصرح الأستاذ « وليم مكدوجال » بأن فرويد قد أضاف إلى معرفتنا بالطبيعة البشرية ما لم يستطعه رجل آخر منذ أرسطو . هذا مع العلم بأن مكدوجال لم يكن يعطف كثيراً على هذه الحركة الجديدة ، بل إنه كان من أشد المعادين لها فى سنوات حياته الأخيرة .

ولقد نتج عن الاتجاه الذى كان يسود تفكير المدرسين الرسميين لعلم النفس

(1) Intelligence (2) Intellect

فى الكليات والجامعات أن عمل فرويد كان مجهولا بوجه عام فى بريطانيا . غير أن الحرب العظمى الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) ، التى دفعت بملايين البريطانيين والبريطانيات إلى أحضان الجيش كانت السبب فى لفت الأنظار إلى ظواهر معينة لم تكن معروفة حتى ذلك الوقت إلا لرجال الطب ، إذ أصبحت حالات الشذوذ فى السلوك ، التى أفقدت كثيراً من الناس صلاحيتهم للأعمال الحربية ، من الأمور المألوفة ، وكانت تعتبر نوعا من « الأمراض » التى تكون فى العادة مصحوبة بأعراض جسميه . ولكن فحص المرضى فحصاً طبياً لم يكشف عما كان متوقعاً من الخلل العضوى ، كما أخفقت أنواع العلاج العادى فى تحسين حالات المرض . وكان الأطباء فى ذلك الوقت ينظرون إلى المرض الذى لا تجدى العقاقير أو العمليات الجراحية فى علاجه على أنه مرض خيالى لا حقيقى ، وأن المصابين به ليسوا إلا متمارضين . ولكن بعض أولئك الأطباء اعترف بأن ظروف الحرب يحتمل أن تؤدى إلى الإصابة بمرض يختلف فى النوع عن الأمراض التى تحدث فى الظروف العادية ، وبدءوا يتكلمون عن « صدمة القنابل » . كذلك أدرك غيرهم ممن كانت لهم تجارب مختلفة ، أنهم إنما يرون شكلا مكبرا لما كانوا يرونه صورة مصغرة فى عياداتهم . فأمامهم الآن أنواع من الاستجابة التى تقوم بها الكائنات البشرية عندما أصبحت الحياة شاقة فى نظرهم ، فعجزوا عن مقاومة الضغط الواقع عليهم . فهذه الأمراض التى يشكو منها الناس إنما هى أمراض نفسيه .

ومن الممكن فى الأحوال العادية أن يناقش الطبيب عليله فى أمر مرضه ، وأن يعالجه برفق وعطف ، ويوجه عناية جدية إلى تطور الأعراض وتاريخ ظهورها ، فيستطيع بذلك أن يبث فى المريض روح الشجاعة لمواجهة علته . ولكن ظروف الحرب جعلت من الضرورى حدوث أحد أمرين : إما إعادة المريض إلى ميدان القتال ، وإما إعفاؤه من واجباته الحربية وإعادته إلى عمله المدنى ، لأن الجيش لا يستطيع أن يتحمل أكثر من نسبة صغيرة من غير

الصالحين للقتال . ولكن لما كان المرض النفسى لا يكشف عن أعراض من نوع الأعراض التى يتذرع بها الطبيب لإعفاء المريض من الخدمة العسكرية ، على الرغم من ظهور سمات العلة واضحة جلية على الشخص ، فقد انتابت الحيرة أطباء الجيش ، إذ وجدوا أمامهم حالات لم تهيئهم خبراتهم السابقة واستعدادهم الفنى لعلاجها .

ولم يقدم لنا علم النفس القائم على الاستبطان أو التأمل الباطنى معونة من أى نوع ، بل اقتصر على عرض عدد حافل من المبادئ الوصفية ، دون أن يحاول تجاوز هذا الحد . ولذلك وصفه أحد العلماء عام ١٩٠٠ تقريباً بأنه « علم يصف ما يعرفه كل الناس فى لغة لا يفهمها منهم أحد ». وهذا الرأى ولو أنه مبالغ فيه ، لا يخلو من صدق ، ويظهر ذلك جلياً فى كتب علم النفس التى ظهرت فى ذلك الوقت .

ولكننا من ناحية أخرى نجد أن علم النفس الجديد الذى نما على أيدى أولئك العلماء الذين ينتسبون إلى مدرسة ڤينا[1] يقدم لنا مبادىء وظيفية تصف الظواهر فى صورة العلل ومعلولاتها ، أى الأسباب ونتائجها . كما أنها أثبتت قدرتها ليس فقط على إيضاح طبيعة المرض الذى ينتاب المدنيين والجنود على السواء ، وإنما على بيان أسباب تلك الاضطرابات أيضاً . فجعلت فى استطاعة نفر من الأطباء ، الذين تمكنوا من الحصول على معرفة خاصة ، والذين كانوا رواداً لحركة الطب العقلى[2] الحديثة ، أن يعالجوا أولئك المرضى بنجاح كبير .

ولقد نالت قصص المرضى « بصدمة القنابل » ، والطرق الجديدة لعلاجهم ، ذيوعاً كبيراً حوالى عام ١٩١٨ أو ١٩١٩ ، وأقبل الناس على سماع أى محاضرة فى « التحليل النفسى » ، واقتناء سائر الكتب عن هذا الموضوع ، بعض النظر

---

(١) مدرسة فرويد فى التحليل النفسى بدأت فى ڤينا فأطلق عليها اسم تلك المدينة. (المترجم)

(2) csyphiatry

عن شخص المؤلف . ولذلك ظهر عدد كبير من المؤلفات المثيرة عفا النسيان على أغلبها ، كما كان معظمها عديم القيمة . وفى نفس الوقت بدأ الناس يلحون فى طلب معلومات جديدة جدّية مما دفع إرنست جونز إلى نشر كتاب « مقالات فى التحليل النفسى »[1] . وجونز مؤلف موفق فى عرض آرائه فى أسلوب سلس واضح ، فأشبع بكتابه فضول القارىء العادى الذى كان يرغب فى معرفة شىء عام عن ذلك الموضوع الطريف . كذلك أصبح هذا الكتاب مقدمة نافعة للطالب تعينه على الانتقال فى يسر إلى دراسة كتب فرويد . وأصدرت « بار بارا لو »[2] تمهيداً آخر كان الغرض منه خدمة عدد أكبر من جمهرة القراء ، ونفع الآباء والمدرسين على الأخص .

وكان الاستقبال الذى استقبل به التحليل النفسى فى بادئ الأمر مزيجاً من الاستحسان والاستنكار ، إذ رحب به فريق من الناس ترحيباً حماسياً ، وإن لم يكن قائماً على دراسة نقدية . كما أن فريقاً آخر ناصبه العداء السافر لدرجة أن أحد أئمة التربية فى بريطانيا صرح بأنه لن يؤيد قط أن يشغل إحدى وظائف التدريس فى كلية من كليات المعلمين ، أو قسم من أقسام التربية بالجامعة ، شخص ممن يناصرون التحليل النفسى . وقد شاطره رأيه هذا كثيرون . ومن المحتمل أنه لم يحدث قط أن نظرية من النظريات العلمية صادفت رد فعل عام كهذا ، منذ أن نادى دارون بمذهبه فى النشوء والارتقاء .

ومر جيل ... وزالت حدة ثورة التحليل النفسى ، كما تبددت من قبل الثورة ضد مذهب التطور . ونال علم النفس من التعديل على يد التحليل النفسى ما نال علم الحياة على يد نظرية التطور . وامتد التحليل النفسي إلى دائرة المدارس الطبية ، وكليات المعلمين ، كما أصبح يدرس فى مدارس اللاهوت . وأخيراً تم الاعتراف به كجزء من منهج العلاج الطبى .

---

(1) Ernest tones : Papers on Psychanalysis (2) Barbara low

وقد وجّـه التحليل النفسى من بادىء الأمر عناية كبيرة إلى الأحلام . والفرق بين (صلى) مؤلف كتاب « النوم والأحلام والهذيان »[1] ، و بين فرويد فى معالجة الأحلام خليق أن يوضح أوجـه الاختلاف بين علم النفس الاستبطانى وعلم النفس الذى أخذ ينمو و يتطور نتيجة لمجهودات التحليل النفسى . و يتلخص رأى « صلى » فى أن التفـكير يسـتمر أثناء النوم ، غير أنه يكون ممسوخاً غير متزن ، لأن الجهاز العقلى لا يكون عندئذ قائماً بأداء وظيفته . ولـكن فرويد لم يرض عن مثل هذا التعليل السقيم ، بل أخذ يتساءل : « لِمَ التعلق بالتفسيرات السخيفة ؟ و لِمَ التمسك بمثل هذا الرأى التافه دون غيره ؟ » . وحينما أخذ فى دراسة الأحلام لم يذق للراحة طعماً حتى تمـكن من إيجاد تفسير لـكل عنصر من عناصرها .

وقبل أن ينشر فرويد كتابه الانقلابى المسمى « تأويل الرؤى »[2] بمدة طو يلة أدرك الناس أن بين الرؤى وأحلام اليقظـة عناصر مشتركة ، فظروف حدوثها متشابهة ، إذ تحدث عندما ينسحب الناس من العالم المحيط بهم و ينسونه ، كما يحدث عند النوم أو انشغال الفـكر ، كما أن حلم اليقظة ينتهى بنوع من (الاستيقاظ) قد يكون أقل فى الدرجة من الاستيقاظ العادى من النوم . كذلك تتشابه الرؤى وأحلام اليقظة من حيث أنها تختلف اختلافاً واضحاً عن التفـكير الشعورى للأشخاص الحالمين ، لدرجة أنهم غالباً ما يصفونها ، عند قصّها على غيرهم ، بالسخف والحمق وتفـكك المعنى والغلو والغرابة ، كما أنهم يتحدثون عنها فى لهجة الاعتذار ، كأن يقول أحدهم : « لست أدرى ما الذى جعلنى أرى هذا الحلم . » ، أو يقول : « لا أعرف سبباً لتفـكيرى فى مثل هذه الأشياء » .

والشخص الذى يقص أحلام يقظته على غيره يكون عليه عادةً أن يتغلب

---

(1) Sully : ‘ Sleep , dreams and Hallucination,

(2) S. Freud : Interpretation of Dreams.

على قدر كبير من الحرج الذى لا يعرف له سبباً . وكثيراً ما يجد صعوبة حقيقية فى قص تلك الأحلام إذ قد يحدث بعد مرور بضع دقائق من حدوثها أن ينساها كلها ، أو جزءاً كبيراً منها ، ويصبح من العسير عليه أن يسترجعها مهما بذل من الجهد الإرادى . وقد يستطيع أحيـــاناً أن يتذكر منها أجزاء متناثرة فى فترات متباعدة .

وقد استطاع (فارندونك) أن يدرب نفسه على التغلب على مثل تلك الصعوبات ، ولو بشكل جزئى ، فنجح فى ملاحظة عملية حلم اليقظة أثناء حدوثها عنده ، كما أمكنه أن يسجلها كاملة . واكتسب أيضاً قدرة على النظر إليها نظرة خالية من الهوى والتحيز ، فاستطاع أن يتغلب على ذلك الازدراء الذى يحسه معظم الناس عندما ينشرون أمورهم الخاصة على الناس .

وذهب فارندونك إلى أبعد من ذلك ، إذ تمكن من أن يطبق على ماسجّله تلك الطرق التى نمت وتطورت على يد فرويد فى تأويل الرؤى ، وأهمها طريقة « التداعى الطليق »[1] . فاستطاع أن يربط عناصر حلم اليقظة بسائر الحوادث التى سبقته وأصبحت تعتبر من « مثيراته » ، وكذلك بحوادث أخرى بعيدة أمكن استرجاعها أثناء « التداعى الطليق » .

وقد دل استخدام فريد فى حالات أخرى بشكل حاسم على أنه ما من فرد يستطيع أن يطبقها على نفسه بنفس الدقة التى تكون ممكنة إذا ما قام بها شخص آخر غير صاحب الحلم . وهذا رد نهائى على أنصار « التحليل الذاتى »[2] ، فإن المحلل الماهر ، مهما أوتى من مهارة ، يحتاج فى الظروف العادية إلى عون شخص آخر كى يستطيع سبر أغوار مدلول أحلامه الخاصة . صحيح إنه قد يتمكن بنفسه من الكشف عن أشياء كثيرة ، ولكنه لن ينجح فى تحليل نفسه بقدر نجاحه فى تحليل غيره . لذلك لا ينبغى أن نتوقع فى تحليلات فارندونك لأحلام يقظته

---

(1) Free Association (2) Self - analysis

الخاصة ذلك الكمال الذى كان فى الاستطاعة الوصول إليه لو أنه استعان فى ذلك التحليل بإخصائى آخر .

وليس من الصعب أن نكتشف ، كما اكتشف (فارندونك) نفسه ، أن جميع أحلام اليقظة تدورحول الذات . ومهما كانت درجة كثافة القناع فى الصورة التى يظهر الحالم فيها ، فإن ذلك الحالم يكون دائماً الشخصية المحورية فى الحوادث التى يبتدعها لنفسه . ويشبه كل حلم من تلك الأحلام أقصوصة ، أومسرحية قصيرة ، يكون البطل فيها هو الحالم نفسه . وهنا نرى وجه شبه آخر بين الرؤيا وحلم اليقظة ، إذ يتفق جميع المشتغلين بدراسة الرؤى على أن الشخصية المركزية فيها هى شخصية صاحبها . فالرؤى وأحلام اليقظة إذن « ذاتية المركز » .

وتوضح دراسة أحلام اليقظة التى سجلها فارندونك فى كتابه أن معظم تلك الأحلام ، على الرغم من اختلافها الكبير فى الشكل وفى المادة التى تتألف منها ، يمكن إرجاعها إلى نوع واحد يمثلها جميعاً . فكما يحدث أن عدداً من القصص التى يقوم بتأليفها كاتب ماهر محبوب قد تكون جميعها تنميقات فنية مختلفة موضوع واحد كذلك نرى أن أحلام اليقظة التى نشرها فارندونك تتلخص فى عبارة بسيطة هى : « إن مساعدة الأشخاص ذوى المكانة ممن يعجبون بى ، تجعلنى أستطيع الوصول إلى مركز ملائم » . وهذا تعبير عن آمال الحالم فى الحصول على المنصب الذى يشتهيه عن طريق أولئك الأفراد الذين يشغلون مراكز ممتازة ، ممن كان لشخصيته وعمله المتقن أثر حسن فى نفوسهم . ويدلنا الجزء الخاص بتاريخ حياته على أن أحلام اليقظة حدثت فى الوقت الذى كان فارندونك يعمل أثناءه فى الجيوش البريطانية بالقارة الأوروبية ، وأنه كان يتمنى وقتئذ الحصول على تسهيلات معينة تجعل فى استطاعته الاستمرار فى عمله الذى كان يتوقع من ورائه ترقية علمية .

---

(1) Ego - centred.

وتساعدنا الإشارة إلى تلك القصص التي ليست أكثر من تحويرات مختلفة لموضوع واحد على أن ندرك بوضوح وظيفة ما أطلقنا عليه اسم « المثيرات » . فقد يقضي القصصي فترة من الوقت فى الجزائر أو مراكش كي يجمّع مادة تصبغ كتابه بلون محلي . غير أن المشاهد الجديدة ، وشخصيات القصة ، ليست فى الواقع سوى مادة تصب في نفس القالب الفكرى المألوف . وقد تدور الحبكة حول فكرة خصام عاشقين ثم تصافيهما ، كما أن مسرح الشجار بينهما قد يكون شارعاً فى مراكش ، أو ميداناً بالجزائر ، ثم يرد ذكر أماكن أخرى على أنها أكثر ملاءمة لحدوث الوئام وعودة المياه إلى مجاريها . وبنفس الطريقة كانت رؤية أحد كبار الضباط ، أو الأطباء ، أو أساتذة الجامعة — أو باختصار أى شخص له مكانة ونفوذ — كافية لأن تبدأ عند ڤارندونك سلسلة من الأفكار تؤدى إلى حلم اليقظة الذى يدور حول حصوله على مساعدة ذلك الشخص ، وهذه المساعدة تهيىء له شيئاً أفضل مما كان ميسوراً له فى تلك اللحظة ، مثل كرسى فى الجامعة ، أو منصب هام فى مستشفى ، أو مركز ممتاز فى عمل ما . فكأن حلم اليقظة يقول : « إن الأستاذ معجب بى ، وراض عن عملى ، ولذلك فإنه سوف يعمل على أن أشغل منصباً ملائماً لى فى المستشفى ... » ، أو : « إن هذا الضابط العظيم معجب بثقافتى العالية ، وسوف يبذل جهده كى أنال المركز الذى يناسب مواهبى فى أحد المكاتب الحربية .. » . فهذه الأحلام ليست إلا أشكالاً متنوعة لفكرة عامة واحدة ، هى استغلال الحوادث اليومية وما تستدعيه من ذكريات .

ولكننا باقتصارنا على تعديد المثيرات لا نكون قد قمنا بأكثر من بحث سطحى فى حلم اليقظة . ويكون مثلنا فى ذلك مثل الناقد الأدبى الذى يعتقد أنه استطاع تفسير قصص (توماس هاردى) تفسيراً كاملا من مجرد تحديد جميع الأماكن التى أشار المؤلف إليها ، أو معرفة جميع الأفراد الذين اتخذ منهم نماذج

لشخصياته . أو كأننا نحاول أن نفسر حلم اليقظة عند بائعة اللبن ، التى أشرنا إليها فى الفصل الأول ، من مجرد الحديث عن أثمان الأفراخ والبيض فى السوق ، على حين أن النقطة الهامة فى حلم بائعة اللبن هى فكرتها عن نفسها كسيدة أسمى ممن حولها من الناس ، وأن هذا السمو لا يحتاج لظهوره إلا إلى بعض الملابس الأنيقة . فالذى أثار ذلك الحلم الذى تعرضه الأقصوصة معبرا عن هذه الفكرة كان سلة بيض ، ولكن كان من المستطاع كذلك أن يثار نفس الحلم بواسطة بقرة ، أو وعاء لبن ، أو رؤية سيدة أنيقة الثياب .

وقد سبقت الإشارة إلى وجود أكثر من ثلثمائة صورة متنوعة لقصة سندرلا [1] . ففى الصور التى نشرت لها فى المانيا أو روسيا أو لابلاند نجد بيئة المانية أو روسية أو لابلاندية ، لأن مادة القصة تؤخذ فى العادة من بيئة الكاتب . وقد تختلف فيها بعض التفاصيل ، مثل حادثة الحذاء ، أو زى الأمير ، أو نوع المركبة التى انتقلت فيها سندرلا إلى المرقص . غير أن مثل تلك الاختلافات ليست جوهرية . وإذا نحن تركنا جانبا المشكلة الإنسانية الخاصة بكيفية انتشار هذه القصة التى تتفق فى جوهرها ، وتختلف فى تفاصيلها ، بين شعوب موزعة على أركان العالم ، وليس بينها اتصال ثقافى ظاهر ، ظلت أمامنا المشكلة النفسية التى تبحث فى أسباب استمرار وجودها بيننا .

وليست قصة « سندرلا » من قصص الأطفال المحبوبة فحسب ، بل إنها أيضا من القصص التى تعاود الظهور بلا انقطاع ، فتنشر تارة فى مجلات الأطفال وصغار المراهقين الأسبوعية الرخيصة ، وتارة تدخل عليها تنميقات أدبية رائعة وتظهر فى صورة قصة طويلة ، كما أنها قد تطلع علينا فى ثوب مسرحية حديثة ، أو فيلم من الأفلام الناجحة التى يكثر الإعلان عنها . ولكنها دائما قصة فتاة تعيش بين قوم يزدرونها لأنهم لا يستطيعون فهم حقيقتها ، أو إدراك ما حباها

(1) " Cinderella, Three Hundred and Forty Five Variants " — Marian Roalfe Cox — (London : The Folklore Society : 1893) .

الله به من سامى الخصال . ثم يأتى يوم يظهر فيه شخص عالى المكانة ، يدرك على الفور أنها وحدها ، دون من حولها ، تصلح لأن تشاطره سؤدده ، فيتزوج منها و يجعلها سيدة البلاد الأولى . و بهذا تنتهى القصة عادة ، و إن كان يحدث أحيانا أن يضيف المؤلف إليها فصلا يؤكد فيه أن سندرلا قابلت إساءات مضطهديها السابقة بالصفح النبيل ، وترفعت عن مقابلتها بمثلها . ولا يشترط أن تدور القصة حول فتاة ، فإن « سندرلا » فى بعض صور القصة تكون شابا يواجه نفس الظروف التى تواجهها سندرلا .

فإذا جرّدنا قصص سندرلا من تلك الأمور العرضية الخاصة بالزمان والمكان ، اكتشفنا أن الفكرة الرئيسية فيها تتلخص فيما يأتى : « أنا شخص أصلح لشغل أسمى مركز فى المجتمع الذى أعيش فيه ، غير أن من يحيطون بى من الناس على درجة من الغباء أو الأنانية تجعلهم يحطون من شأنى و ينزلوننى منزلة دون قدرى . ولكن لابد أن يأتى يوم أنال فيه المركز الذى أستحقه . » هذا هو ما ينبغى اعتباره معنى حلم اليقظة الذى من نوع قصة سندرلا . و يجب أن ننظر إلى هذه الفكرة ، إذا ما اكتشفناها ، على أنها تأويل لحلم اليقظة .

غير أننا لو عرضنا هذا التفسير على من يسير فى أحلام يقظته على هذا النمط ، فإنه سوف يحتج بأنه لايعتقد أنه متفوق على غيره من الناس . ولو وصل هو بنفسه إلى ذلك التأويل ، سواء بمساعدة غيره أو بدونها ، فإنه سوف يقول : « إنه لم يشعر قط من قبل بأنه ينظر إلى نفسه مثل هذه النظرة » . فمن الواضح إذن أن علينا أن ندخل فى اعتبارنا نوعاً من التفكير الذى يؤدى إلى نتائج يحول دونها شىء ما فى داخل الحالم نفسه ، وأن نعتقد أن هذا التفكير وذلك المنع يحدثان دون شعوره بهما . فهو يؤلف حلم اليقظة دون شعور بالعملية التى تدخل فى ذلك ، وهو كذلك لا يكون شاعراً بالفكرة ودلالتها ، بل إن كل ما يعرفه هو نتيجة تلك العمليات التى لا تبدو فى نظره أكثر من نوع من الخيال فيه راحة ولذة

يستطيع أن يمتع نفسه به أثناء حدوثه ثم نسيانه بعد ذلك . فليس حلم اليقظة ذاته لا شعورياً ، ولـكن العمليات العقلية التى تدخل فيه هى اللاشعورية .

وقد أدرك معظم الناس — والأسلم أن نقول كلهم — أن الانتباه إلى أغلب مهام الحياة يحتاج إلى جهد إرادى متعمد . ويوجِّه آلاف من الناس يومياً انتباههم وعنايتهم إلى أشياء لا تثـير اهتمامهم ، ولـكنها ضرورية لـكسب قُوتهم . ويحدث ذلك المجهود الذى يقومون به تحت ضغط الظروف الاقتصادية وإلحاحها. كذلك ينتبه التلميذ فى الفصل فى كثير من الأحيان إلى أعمال لا تمسّ اهتمامه ، ولـكنه يضطر إلى بذل الجهد اللازم اضطراراً . غير أن هناك فئة قليلة من الناس تميل إلى عملها ميلا واضحاً ملموساً يجعلها تعنى به ، وتؤديه دون إحساس بالجهد ، ويضايقها أن تضطرها الالتزامات الاجتماعية إلى الانصراف عنه . غير أن بين الواجب الذى يفرض على الشخص فرضاً ، والعمل الذى يلذله أداؤه ، نوعاً وسطاً من الأعمال يستلزم قدراً متفاوتاً من جهد الذين يقومون به . فالتركيز فى مثل هذه الحالات يتطلب جهداً سرعان ما يؤدى إلى التعب العقـلى ، ولذلك فإن الذين يؤدون أعمالا تستلزم انتباهاً مركزاً لأشياء لا تثير من اهتمامهم إلا القليل يحتمل أن يصيبهم الاسترخاء الذى تشرد عقولهم أثناءه ، وعندئذ يتحول الانتباه إلى الصور العقلية ، بدلا من الأشياء الواقعية فى العالم الخارجى ، وبذلك يحل حلم اليقظة السهل الممتع محل الانتباه الإرادى المضنى .

يبدو إذن — دون حاجة إلى أدلة أخرى — أننا عند ما ننتبه انتباهاً مقصوداً إلى شىء ما فإننا نبعد من شعورنا تلك الصور التى تتدافع إليه بمجرد استرخائنا . فهناك صراع بين العالم الواقعى الخارجى والعالم الداخلى . وفى فترات التركيز نوجه انتباهنا إلى العالم الخارجى ، ونقمع ، عرضاً أو عن عمد ، العالم الداخلى للأفكار والصور . و « القمع »[1] هنا يقصـد به معنى خاص يختلف

(1) Suppression

عن « الكبت »[1] . فإن الانصراف عن العالم الداخلى يكون شعورياً مدبراً إلى درجة كبيرة . أما « الكبت » فيحدث لا شعورياً ، وسنبحث فيما بعد فى الدور الذى يلعبه هذا الكبت فى أحلام اليقظة . ويبدو أن التركيز يتضمن « القمع » ، وهو يشبه فى معناه قولنا للطفل : « لا تنظر إلى الصور المعلقة على الحائط ، ولا تشغل نفسك بمن يجاورك من زملائك ، بل ينبغى عليك ألا تحوِّل بصرك أو فكرك عما فى كتابك ، وألا توجه انتباهك إلى غير الدرس » . هذا ما قد يحدِّث المدرس به التلميذ . ونحن فى حالات التركيز إنما نكون كمن ينفذ مثل تلك الأوامر ، غير أنها تكون صادرة عنا أنفسنا .

ولنضرب مثلا محسوساً يوضح تلك النقط ، وهو حلم يقظة لرجل كان مسافراً فى إحدى قطر الأنفاق فى لندن . فقد أسرع الرجل ليلحق بقطاره ، غير أنه وجد باب المحطة مغلقاً فى وجهه ، ففاته القطار بعد أن كان على وشك اللحاق به. وقد ضايقه كثيراً أن يبصر القطار واقفاً بجوار الرصيف ، بينما كان وقته يضيع هباء خارج الباب المغلق . وفى وقت متأخر من ذلك اليوم لاحظ عند ذهابه إلى محطة أخرى لينتظر القطار أنه كان واقفاً جوار باب يشبه تماماً ذلك الباب الذى أغلق دونه قبل ذلك .

وبينما هو فى انتظار القطار إذ ألفى نفسه يتأمل فيما تكون عليه المحطة عند ما ينصرف جميع الناس فى الليل ويغلق الباب نهائياً ، وفيما يحدث لو أن عمال المحطة أقفلوا الباب عليه دون أن يدركوا وجود أحد فى الداخل ، فيبقى محبوساً فيها طول الليل .

ثم أخذ يفكر فى المتاعب التى تنشأ عن البقاء فى مثل ذلك المكان مدة طويلة . وهنا بدأ يتخيل المحطة وقد ظهرت فى صورة بديعة قديمة كأنها مسكن ملكى ، وقد فصلتها عن القضبان أعمدة وستائر . وأعقب ذلك تفكيره

(1) Repression

فى المسافرين أثناء هرجهم ومرجهم على الأرصفة عند دخولهم القطر أو مغادرتهم لها مما كان يتعارض مع هدوء المسكن وراحته ، فيصبح من المستحسن نقله إلى مكان آخر يتوسط المحطات ، حيث يجلس المرء فى القصر ، متفرجاً على القطر فى غدوها ورواحها ، وشاخصاً ببصره إلى من فيها من المسافرين الذين ينظرون خلال النوافذ معجبين بروعة ذلك المكان الذى يمر القطار أمامه فى عجلة واندفاع . ثم بدأ يرى نفسه واقفاً فى الشرفة ، وقد ارتدى ثياباً فاخرة ، وأخذ ينظر إلى القطر والمسافرين كما لو أن ذلك كان مشهدا أعدّ له وحده . ومن ذلك انتقل فكره إلى مساكن أخرى تشبه ذلك المسكن الذى تخيله من بعض الوجوه ، وتختلف عنه من وجوه أخرى ، ور بما كانت تجاوره . وقد يكون هناك نهر يجرى بينها بدلا من تلك القضبان الحديدية ، وقوارب تنساب على صفحته أمام الشرفة . وهنا وجد نفسه يفكر فى فتنة الغرف المفروشة المعدة للسكنى ، والتى تؤثث بأنواع مختلفة من الرياش بحيث تشبع رغبات رجال من مختلف المشارب والأذواق . ثم أخذ يفكر فى غرف من هذا النوع رآها ، وأخرى أقام بها ، وهذا ذكره بالسحر الذى كان لمثل تلك الغرف على « إدجار ألان پو » الذى وصف إحداها فى قصة « قناع الموت الأحمر »[1].. وهنا انتهى حلم اليقظة . وأخذ الرجل يفكر تفكيراً منطقياً متزناً فى عمل أدبى كان مشغولا به فى ذلك الوقت .

وقد أمكن باستخدام فكرة « الوحدة » فى عملية التداعى الطليق أن يتذكر صاحب الحلم عددا من الأفكار المتصلة بالموقف الذى وجد نفسه فيه . فإن عدم توافر المساكن كان قد أرغمه على الاقامة فى غرف ليست على هواه ، لأنها كانت ضيقة غير مريحة ، فاضطر أيضاً إلى خزن معظم كتبه ، ولم يكن فى استطاعته أن يقابل أصدقاءه إلا فى المطاعم والنوادى ، بدلا من استقبالهم فى منزله و بين

(1) Edgar Alan Poe : 'The Masque of the Red Death'.

كتبه . كما كان يضايقه ألا تكون حريته الشخصية موفورة فى مسكنه .

كذلك استدعت فكرة « مَلِك » على الفور فكرة حاكم مطلق من حكام الشرق . ثم فكرة بختنصَّر وهو يشهد المدينة من شرفة قصره قائلا : « أليست هذه بابل العظيمة التى شِدْتُها ؟ » ويذكر صاحب الحلم أن « تيوفيل جوتييه[1] » كان قد تكلم عن موقف العبد من الحاكم العظيم فقال إن الأول كان يستمتع بمشهد الروعة والأبهة عند الثانى ، ويفكر فى أن الحظ قد يداول بينهما فى لحظة واحدة .

وهنا طافت بذهنه تخيلات صبيانية ترجع إلى عهد مبكر من حياته ، وتدور حول احتمال أن يصبح ملكا . فقد طرق سمعه فى يوم من الأيام ما جعله يعتقد أن « أمير ويلز » فى ذلك الوقت كان سيخلف الملكة فكتوريا على العرش لمجرد أنه الابن البكر . وكان هو نفسه ابنا بكراً . وهو يذكر بشكل غامض بضعة أحلام يقظة صبيانية تخيل فيها جماعة من علية القوم يقدمون له تاج انجلترا . فقد ماتت الملكة فكتوريا ، ورغب أمير ويلز عن اعتلاء العرش ، فأخذت السلطات تبحث عن ابن أكبر آخر ، ووقع اختيارها على صاحب الحلم . وكان المشهد يصور قصة إعلان الأميرة فكتوريا بأن عمها وليام الرابع قد مات ، وأنها أصبحت بذلك ملكة بريطانيا العظمى وأيرلندا . وقد كان الحالم على علم بتلك القصة ، ويذكر أن تاريخ معرفته إياها يرجع إلى العام السابع أو الثامن من عمره .

كذلك استدعت فكرة « مشاهدة الأشياء » كما لو أنها كانت مناظر ، إلى ذهنه مسألة حرمانه من مشاطرة أقرانه من الأطفال ألعابهم ، وكان ذلك راجعاً إلى اعتقاد والديه بأنه طفل رقيق المزاج ، فلم يسمحوا له بأكثر من مشاهدة

---

(١) Théophile Gautier، كان روائيا وناقداً شهيرا فى فرنسا فى القرن السادس عشر . وعمل قد بعض الوقت كسكرتير (لبلزاك) . وكان أيضا من الشعراء المبدعين (المترجم) .

أولئك الأطفال وهم يلعبون ، ولكنه كان يشتهى دائماً أن يلعب معهم . وقد حفلت تربيته الأولى بقدر كبير من المحرمات التى ترجع إلى أسباب دينية أو أخلاقية . ولما كان والداه رقيقى الحال فقد وجد نفسه عاجزاً عن الحصول على كثير من الأشياء التى يرغبها ، فكان عليه أن يقنع بمجرد مشاهدتها فى نوافذ المتاجر التى تباع فيها . ويبدو أنه كان قد كون لنفسه فى وقت مبكر من حياته فكرة تتلخص فى أن معظم الأشياء والحوادث في العالم ليست مما يستطيع أن يمتلكه أو يسهم فيه . وقد تذكر على حين غرة خطاباً كتبه فى صدر شبابه إلى صديق له ، قال فيه : « يبدو لى أنى لا ألعب أى دور حقيقى فى هذه الحياة ، إذ لست فيها أكثر من متفرج ... » . وقد رد صديقه عليه بقوله : « لست أفهم ما تعنى . أنك ترتاد أماكن ممتعة ، وتقابل أشخاصاً ممن يثيرون الاهتمام . فأنت آخر من يقال عنه إنه مجرد متفرج » .

كذلك تعلّم فى أوائل حياته أن هناك أشياء أخرى لا ينبغى مشاهدتها ، فقد كان محظوراً عليه أن يقرأ القصص أو يذهب إلى المسرح ، كما حرّمت عليه قراءة مؤلفات معينة لم يكن يرضى عنها أبواه لأسباب دينية ، ومنها مؤلفات « دارون ورسكن وكارليل » بوجه خاص . غير أنه اكتشف وسائل خاصة للحصول على تلك الكتب مع عدد آخر من القصص العاطفية وروايات المغامرات ، فكان يقرؤها سراً ، فى غفلة من أبويه . وهكذا تمكن أثناء مراهقته من قراءة عدد من الكتب أكبر بكثير مما تتسنى قراءته لقرنائه فى السن ممن لم يوضعوا مثله تحت الرقابة والحظر . كذلك اكتشف ذلك السحر العجيب الذى تكتسبه أوجه النشاط المختلفة نتيجة للتحريم . وهذا ما لم يدركه سكان الولايات المتحدة إلا فى عام ١٩٢٩ .

وهكذا يسّرت له قراءة تلك الكتب المختلفة أن يحيا فى جو خيالى حافل بأنواع النشاط التى حرم منها فى العالم الخارجى لأسباب متعددة . وهو يذكر تلك

المتعة القوية التى كان يشعر بها عند قراءة قصص « ريدر هجارد[1] » مثل : « كنوز الملك سليمان » ، و « هى أو عائشة » ، و « ألان كواترمين » ، و « نادا الزنبقة » و « كليو بترا » وغيرها . فأمكنه بذلك أن يستمتع بخبرات لم تكن محظورة عليه فى الحياة الواقعية فحسب ، وإنما كانت أيضا تتجاوز دائرة خبرة أولئك الأطفال الذين كانوا أسعد منه حظا فلم يكن آباؤهم يحولون دون إتيانهم أى أمر من الأمور . فما قيمة مباراة عادية فى كرة القدم أوالكريكيت بالنسبة إلى مخاطرات « آلان كواترمين » ورفاقه فى مجاهل أفريقيا الغامضة ؟

ولهذا فإنه عندما يفكر فى مثل تلك الأمور ينتابه رد فعل عنيف ضد ذلك التحريم الذى كان قد فُرض عليه فرضا ، وكان يجعله يشعر بأنه دون غيره من الكبار الذين كان يأتمر بأمرهم ، وينتهى بنواهيهم ، وأنه دون غيره من الأولاد الذين خلت حياتهم من مثل ذلك القسر والإكراه . وكان هؤلاء الأولاد ، على ما يذكر ، يسخرون منه لعدم مشاركته إياهم فى اللعب ، كما كانوا يتحدثون فى أعياد الميلاد عن مشاهدتهم لتمثيل الدمى الذى كان محظوراً عليه أن يذهب لمشاهدته . غير أن محصوله من الخبرات الفكرية التى كانت أشد إثارة من الألعاب ، وماحفل به ذهنه من مشاهد تفوق فى روعتها أى نوع من تمثيل الدمى ، كل هذا لم يخفف من شعور الاستهجان الذى كان يحسه فحسب ، بل جعله أيضاً يشعر بتفوق على أولئك الرفاق الذين يجهلون الكتب وأهميتها . بعد ذلك بمدة أصبح إلمامه بمؤلفات دارون وكارليل ورسكن يشعره بأنه أغزر علماً من سواه ، وأن نظرته إلى الحياة أكثر عمقا واتساعا ، وأقل تقيدا ، من أولئك الجهلة ذوى الأفق العقلى الضيق ، الذين لم يلقوا قط نظرة على تلك الكتب ، والذين حاولوا دوماً أن يحولوا دون قراءته إياها . فكان رد الفعل لشعوره بدونيته بالنسبة

(1) Sir Rider Haggard.

لزملائه فى المدرسة ، أو غيرهم من الكبار ، أنه استطاع الوصول إلى نوع ملائم من التفوق عليهم .

ومما يجدر بالملاحظة أن سرد هذه العناصر المترابطة ، رغم اختزالها ، قد شغل حيّزا يفوق بكثير ذلك الحيز الذى شغله تسجيل حلم اليقظة . ولو أننا كتبنا الحلم كاملا على الصورة التي قصه بها صاحبه لاحتاج ذلك إلى مكان أكبر . ومع ذلك فإن مادة الحلم ألقت عليه كثيراً من الضوء ، وأثبتت أنه أكثر من مجرد خيال أجوف .

كذلك اكتمل التعبير عن فكرة « الانفراد » ، فإنه لما كانت الحاجة ماسة إليها فى المساكن — كما هو الحال دائما فى الحياة العادية — فقد عبر الحلم عنها كذلك فى صورة المساكن ، إذ تمكن صاحب الحلم من إقامة مسكن خاص به على الطراز الذى يرغبه ، وفى الجهة التى يريدها . ولكن يتضح من الشكل الذى تطور به الحلم أن « الانفراد » كان ذا مدلول أعمق من مجرد « العزلة » ، فهو يعنى البعد عن الناس ، والاختلاف عنهم ، كما يعنى فكرة الشخصية المتمايزة أيضا . وكل تلك الأفكار تظهر فى جلاء عندما يتخيل الحالم نفسه فى صورة الحاكم المطلق الشرقى الذى يرمز إلى جميع تلك الأشياء فى نفسه . كذلك يعبر الحلم عما للرجل الذى يقف موقف المتفرج على الناس العاديين من تفوق عظيم على أولئك الذين يرمقونه فى عجب وإعجاب عندما يهرعون إلى بيوتهم المألوفة بعد فراغهم من أعمالهم المضنية .

وهناك ترابط آخر على جانب من الأهمية . فإن والديه قد حددا له بدقة أمر اختيار رفاقه ، وكانا يعترضان على كثير منهم ممن قد اختارهم لنفسه ، ويحظران عليه الاتصال بهم . كما كانا يدعون لزيارتهم أولاداً غيرهم ممن وقع عليهم اختيارهم إما « لطيبة خلقهم » ، وإما لأن آباءهم من نفس مذهبهم الدينى . وكان من بين هؤلاء صبى يبغضه الغلام بوجه خاص ، (ويظهر أن السبب الجوهرى لهذا

البغض يرجع إلى إكراهه على صحبته) . والحاكم المطلق فى حلم اليقظة يكون محاطا بالندماء الذين يقربهم إليه حين يشاء ، وينبذهم عندما يريد .

فيمكننا إذن أن نقول إن هذا الحلم يمثل الحالم فى صورة شخص مدهش ليس له نظير . وهو محط إعجاب من يحيطون به ، وإطراء المجتمع عامة . وهـذا الإعجاب ليس راجعا إلى ما يؤديه للغير من أعمال ، بل يرجع إلى شخصه ، وإلى ما يفعله لنفسه .

ومع ذلك فلو أننا سألنا صاحب الحلم عما إذا كان يعتقد فعلا أنه لا مثيل له ، وأنه يستحق إعجاب البشر جميعاً دون أن يؤدى لهم خدمات على الإطلاق ، فإنه سوف يؤكد أن مثل تلك الفكرة لم تخطر بباله قط . غير أنه عندما يناقش الترابطات المتصلة بحلم اليقظة فإنه يضطر عندئذ إلى الاعتراف بأن ذلك ما يعنيه حلم اليقظة فعلا . وهو لا يستطيع أن ينسب حلم اليقظة إلى نفسه ، فيصرح أخيراً بأنه لا بد أن يكون قد فكر فى نفسه بهذا الشكل المتطرف دون أن يدرى . فهو من الناحية الشعورية يعلم أن فى استطاعته أن يتوقع الإعجاب إذا ما أدى عملا يستحقه ، ويعترف بأنه ليس مبرزاً فى أية ناحية من النواحى ، ولكن « تقدير الذات»[1] الذى يعبّر عنه حلم اليقظة يختلف عن ذلك التقدير الشعورى الذى وضعه لنفسه .

وهو لم يدرك أن الحاكم المطلق الشرقى الذى ظهر فى حلمه له به مثل ذلك الاتصال الوثيق إلا بعد أن ناقش الترابطات المتصلة بالحلم . فكان يستطيع قبل ذلك أن يؤكد أن تلك الصور المفرطة فى الغلو فى حلم اليقظة لم تكن له هو ، بل لشخص آخر قد تكون صادقة بدرجة ما بالنسبة إليه . غير أنه أدرك الآن أن أفكاره المسرفة عن الحاكم المطلق إنما كانت وسيلة تيسر له التفكير فى

(1) Ego Estimate.

نفسه دون حائل . فهو إنما يتخلص بذلك من الرقابة العقلية التى لم تكن لتسمح له بالتفكير فى نفسه بمثل تلك الصور .

ومن الجلى أن تقدير الذات الذى كشفنا عنه فى حلم اليقظة مصطبغ بلون الطفولة . وقد لا يدهشنا أن نجد أن العام الأول ، أو العامين الأولين ، فى حياة الإبن الأكبر — وهو أيضاً الإبن الوحيد فى العائلة — لا بد أن يكون من الفترات التى يكون فيها الطفل محط الإعجاب من أجل ذاته فقط . وهو لا يستطيع أن يدرك أن هذا هو نفس ما يحدث لأى ابن أكبر غيره فى طفولته . كما أنه لم تتيسر له أى فرصة لمقارنة نفسه بغيره من الصغار . وعندما تثير الكلمات الأولى التى ينطق بها ، أو محاولاته الأولى فى المشى ، تلك الدهشة البالغة عند من يحيطون به من الكبار — وتكون تلك الدهشة أقل بكثير مما يحدثه فيما بعد حصوله على درجة علمية ، أو ظفره برقم قياسى فى الرياضة البدنية — فإنه عندئذ لا يعرف سوى الإعجاب وحده ، وما يتسبب عنه من لذة وسرور . ولكنه لا يفهم قط شيئاً عن الظروف التى تجعل له معنى . فهو يدرك أنه أهم شخص فى البيت ، ويسلك سلوكا يدل على أنه يعتقد أن ذلك الإعجاب حق له . وليس فى وسعنا أن نقول شيئاً عما يفكر فيه ، غير أننا نستطيع أن نقول إن سلوكه يشير إلى اعتقاده بأن الغرض من وجود أبيه وأمه ليس إلا تلبية رغائبه ، وخدمته ، وإطرائه . وهذا يصوره الحاكم المطلق الشرقى تصويرا صادقا .

ولا ينبغى أن نقابل ذلك منه بالاستهجان ، فإنه ليس إلا مظهراً من سائر مظاهر مرحلة الطفولة . وينبغى أن ينتقل الطفل من هذه المرحلة إلى مرحلة الغلومة فالمراهقة فالبلوغ ، وأن يكمل نموه من جميع النواحى ، لا من الناحية الجسمية وحدها . ويجب أن يصبح « تقدير الذات » عنده هو تقدير الذات عند الرجل الناضج الرشيد . وفى هذه الحالة التى ندرسها لا نجد تقديراً ناضجاً شعوريا للذات ،

بل نجد تقديراً طفلياً لاشعورياً ثابتا ، غير أنه فى صراع مع التقدير الناضج المتزن . وهذا الصراع ظاهر فى حلم اليقظة .

ونقول عن هذا التقدير اللاشعورى للذات أنه قد كُبت ، أى أنه قد طُرد من العقل . فالحالم قد أصبح غير شاعر بوجود ذلك التقدير من حيث هو ، كما أنه غير شاعر بطرده من دائرة العقل الواعى . فالكبت عملية لاشعورية . والمادة المكبوتة لا شعورية كذلك . وهى لا تصبح شعورية فى العادة إلا فى صورة ملتوية . لذلك يمكننا أن ننظر إلى حلم اليقظة على أنه تعبير مقنع عن عناصر لاشعورية .

وقد تكون استجابة الحالم لفكرة حلم اليقظة ، بعد أن يتضح له معناه ، نوعا من الاستهجان الشديد . فهو يصرح بالحقيقة ، ولكنه لا يعترف بأن الفكرة فكرته . وهو إذ ينكر ذلك إنما يكرر بشكل حرفى شعورى ما سبق أن فعله بصورة لا شعورية . فكأنه فى الحقيقة يقول : « لست من ذلك الصنف من الناس الذين يفكرون فى أنفسهم بهذه الصورة . صحيح أن حلم اليقظة حلمى ، ولكن الفكرة التى يعبر عنها ليست فكرتى » . وقد يضيف إلى ذلك قوله إن من الحمق أن يفكر المرء فى نفسه مثل هذا التفكير ، أو إن من المخزى أن يقدر الإنسان نفسه ذلك التقدير . أو بعبارة أخرى ، تتنافى فكرة حلم اليقظة مع عملياته الشعورية السوية بوصفه رجلا عاقلا ناضجا متزنا ، وهذا التنافى هو سبب الكبت .

ويدل حدوث حلم اليقظة على انقسام الشخصية إلى شطرين : شطر لا شعورى مصطبغ بلون الطفولة . وآخر شعورى ناضج متزن رشيد . ومثل الفرد فى ذلك مثل دولة انقسمت على نفسها ، فهو يستخدم ما عنده من طاقة ليعيد إليها الأمن والنظام . ولولا ذلك الانقسام لأمكنه أن يستغل تلك الطاقة فى أعمال إنشائية ، مثلما يحدث فى الدولة عندما تنجح فى إزالة أسباب التناحر والتنازع بين المواطنين ، فتستطيع بذلك أن توفر جهد قوى رجال الشرطة للإشراف على تنظيم الأعمال

الإنشائية ، وأن تستغل نشاط أكبر عدد ممكن من الأفراد فى الإنتاج النافع .

ومن الممكن أن ينظر إلى حلم اليقظة من زاوية أخرى ، فإن كبت الأفكار التى يدور حولها يجعل من المستحيل على الفرد أن يعيرها انتباهاً . وهذا يشبه ما يحدث فى الحرب عند ما يطمس الرقيب بالمداد الأسود تلك الموضوعات التى يكون نشرها محظوراً . غير أن الفكرة قد تكون مقنعة تقنيعًا كافيًا فيتسنى للشخص الذى يجهل حقيقتها أن يفكر فيها ، وأن يشتق منها لذة له ومتعة . وقد تفقد الفكرة بعض القوة فى تأثيرها بسبب تمويهها ، غير أنها بذلك تستطيع الحصول على ما قد نسميه حلا وسطاً .

وقد لا يجدينا كثيراً أن نسرد فى إسهاب عدداً كبيراً من أحلام اليقظة عند ذلك الرجل الذى بسطنا حالته ، لأن الفكرة المحورية فى كثير من تلك الأحلام لا تختلف فى جوهرها عن الفكرة التى ظهرت فى الحلم الذى سجلناه . فالحالم يظهر فى صورة الشخص الذى يعجب به الناس بسبب ما قام به من تضحيات ، أو ما قدمه من هبات ، أو ما أداه من أعمال . كما يحدث أحيانًا أن يقوم شخص من ذوى المكانة بإطرائه أمام حشد من الناس الذين يعبرون له عن شديد إعجابهم به .

ويصرّح الرجل نفسه بأن سلوكه فى حياته الواقعية يختلف عن أنواع السلوك التى تظهر فى أحلام يقظته . فهو لا يهتم مثلا بالظهور أمام الناس ، وإن فعل ذلك فإنما يفعله نافراً مكرها . وهو ممن يكتبون كثيراً ، غير أنه يفضل نشر ما يكتبه تحت اسم مستعار ، ولا يعلن عن اسمه الحقيقى إلا إذا كان لا بد من ذلك . كما أنه يتجنب عن قصد عرض موضوعاته عرضاً مسرحيًّا ، بل يلجأ إلى العبارات المقتضبة كى يتجنب الإثارة العاطفية . وهذا ينطبق على أحاديثه وكتاباته على السواء . وهو يمقت الكتب التى يختال فيها المؤلف بعرض مادة سطحية تافهة لا غناء فيها ، كما يدعى أنه لا يسعى وراء إعجاب الناس به أو بأساليبه

الأدبية أو الخطابية ، بل يريد أن ينصبَّ الإعجاب دوماً على مادته وحدها . وقد يكون فى التعبير عن نفسه بهذه الصورة مخلصاً فى الظاهر ، فهو يؤمن بأنه فى هذا أقرب ما يكون إلى الحق والصدق .

غير أن هنـاك فئة أخرى من أحلام يقظته تختلف عن ذلك النوع الذى أشرنا إليه ، وهى تتمثل فى الحلم التالى :

« أنا فى الجيش برتبة نفر أو أونباشى ، أو ما شابه ذلك . وقد اعترض (الباشجاويش) على أمر أتيته ، فأرسلنى إلى ضابط الفرقة لتوجيه الاتهام إلىَّ. وكان الجميع يعتقدون أنى لا بد معاقب عقاباً صارمًا . وليست طبيعة التهمة واضحة فى ذهنى تمامًا . وبدأ الضابط يتحدث إلىَّ فى حدة ، فلم أقاطعه بعض الوقت . ثم ألقيت عليه سؤالا بسيطاً قطع عليه حديثه ، فتوقف عن الكلام وقد انتابته الحيرة ، إذ ظهرت المسألة أمامه فى صورة أخرى لم يكن قد انتبه إليها من قبل ، وهى صورة لا يجد فى اللائحة أو القانون ما ينطبق عليها . سأل (الباشجاويش) فى ذلك ولكن لم يظفر منه بشىء . وأخيراً رفض الضابط القضية لأنه عجز تمامًا عن السير فيها » .

إن العنصر المشترك فى هذه الفئة الأخيرة من أحلام اليقظة التى كانت تظهر على فترات متقطعة قد امتدت عدة سنوات ، هو استخدام ملاحظة بسيطة كوسيلة للدفاع عن النفس أمام شخص قوى . « فالإجابة اللاّينة » ، أو ما يقوم مقامها ، تؤدى إلى « تحول الغضب » عن الحالم لا عن طريق تهدئة الشخص القوى ، وإنما بواسطة تجريد ذلك الشخص القوى من القدرة على اتخاذ إجراءات معينة . وتشبه هذه الملاحظة فى صورها المختلفة تلك الحيل السهلة غير المؤذية التى تستخدم فى المصارعة اليابانية . والتى يستطيع الشخص بها أن يحرم خصماً قوياً من قدرته على الإيذاء .

وتسير أحلام اليقظة التى من هذا الطراز وفق الخطة العامة نفسها فى الحلم

السابق ، ولا تختلف إلا فى التفاصيل . ولا يظهر الوسط الحربى فيها إلا نادراً . فهى في بعض الأوقات تحدث فى جو مدرسى ، أو فى غرفة امتحان ، أو مكتب ، أو ناد . وفى جميع هذه الحالات يجد الحالم نفسه فى حالة صراع مع رجل آخر ، غير أنه يتغلب عليه لا بضربة عنيفة قاضية ، بل بضربة فنية تصيب موضعًا شديد الحساسية من خصمه فالغلبة إذن غلبة فن لا غلبة قوة .

وعلى الرغم من أن الحلم الذى سردناه يحدث فى الجيش ، فليس له ارتباط بأى حادثة من الحوادث التى وقعت لصاحبه أثناء خدمته العسكرية (هذا بقدر ما أمكننا أن نتثبت منه) . ويبدو أن حبكة القصة — ونستطيع أن نسمى الحلم كذلك — قد حدث فيها تعديل من قبل ، وتم اقتباس الجيش كمسرح ملائم لها. فضابط الفرقة ليس إلا رمزاً للشخص القوى. وإذا تجاوزنا عن صفاته الشخصية، فنحن نعلم أنه كان مستظلا بالقوانين الحربية ، الأمر الذى يجعله ذا سلطة واسعة على من يكونون تحت قيادته . صحيح إن هنـــاك حدوداً لذلك السلطان ، غير أن تلك الحدود لا يحتمل أن تكون معروفة لغير جندى فطن خبير . وحتى ذلك الجندى لا يستطيع أن يحاول مناقشة الضابط فى ذلك إلا بعد أن يكون متأكداً من موقفه . ويستغلّ الحالم معرفته هذه فى حلم اليقظة ، فيكشف عنها فى لباقة ، ولكنه لا يفعل ذلك فى شكل تحدّ ، وإنما فى صورة رجاء للحصول على معلومات . فهو لا يكسب الموقعة لأنه على علم فحسب . بل لأن غيره جاهل كذلك .

فهذا الحلم ، وكذلك مجموعة الأحلام التى من نوعه ، يوضح لنا مظهراً آخر من مظاهر الشعور بالدونية الذى كشفنا عنه فى الحلم الأول . ويظهر ذلك الشعور فى صورة خوف . فالأفراد المتفوقون خطرون ، وسيبقى خطرهم قائماً حتى ينكشف ضعف حيلتهم . فمن الضرورى إذن مهاجمتهم وتجريدهم من قوتهم . غير أن الهجوم ينبغى أن يكون مأمون العاقبة ، فلا تتضمن وسائله استخدام القوة البدنية.

وقد تذكر الرجل عند مناقشة تلك النقطة أن من أوائل القصص التى سردها عليه والده فى صغره قصة تدور حول يسوع الطفل وهو يلقى على أئمة اللاهوت فى معبد أورشليم أسئلة عجزوا عن إجابتها ، (وقد يجدر بالذكر أن يسوع كان ابناً بكراً مثل صاحب الحلم) . وقد اكتشف الصبى فى وقت مبكر أن لعلم والده حدوداً ، وأن من السهل أن يلقى عليه أسئلة لا يستطيع الإجابة عنها . وقد لاحظ الأستاذ « بوفيه » وآخرون من علماء سيكولوجية الطفل أن عدداً كبيراً من أسئلة الأطفال لا تهدف إلى الحصول على معلومات ، وإنما ترمى إلى أن يثبت الأطفال لأنفسهم أن الكبار أكثر جهلا مما يظهرون . فكأنّ الطفل يكتسب بتلك الوسائل البريئة فى ظاهرها ، العدائية فى باطنها ، نوعًا من التفوق .

ولقد كان الاعتقاد السائد منذ بضعة أعوام أن فى الإمكان تقسيم الرجال والنساء إلى نمطين متميزين من حيث اختلاف اتجاهاتهم إزاء الحياة ومشاكلها . فالنمط الأول منهم يؤمن بالهجوم المباشر على تلك المشاكل . أما النمط الثانى فيعتمد على تدبير الخطط . فأفراد النمط الأول يسلكون مثل سلوك « الثور المهاجم » ، فى حين يؤمن أفراد النمط الثانى بضرورة التفكير قبل التنفيذ . أولئك يميلون إلى الفعل المباشر ويطلق عليهم « المنبسطون »[1] . وهؤلاء ينزعون إلى إحكام التدبير ويسمون « المنطوين »[2] . غير أننا ندرك الآن أن المسألة ليست بهذه البساطة . فإن هناك كثيراً من الناس توحى النظرة السطحية إليهم بأنهم منبسطون ، ولكن الدراسة العميقة تدل فى النهاية على أنهم فى الحقيقة منطوون . وقد يحدث العكس أيضاً . ومع ذلك فنحن لا نشك إطلاقا فى قيمة التمييز الذى ذكرناه ونفعه . فالأحكام التى بسطناها كانت من النوع الانطوائى ، إذ أنها تكشف عن رجل يعتمد فى سلوكه فى الحياة على المعرفة وتدبير الخطط ، وليس على الهجوم المباشر . فى حلم اليقظة الأول نراه مجرد متفرج ، يشاهد سلوك الآخرين ، ويضع الأشياء

---

(1) Extroverts. (2) Introverts.

تحت بصرهم ليرى أنواع استجاباتهم . وفى الحلم الثانى نجده يستخدم معلوماته فى حرص ومهارة . فكلا الحلمين يسير وفق حياة تمضى فى ملاحظة حياة الآخرين، سواء فى الكتب أو فى الواقع ، ويوحى بوجود رجل ذى نزعة إلى الانسحاب من العالم الخارجى ، رجل لا يفكر فى العدوان إلا عند ما يشعر أنه قد أصبح فى مركز متفوق على خصمه نتيجة لإلمامه بسائر نواحى الموقف ، وهو إن أتى أمراً من الأمور ، لا يأتيه لأنه يريد أن يعرف نتيجة ذلك ، بل لأنه يريد أن يبرهن على أنه كان متأكداً من تلك النتيجة ، لأنه قد دبر حدوثها من قبل .

فالمعرفة عند مثل هذا الشخص تشبه إذن سلاحاً سرياً يصلح للدفاع أو الهجوم . وتشير الأهمية التى يضفيها هذا الرجل على المعرفة إلى الخوف من العالم المحيط به ، والعداء نحوه . ويمكننا أن نرى الدافع الشعورى الذى حفزه إلى الاطلاع الواسع ، وشحن عقله بشتى أنواع المعلومات الغريبة ، فإن هذا النوع غير المألوف من المعرفة هو الذى سوف يتيح له التفوق وقت الأزمات . ولو آمن شخص بمثل هذا الاعتقاد لكان فى استطاعته أن يتذكر كثيراً من حوادث حياته التى تبرر وجود هذه الفكرة عنده . فالرجل لا يهتم بالمعرفة التى تيسر للمرء إتقان عمل من الأعمال بالتعاون مع غيره ، وإنما يهتم بتلك المعرفة التى تجعله فريداً فى علمه ، والتى تجعل فى استطاعته أن يجعل غيره يبدو جاهلا إذا ما شعر بالعداء نحوه ، أو تمكّنه من تجريد خصمه من القوة التى يحاول بها أن يسيطر عليه .

وقد لا تكون هذه صورة سارة . فهى ليست صورة للرجل الذى ينال نصيبه من السعادة التي ألفها أولئك الناس الذين يتصلون به ويتصل بهم ، ولكنها صورة لرجل لديه إحساسات لا شعورية بالتفوق تؤثر فى جميع أفعاله واتجاهاته . فهو يرهب الناس ويشعر نحوهم بالعداء . فى حين أنهم هم كذلك يرفضون الاعتراف بمثل ذلك التفوق الذى يعجز عنه هو ، دون قصد ، فى صور كثيرة . كما أن كثيراً منهم يستطيعون أن يقتحموا بذكائهم حجب نفسه وأستارها.

فيكشفون عن حقيقتها بشكل قد يعجز هو نفسه عن كشفه . غير أننا فى نفس الوقت ينبغى لنا بأن نعترف بأن مثل هذا الرجل ، على الرغم من أنه لا يشاطر جيرانه مسراتهم ، وأنه يحيا فى وحدة ووحشة ، ويهتم بالكتب أكثر من اهتمامه بالناس ، فإنه قد يكون عضواً نافعاً فى المجتمع بشرط أن يكون من ذوى الفطنة الممتازة . فالمعرفة الواسعة ، والقدرة على تدبير الخطط ، قد تؤهلان المرء لمناصب هامة فى ميدان الأعمال الخاصة والعامة ، كما أنها قد تؤدى إلى النجاح الذى يرضيها .

ومن الواضح أن أسلوب الحياة عند الرجل الذى بسطنا حالته قد نبت فى أثناء طفولته المبكرة . فقد كان الابن الأكبر فى العائلة ، وكان ينبغى أن يدرك أنه على الرغم من المركز الفريد الذى هيىء له فى الأسرة ، فإن علاقاته بسائر أفراد الأسرة كان لا بد أن يصيبها التعديل بمضى الوقت . كذلك كان لا بد له من أن يتعلم كيف يغير فكرته عن نفسه كما تتغير نوع غذائه من لبن الأم إلى سائر أنواع الطعام . فكان من الضرورى أن يتم فطامه من أفكار الطفولة حول نفسه . غير أن ميلاد أخيه الأصغر ، وهو لم يتجاوز عامه الثانى ، قد اعترض تلك العملية ، إذ حرمه أخوه ليلا من مركزه الممتاز ، واغتصبه منه ، مما جعله يشبه أحد أولئك الملوك البائسين المنفيين الذين يقضون عمرهم فى ترديد ذكريات حياة عفت عليها يد الزمن والنسيان . فهو كما رأينا يتسكع بشكل لا شعورى حول المركز الذى كان يحتله عند ما كان فى الثانية من عمره . وهذا يعتبر « تثبيتاً »[1] لمرحلة من مراحل النمو التي لم يتجاوزها .

كذلك يمكن بنفس الطريقة أن نتتبع آثار عناصر أخرى فى أسلوب الحياة إلى تلك السنوات الأولى من حياته . وقد كان من المألوف إلى وقت قريب أن نتحدث عن العام الأول ، أو الأعوام الثلاثة أو الأربعة الأولى ، على أنها «سنوات التكوين»[2] ، إذ كان الاعتقاد السائد أن أسلوباً ثابتاً لا يتغير يتم تكوينه

(1) Fixation. (2) Formative years.

فى تلك الفترة ، وقد يناله بعض التعديل بمرور الزمن ، غير أن جوهره لن يتغير . وقد دلت الخبرات التى تراكمت فى العيادات السيكولوجية فى أعوام طويلة على أن فى ذلك الرأى غلواً و إسرافا . إذ يمكن للطرق التربوية والعلاجية أن تؤدى إلى تغييرات محسوسة ، عندما يكون ذلك أمراً مرغوباً فيه ، فتزيل التثبيت ، وتجمع بين النواحى اللاشعورية والنواحى الشعورية فى وحدة منسجمة .

ولو ظل أسلوب الحياة عند ذلك الرجل الذى بسطنا حالته دون تغيير ، فإن فى استطاعتنا أن نرى كيف يمكن استغلاله فى نموّه . إذ أنه يكشف لنا عن الدوافع التى أدت إلى إدمانه القراءة ، وحشد المعلومات ، وتدبير الخطط . و باستخدام تلك الدوافع نستطيع أن نشجع الرجل على تنمية نفسه وفق خطوط معينة ، بقدر ما يسمح له ذكاؤه بذلك . فيمكنه مثلا أن يتابع دراسة أنواع غير مألوفة من الأفكار ، أو يتابع بحوثاً خاصة ، أو يتوسع فى دراسة موضوعات معينة ، فيستطيع بذلك أن يزيد فى المحصول البشرى من المعرفة ، وذلك أمر قد لا يتسنى لرجل عادى أن يفعله . حتى لو كان من المستطاع تغيير نمط الحياة عنده ، فقد لا يكون من الصواب محاولة ذلك ما لم يجد الرجل صعوبة تامة فى تكييف نفسه للحياة بحيث يخشى عليه من الانهيار ، أو من أن يصبح مصدر تهديد لأمن المجتمع . والطريقة المألوفة لإحداث مثل ذلك التغيير هى مساعدة الرجل على كشف الأمور التى كبتها ، والعمل على إظهارها فى شعوره حتى يكون فى مقدوره ضبطها .

وما دام أسلوب الحياة قائماً عند الفرد فإنه يكشف عن نفسه فى ضروب شتى من النشاط . فالرجل يرى نفسه فى حلمه الأول على جانب كبير من القوة والعظمة ، ويرى أن فى استطاعته أن يشبع أشد نزواته إسرافاً ، وأن يحظى بإعجاب الجميع ، ويشغل مركزاً لا نظير له . فهذا الحلم إشباع خيالى لرغبات لا شعورية حبيسة ، وهو نفس ما نجده أيضاً فى حلم يقظته الثانى حيث أمكنه أن يضعف مركز رجل ذى خطر يشغل منصباً ممتازاً ، ويجرده من قدرته على الأذى .

والإشباع هنا قد تم فى صورة غير مباشرة لدرجة أن الحالم لا يدرك مدلوله ، و بالتالى يصبح فى وسعه أن يستمتع به ، غير أنه بمجرد أن يفهمه ، أى بمجرد أن يترجم صورته الملتوية إلى عبارات واضحة بسيطة ، فإنه يتعذر عليه عندئذ أن يفيد منه أية متعة ، بل سوف يرى فيه حمقاً وضلالا وخروجاً على معايير الأخلاق . فمتعته به تشبه متعة السيدة التى تأكل أحد طيور الزينة بشرط أن يقدمه لها على المائدة طاهٍ ماهر يكون قد أتقن طهيه وتمويهه بدرجة تجعلها على جهل تام بحقيقة ما تأكل .

وليس حلم اليقظة بالوسيلة الوحيدة للتعبير عن الرغبات اللاشعورية الحبيسة ، إذ قد يجد القائمون بدراسة رسوم الصغار أنها تعبر عن تقدير للذات لا يختلف عن التقدير الذى يضعه الأطفال لأنفسهم . كما أنهم قد يجدون فيها رغبات لاشعورية تمَّ إشباعها فى شكل صور ذهنية . وهـذا ينطبق على أحاديث صغار الأطفال وثرثرتهم مما أشار إليه الأستاذ (شترن)، كما ينطبق على القصص التى يبتدعونها و يقصونها على الكبار الذين يظهرون لهم العطف والحنان ، و يصدق كذلك على اللعب الابتكارى[1] الذى يستعين الأطفال فيه باللُّعب وغيرها من أدوات اللهو الأخرى ليصوغوا الأشياء الخارجية فى صور معينة ، وليعالجوا بها مواقف الحياة . وكثيراً ما يقوم الأطفال بتقليد الكبار ، غير أن تلك المحاكاة ليست طائشة لا مقصد منها ، بل إنهم يتخذون مثلهم من الرجال والنساء الذين يؤدون أعمالا تكون مما قد يفضى إلى إشباع رغباتهم . بهذه الوسائل المختلفة جميعاً يقوم الطفل بنشاطه الإنشائى ، وهو إما أن يصنع مما يتيسر له من مواد أشياء مادية حقيقية فى العالم الخارجى ، و إما أن يؤلف منها صوراً ذهنية فى عالمه الداخلى، حيث يضع لنفسه تقديراً صحيحاً ، وحيث يتسنى لرغباته أن تنال الإشباع .

وليست جميع أحلام اليقظة تدور حول الرغبات اللاشعورية وحدها ، فإن

---

(1) Creative play.

بعضاً منها يكون محوره ذلك الحرمان[1] الذى يعانيه الأطفال كثيراً بسبب ضآلة حجمهم ، وضعف قوتهم ، و بسبب ما للكبار من سلطان عليهم . فالطفل الذى يمثل دور رجل الشرطة فى لعبه لا يفعل ذلك لأنه ينظر إلى الشرطى على أنه حامل لواء القانون والنظام مما يجعل محاكاته أمراً مرغوباً فيه ، بل لأنه يستطيع أن يصدر الأوامر إلى الكبار (ومنهم أبواه) ، وهى أوامر لابد من إطاعتها ، وفى نفس الوقت لا يكون فى وسع أحد آخر ، على ما يظهر ، أن يصدر إلى الشرطى أمراً . فأنواع التحريم المختلفة التى يفرضها الأبوان على الطفل تجعله يجد لذة فى التظاهر بأنه مطلق التصرف فى جميع الأمور . وينبغى ألا يغيب عن بالنا أن الطفل مكره على أن يسلك أنواعاً معينة من السلوك لا يدرك الغرض منها حتى ولو فسرناها له . وكثيراً ما ينفد صبر الوالدين أو المربية من تساؤل الطفل المستمر عن سبب كل ما يطلب إليه عمله ، فتقتصر إجابتهما على قولهما : « السبب هو أنى أقول ذلك » . وهذه الإجابة الصريحة تعنى : « و إن لم تفعل ما آمرك به ، فسوف أجبرك على ذلك . إذ فى وسعى أن أعاقبك ، وأستخدم القوة معك . » (وقد لا يتم التعبير عن هذا فى صراحة) . وفى استطاعتنا أن نجد فى أحلام اليقظة التى سردناها فى هذا الفصل إشارة إلى مثل تلك المواقف . ففى الحلم الأول منها نرى الحالم قد وضع نفسه مكان الشخص القادر على إصدار الأوامر التى لابد للجميع من إطاعتها ، وهو فى الوقت نفسه ليس ممن يتلقون الأوامر من أحد أو يطيعون أحداً . وفى الحلم الثانى نجد أن الشخص الأقل مركزاً ، والأضعف قوة ، يستطيع الغلبة على الشخص الذى فى مقدوره أن يأمر ، وأن يفرض العقاب على من لا يصدع بأوامره . فالرجل (وكان حينئذ راشداً) قد أحلَّ نفسه محل أبيه فى الحلم الأول . على حين أنه فى الحلم الثانى يعارض سلطته .

وقد يدهشنا فى أول الأمر أن نجد الطفل يفكر فى أبيه على أنه شخص

---

(1) Frustration .

يرغب الطفل فى احتلال مكانه ، أو يشتهى أن يحطم سلطانه . ولا شك أن كثيراً من الناس ممن لا يقدرون أهمية الأدلة ووزنها يستخفون بهذا الرأى و يستنكرونه. و ينبغى أن نذكر دوما أن خبرات الطفل المتصلة بأبيه ليست جميعاً من نوع واحد . فكثير من الكبار يستطيعون أن يذكروا ما كان يحبوهم به آباؤهم من حب وعون وتضحية . كما أن بعضهم ما زال يذكر كيف أن ضخامة جسم أبيه ، وقوّته وعلمه ، كانت تضطره إما إلى الإعجاب به وحبه ، عند ما كان الأب يستخدم تلك المزايا فى خدمة ولده ، و إما إلى الحنق عليه والغضب منه عند ما كانت نفس الصفات تجعله يبدو مفزعاً رهيباً . فكيف يستطيع الطفل أن يركب من هذه العناصر المتنافرة وحدة متزنة ؟ لقد كان يصعب على فرسان القصص القديمة أن يؤمنوا بإمكان صنع الدروع من الذهب والفضة معا ، و بالمثل يصعب على الطفل أن يفهم أنه من الممكن أن يكون أبوه طيباً عطوفاً ، ومخيفاً فى نفس الوقت ، أو أن يدرك أن فى استطاعته الشعور بالخوف والحب معا نحو شخص واحد . ومن المحتمل أن تكون قصص الوحوش المخيفة التى تنقلب إلى أمير محبوب عند ذكر كلمات معينة ، أو قصص الحيوانات البغيضة التي تتحول إلى أميرة فاتنة بمجرد أن يظهر لها أحد الناس حبّه ، قد اشتقت من مواقف الطفولة هذه ، ومن مشاكل الأطفال .

يمكننا إذن أن نجد فى حلم اليقظة اتجاها حيال الأب يبقى منذ الطفولة مع الفرد حتى بعد أن تتقدم به السن . فتفكير الحالم فى أبيه يكون مصطبغاً بالحب والحنان لأنه يتذكر كثيراً من تضحياته ، وأعماله الرائعة ، و يدرك أنه كان بوجه عام يستحق كل ما وقعه عليه من عقاب . وتقديره الشعورى لأبيه لا يظهر فيه أى نوع من العداء الذى نجده فى حلم اليقظة . ولكن هذا العداء يظل كامنا ، وينتقل فى الحياة العادية إلى أفراد آخرين ، أو إلى أعمال ومواقف تكون علاقتها بالحالم ورغباته مثل تلك العلاقة التي كانت بين نفسه و بين أبيه عند ما كان

طفلا . لذلك كانت اتجاهاته نحو الجيش وقوانينه ورؤسائه من الضباط ، فى أثناء خدمته الحربية ، هى عموما ما أدى إلى حلم اليقظة ، وهـذا نفسه يصدق على الأعمال المختلفة التى كان عليه أن يؤديها فى الحياة ، فهو يعـكف عليها ، ويهتم بها ، ويبذل قصارى جهده فى أدائها ما دامت جديدة ، ولـكن بمجرد الشعور بأنها قد أصبحت عملا مألوفاً مفروضاً عليه أداؤه ، فإنه يثور عليها ، ويهجرها إلى أعمال أخرى .

إن ما ذكرناه يكفى لتوضيح وظيفة حلم اليقظة وصورته الجوهرية . ونستطيع أن نوجز كل ذلك فى قولنا إن أحلام اليقظة :

١ — تصوّر الإشباع الفـكرى للرغبات اللاشعورية المـكبوته .

٢ — تعنى وجود تقدير لا شعورى للذات ، يتعارض مع التقدير الشعورى الذى يضعه الشخص لنفسه .

٣ — تنطوى على اتجاه نحو العالم (أى فلسفة للحياة) تختلف عن الاتجاه الشعورى عند الفرد .

٤ — تـكون وسائط هامة بين الدوافع والنشاط المحسوس .

٥ — تنزع إلى احتـكار الانتباه إلا إذا قصـد كبتها ، وعندئذ يتحول الانتباه عنها إلى العالم الواقعى .

٦ — محاولة تفسيرها بطريقة « التداعى الطليق » خليقة أن تؤدى إلى فهم خبرات الطفولة . وإن توضح لنا أن بناءها إنما يقوم على أساس طفلى .

الفصل الثالث

رفقاء الخيال[1]

ليس من الصعب أن نعرف الكثير عن أحلام اليقظة عند الأطفال ، فإنهم يتحدثون عنها دون حرج أمام الكبار الذين يقوم بينهم و بين أولئك الأطفال نوع من التعاطف والتآلف . ولا يرجع حديث الطفل عن أحلام اليقظة إلى حاجته إلى التشجيع والأعجاب ، بل إلى شعوره بأن فى استطاعته أن يسترسل فى الحديث دون حرج ، ودون أن يخشى سخرية أحد .

غير أن الأمر يختلف فى حالة الراشدين وصغار الأطفال . فضعف القدرة على الكلام عند الصغار هى التى تجعلهم عاجزين عن أن يعبّروا تعبيراً لفظياً ملائماً عما يمكنهم التعبير عنه عمليا . أما الصعوبة عند المراهقين والراشدين فهى على الاجمال أن أحلام يقظتهم تشمل أشياء معينة يرون فيها سراً خاصاً بهم لا ينبغى لأحد أن يطّلع عليه ، وأشياء أخرى قد كبتت فأصبح من المتعذر تذكرها وقصُّها .

ويحدثنا و . ه . هدسون [2] فى كتبه عن تلك الساعات الطويلة التى كان يقضيها مضطجعاً فى ظل الأشجار ، والماشية ترعى من حوله . وعندما يشعر أن وقت الرحيل قد حان ، فإنه حينئذ يدرك فجأة أن عددا من الساعات قد مضى ، وأنه قد قضى كل هذا الوقت فى التفكير . غير أنه كان لا يستطيع أن يسترجع ما انساب فى عقله من أفكار . ومن المحتمل أن تكون هذه الخبرة من الخبرات المألوفة لكثير منا ، فهى نوع متطرف من أحلام اليقظة التي وقع عليها اختيارنا

(1) Imaginary Companions.
(2) W. H. Hudson.

للدراسة . ففى مشهد ضابط الفرقة فى الحلم السابق ذكره ، نلمس نقصاً في بعض النواحى يرجع إلى نسيان عناصر معينة . فماذا كانت التهمة التى وجهها (الباشجاويش) إلى الرجل مثلا ؟ وما نوع تعنيف ضابط الفرقة ؟ وما السؤال الذى ألقاه المتهم على الضابط ؟ تلك جميعاً أسئلة أخفق صاحب الحلم فى الإجابة عنها ، لأنه ، على ما يظهر ، لم يكن فى مقدوره تذكرها . وهذا راجع إلى أثر الكبت .

وقد يكون الكبت تاما ، كما هو الحال فى تلك المناسبات التى ذكرها «هدسون» ، كما أنه قد يكون جزئياً . وفى كلتا الحالتين تعترضنا صعوبة الحصول على تقرير كامل دقيق عن كل ما حدث أثناء فترة الحلم . وقد يحدث فى بعض الأحيان أن يحس صاحب الحلم وجود ثغرات تُفكّك من وحدة حلمه ، فيكملها من عنده حتى يظهر الحلم فى النهاية وكأنه قصة كاملة . وقد يتم ذلك شعوريا ، غير أن الأكثر احتمالا أنه يتم بشكل لا شعورى أثناء محاولة الحالم استرجاع حلمه . وهذا ما يطلق عليه اسم « التنسيق »[1] الذى يكون الغرض منه ضم العناصر الجزئية المتفرقة فى وحدة كلية متماسكة . ومثل ذلك مثل رجل جاءه خطاب قد مر على الرقيب ، فكان على الرجل أن يحاول أن يكمل من عنده ما قد طمسه قلم الرقيب . فكل مايتأكد منه فى النهاية هوأن للخطاب معنى ، ولكنه لن يكون قط على ثقة تامة من أنه قد توصل إلى المعنى الأصلى . فالتنسيق محاولة لإصلاح ما أفسده الكبت ، ودليل آخر على ما بالعقل من انقسام داخلى .

وفى الحالات التى يكون الكبت فيها قليلا ، يستطيع الحالم استرجاع عناصر كثيرة قد لا يرغب فى افشائها . فالذين يحيون حياة الورع والتقوى يتخيلون أنفسهم أحيانا وهم يرتكبون أعمال العنف والقسوة ، أو يأتون أموراً تناقض المعايير الخلقية التى اعتادوا الاسترشاد بها فى سلوكهم . وقد ألف بعض الناس فيما مضى أن ينسبوا مثل هذه التخيلات لا إلى أنفسهم ، بل إلى الشيطان ، أى

(1) Secondary elaboration.

أنهم كانوا يرون فيها نوعا من « الغواية » ، لذلك كان عليهم أن يكافحوها حتى يتغلبوا عليها ، وهذا يتطلب استرجاعها مرة بعد أخرى ، والتفكير فيها كثيرا ، كما يتضمن سردها على أناس آخرين فى صورة اعتراف أو شهادة . أما الذين يعتقدون أنها ليست سوى نتاج عقولهم فإنهم يميلون عادة إلى الاحتفاظ بها لأنفسهم ، فلا يعلم الناس عنها شيئا إلا فيما ينشرونه عليهم من كتب .

ويجب ألا تغيب هذه الأمور عن بالنا عندما نقرأ التقارير المختلفة عن أحلام اليقظة ، وخصوصا عندما تكون تلك الأحلام قد جمعت بقصد الدراسة الإحصائية ، فإذا أردنا مثلا أن نذكر أن أحلام اليقظة عند المراهقين تخلو من عناصر معينة ، فينبغى أن نتوخى جانب الدقة والحذر فى التعبير ، فنقول : « فشلت الأسئلة التى وجهت إلى عدد كبير من المراهقين حول أحلام يقظتهم فى الكشف عن أن واحدا من تلك الأحلام يدور حول هذه الفكرة أو تلك . . » وقد حدث أن أحد الذين طلب منهم الإجابة عن استخبار[1] فى هذا الموضوع قال ، ردا على تحدى شخص يثق به أكثر مما كان يثق بصاحب الاستخبار ، إن أحلام يقظته كانت فى الحقيقة تدور حول الفكرة التى أنكرها فى إجابته ، وأضاف إلى ذلك قوله بأن هذا الأمر لا يقتصر عليه وحده بل ينطبق أيضاً على سائر أصدقائه ، إذ لم يكن من المحتمل أن يذكر أحدهم مثل ذلك فى صراحة .

وهناك من الناس من يكونون أقل تحفظا . وهؤلاء يبدو عليهم أنهم لا يحاولون إخفاء شىء عندما يتحدثون بحرية ظاهرة عن أحلام يقظتهم . غير أنهم كثيرا مايقولون فى نهاية حديثهم : « أرجو ألا تظن أنى أفكر فى مثل هذه الأمور تفكيراً جديا ، فإنى فى الحقيقة أعتقد أنها فى منتهى السخف . ولست أدرى كيف طرأت على ذهنى ، فهى تختلف اختلافا بيّنا عن أفكارى الحقيقية . » .. أو يقولون : « إنى أقص عليك هذه الأشياء لاهتمامك العلمى بها . ولكنى لست

(1) Questionnaire.

أعلم سبباً يدعوك إلى ذلك الاهتمام إطلاقا ، إذ أنى لا أرى فيها سوى هراء ... »

وقد استطعنا من دراستنا السابقة لأشخاص الحالمين أن نكتشف وجود نوعين متطرفين منهم . فهناك أولئك الأفراد الذين لا يبذلون فى الظاهر أى محاولة (شعورية أو لا شعورية) لقمع أحلام يقظتهم أو كبتها ، فهم يستسلمون لها في أوقات استرخائهم ، ويستمتعون بها دون موار بة ، ويجدون فى تذكرها سروراً ولذة . وهناك أفراد غيرهم ينسون أحلام يقظتهم نسياناً تاماً ، وقد ينكرون حدوثها إطلاقا . غير أن بعضاً منهم يتذكرونها كلها أو بعضها ، ويكونون متأكدين من أن الخبرة التى مرت بهم كانت من الخبرات الممتعة . لذلك يبدو أن هناك عملية من العمليات اللاشعورية[1] لمحوها من الذاكرة ، وتتوقف هذه العملية فى بعض الحالات ، وتنشط فى عملها فى حالات أخرى . كذلك يمكن أن نعثر على حالات متوسطة ، وهى حالات لأولئك الأفراد الذين يتذكرون حلم اليقظة تذكراً شعورياً ولكنهم يستنكرونه ، أو غيرهم ممن يتجاوزون هذا الحد فيسترجعونه ويقصونه على غيرهم ولكنهم يزدرونه كذلك . كما أن هناك من يسترجعونه ويشعرون بلذة بالغة فى سرده .

والتعليق على تذكر أحلام اليقظة ، أو سردها بعبـــارات تدل على الاستهجان ، لا يعنى أن صاحب تلك الأحلام لم يتمتع بها فى حينها . فقد لوحظ فى بعض الجهات التى تتألف فيها لجنة لفحص الأفلام قبل عرضها أن كثيراً من الناس يتقدمون لعضوية هذه اللجنة ، مما يدل على أن أولئك الأفراد يرغبون فى مشاهدة تلك الأفلام ولكنهم لا يعترفون بذلك . بل ينتهزون الفرصة الملائمة ليقنعوا غيرهم (وربما أنفسهم كذلك) بأنهم إذ يشاهدون مثل هذه الأفلام إنما يتطوعون بتضحية أنفسهم فى سبيل الصالح العام . فهم إذن لا يسمحون لأنفسهم بالاستمتاع الصريح بمسرات الحياة . ولذلك فإن الصراع الذى يقوم بين الجانب

(1) Unconscious Mechanisms.

الذى يشتهى اللذة ، والجانب الذى يحاول دوماً كبت هذه الرغبة القوية ، من شأنه أن يحول الشعور باللذة إلى انفعال مؤلم معقد من القلق أو الخوف والانزعاج . ويظهر ذلك فى صورة أقل حدة عند الفرد الذى يعتقد فى نفسه أنه متزن التفكير ، ولذلك فإن الألم ينتابه عند يكتشف أن عقله ينشغل بأمور خيالية سخيفة فى لحظات الاسترخاء .

ويوحى اختلاف درجة النجاح فى عملية النسيان اللاشعورية التى تتصل بجانب واحد من النفس بوجود فروق فى درجة النمو فى جوانب النفس . فالنفس التى تحلم تبدو كما لو كانت أكثر سذاجة من النفس التى تعارض فى حدوث الحلم . ويؤيد ذلك ما نراه فى حلم اليقظة ذاته من سذاجة وطفولة . أما عملية النسيان فيبدو أنها تتكون أثناء نمو الفرد ، وقد تتوقف إلى حد كبير على الخبرة والمران .

وما دام الأمر كذلك ، فينبغى أن نتوقع أن يكون الأطفال أكثر سذاجة فى استمتاعهم بحلم اليقظة ، وأشد صراحة فى قصّه ، وأقل شعوراً بالحرج عند ذكره . ومما يضايق كثيراً من الآباء أن يروا أبناءهم ينظرون إلى تخيلاتهم على أنها حقيقية تماماً مثل ما فى العالم الواقعى من أشياء . فالطفل لا يقول : « إنى كنت أفكر فى أسد أثناء لعبى فى الحديقة » ، بل يقول : « رأيت أسداً فى الحديقة هذا الصباح » . ويبدو مثل هذا الطفل فى نظر الكبار الذين لم يخبروا تلك الأمور خبرة دقيقة كما لو كان الطفل مصابا بضعف التمييز بين الحقيقة والخيال ، أو بالكذب ، فيرون ضرورة علاجه أو عقابه أو تعويده النظام .

فلو أردنا أن نقوم بدراسة أشد صور أحلام اليقظة بساطة ، وأكثرها بداءة ، فلن نجد ما يلائم غرضنا أكثر من أحلام اليقظة عند الطفل الصغير . غير أننا ينبغى ألا ننسى أن هناك صعوبات تكتنف مثل هذه الدراسة ، فإن الطفل يعجز بسبب قصوره فى استعمال اللغة الدقيقة المفهومة عن قص أبسط أحلام يقظته. وهذا يضطرنا إلى الاعتماد على ملاحظة السلوك الظاهرى، ولكنا لا نستطيع

مع هذا فى كثير من الأحيان أن نؤكد تخيل الطفل لأشياء معينة ، بل إن كل ما يمكننا قوله هو أن سلوك الطفل يدفعنا إلى الاعتقاد بوجود مثل هذه التخيلات عنده .

وقد لاحظنا من قبل أن الشخص الراشد عند ما يريد أن يخرج ما تراءى له فى أحلام اليقظة إلى حيّز العمل ، كما حدث مثلا فى حالة بائعة اللبن ، فإنه يدرك حينئذ أن ما كان يعتقد أنه حقيقة لم يكن إلا خيالا لم يخرج من دائرة الفكر إلى حيّز العمل والتنفيذ . فهو يكون شاعراً « بادعائه » و « تظاهره » و « تمثيله » . ويختلف اللعب عن حلم اليقظة فى أن فى الإمكان الاعتقاد بصدق حلم اليقظة وقبوله على أنه حقيقة . على حين يدرك اللاعب دائماً أن لعبه هذا ليس واقعياً . وقد تحتاج هذه العبارة إلى قليل من التعديل فى بعض الحالات المتطرفة ، غير أن هناك شبه إجماع على أن الاستسلام التام لحلم اليقظة مألوف بصورة تتجاوز كثيراً الاستسلام التام للعب . ويحدث عادة فى حالة الراشدين على الأقل ، أن ينتهى حلم اليقظة بمجرد انتقاله إلى مرحلة التنفيذ الفعلى ، إذ يصبح الحالم عندئذ شاعراً بالعالم الواقعى المحيط به .

ومن الخصائص الشيقة فى صغار الأطفال الذين تقرب سنهم من الثالثة أنهم يقومون بلعبهم كما لو أن أطفالا آخرين يكونون موجودين معهم[1] ، فاللعب أمام « رفقاء الخيال » أمر مألوف بدرجة كبيرة بين الأطفال الانجليز ، بل ربما كان كذلك عند سائر الأطفال فى أنحاء العالم . وهو يحدث كذلك فى مصر ، وإن لم تنشر عنه حتى الآن بحوث منظمة .

وقد يعتقد البعض أن ذلك اللعب مقصور على الأطفال الوحيدين ، ولكن هذا يخالف الحقيقة ، كما أنه لايوجد دليل على أنه مألوف لأولئك الأطفال أكثر

---

(١) نجد أمثلة كثيرة لذلك فى كتاب « التحليل النفسى فى حجرة الدراسة » لنفس المؤلف. وقد ترجناه إلى العربية ، وهو الآن تحت الطبع . (المترجم)

مما هو مألوف لغيرهم ممن يعيشون فى أسر كبيرة . ومع ذلك ينبغى أن نذكر دائماً أن فى الإمكان أن ننظر إلى الأطفال جميعاً على أنهم « وحيدون » ، فقليل منهم جداً من يكون له إخوة أو أخوات من سنه . وليس لدينا معلومات مسجلة عن سلوك التوائم، سواء أكانوا ثنائيين ، أم ثلاثيين ، أم رباعيين ، أم خماسيين . وحتى فى العائلات الكبيرة نجد أن الأطفال فى حداثتهم لا يسمح لهم باللعب مع من يصغرونهم سناً ، وفى الوقت نفسه يكون للمتقدمين عنهم فى السن رفاقهم وميولهم الخاصة بهم . ويذكر رب أسرة له من الأولاد ثلاثة عشر طفلا أنه قد دهش عند ما تبين له أن كل واحد من أطفاله كان له رفقاء خيال وهو فى حوالى سن الثالثة ، وما زال أصغر أطفاله يلعب مع أحدهم . وترجع دهشة الرجل إلى أنه ما كان يعتقد قط أن أطفاله كانوا فى حاجة إلى ابتداع أولئك الرفاق .

ولن يساعدنا فى فهم هذه المشكلة أن نعزو مثل هذا النشاط إلى حب الادعاء . فالطفل يريد رفيقاً من طراز معيَّن . وهو يرغب فى أشياء لن يحصل عليها إلا من مثل ذلك الرفيق . وكلما استطاع الطفل أن يصوغ رغبة من رغباته هذه فى صورة محدودة فإنه يزداد بذلك اقتراباً من تحقيقها . ومن المعروف أننا قد لا نستطيع تحديد مشكلة ما دون أن يقربنا ذلك من حلها قرباً محسوساً . أو كما يقول باسكال فى « التأملات » : « ما كان فى وسعك أن تسعى إلىَّ إلا إذا كنت قد وجدتنى من قبل . » والطفل لا يمكنه أن يصوغ لنفسه طلباً بسيطاً كالآتى مثلا : « أريد شخصاً يلعب معى » ، أو « أريد شخصاً يساعدنى » أو « أريد شخصاً ينفذ ما آمره به » ، دون أن يتخيل فى نفس الوقت أن ذلك الشخص يلعب معه فعلا ، أو يساعده ، أو يأتمر بأمره . وهو لا يحتاج إلى التعبير عن ذلك عادة بالألفاظ .

ويظهر اللعب مع رفقاء الخيال ، فى العادة ، فى ثنايا شذرات من الحديث . فالطفل يتكلم أثناء لعبه ، ويكون هذا الحديث — على ما يبدو — موجها إلى

طفل آخر ، أو إلى شخص كبير كما يحدث أحياناً . وعند ما يتناهى ذلك الحديث إلى سمع الآباء وهم فى حجرة أخرى فإنهم قد يعتقدون بوجود طفل آخر مع ولدهم . و إذا سألوه مثلا : « مع من كنت تتحدث ؟ » فإنه قد يجيب بصبر نافد فى أغلب الأحيان : « أوه ! إنها لم تكن سوى طفلة صغيرة . » وقد تكون الإجابة أكثر تحديداً إذ يقول الطفل : « إنها (سيبل) ... طفلة صغيرة تأتى إلى هنا لتلعب معى » .

و ينبغى على الآباء وغيرهم ألا يكشفوا للطفل عما قد يحسونه من فضول وحب استطلاع . فإنهم إذا سألوه عن سن رفيقة الخيال واسمها وملبسها ومحل إقامتها ووالديها فإن الطفل سوف يبتكر لهم هذه المعلومات التى ليست أصلا من العناصر الأساسية التى خلقها الطفل لإشباع بعض حاجاته ، و إنما يبتدعها لإشباع فضول أبويه. و إذا تركنا مثل هذه المثيرات المصطنعة جانباً ، فإننا كثيراً ما نجد أن الطفل يضيف عناصر جديدة إلى الحالة الأصلية . فقد يطلق على رفاق خياله أسماء وألقاباً، كما أن صفاتهم البدنية وسماتهم العقلية قد تتطور وفقاً لحاجات الطفل ، ويُساير تطورها تدرج تلك الحاجات فى الظهور أثناء اللعب .

وهكذا نستطيع منذ البداية أن نرى أنّ رفقاء الخيال يؤدون دوراً سيكولوجياً هاماً فى لعب الطفل . فالطفل يصدر لرفيق خياله الأمر الآتى مثلا : « ضع هذه القطعة الخشبية هنا » ، ثم يحركها بنفسه إلى المكان المطلوب ، و بذلك يشبع فى نفسه الرغبة فى إطاعة الغير له . وقد يرى أنه قد وضع القطعة فى غير موضعها ، فينقلها ثانياً وهو يقول لرفيق خياله : « أنت غبى، فقد وضعتها فى المكان الخاطىء . انظر . . هذا هو مكانها الصحيح » ، ويشبع بذلك رغبته فى أن يكون على صواب ، وفى أن يلقى اللوم على غيره . ومن الواضح ان الطفل يعوض هنا عن بعض ما كان يلاقيه من حرمان فى حياته الواقعية حيث يكون عليه هو أن يطيع، وأن يتقبل اللوم على غبائه ، وأن يقال له إن ما فعله كان خاطئاً .

ويبدو أن هناك فرقاً كبيراً بين ابتداع الطفل رفقاء فى الخيال ، و بين معاملة الدمى كما لوأنها كانت مخلوقات حية ، لها من الخصائص مايشتهى الطفل أن يتحلى به رفاقه فى اللعب . ولو أدركنا ذلك فلن نجد كبير صعوبة فى فهم سبب ذلك التعلق الشديد الذى يبديه الأطفال نحو دمية لا تشبه الحقيقة فى شىء ، إذ لا تكون أكثر من حزمة من فضلات الثياب ، أو قطعة من الخشب ، مع قلة اكتراثهم فى الوقت نفسه بدمية أخرى متقنة الصنع . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الطفل يستطيع أن يتصور أن ذلك الشكل البدائى غير المهذب هو بالضبط ما يريد أن تكون عليه دميته . أما إذا كانت الدمية قريبة الشبه جدا بالواقع فإنه يصعب عليه عندئذ أن يتخيل أنها شىء آخر غير ما تكونه فعلا . وبالطريقة نفسها تصبح قطعة الخشب فى نظره سيارة لإطفاء الحريق ، أو سيارة عامة ، أو قاطرة ، أو عربة بريد . على حين أنه لايستطيع أن يتخيل فى أحد النماذج المتقنة للقاطرات شيئاً آخر غير القاطرة . فقد يتخيلها منطلقة فى رحلات طويلة تحمل الأمتعة والمسافرين ، ولكنها تظل دائماً فى نظره قاطرة ولا شىء غير ذلك . فواقعيتها الشديدة تكون عقبة فى سبيل انطلاق خياله . وهذا أمر ينطبق على كثير من اللعب القريبة الشبه جداً بالأشياء الحقيقية .

ويميل الطفل بوجه عام إلى اطلاق اسم على رفيق خياله . وعلى الرغم من أنه لم يتيسر لنا حتى الآن الحصول على معلومات مسجلة عن هذه النقطة ، فانه يظهر مما أمكن ملاحظته من الحقائق أن الاسم يندر أن يكون من بين الأسماء التى صادفها الطفل فى دائرة معارفه من قبل . ويبدو أن السبب فى ذلك بسيط ، إذ يحتمل جدا أن يعتبر الطفل أن الاسم وحامله شىء واحد ، فهو يشبه بذلك الرجل البدائى . فإطلاق اسم حقيقى على رفيق الخيال خليق أن يجعل من رفيق الخيال ذلك الشخص نفسه . ومع ذلك فليس رفيق الخيال شخصاً حقيقياً ، إذ لو أن شخصاً حقيقياً أشبع رغبات الطفل ، لزالت بذلك حاجته إلى تخيل رفيق . ومن

أمثلة ذلك أن بنتاً صغيرة قضت ذات مرة ليلة عيد الميلاد فى مرح وسرور لدى عائلة تدعى (بينكس) . وقد أعقب ذلك بمدة قصيرة أنها ابتدعت لنفسها رفيقة خيالية أسمتها (نللى بينكس) . كان أبواها لا يذكران أنها التقت فى مكان ما بأى فتاة تحمل اسم (نللى) . كما لم يكن بين أفراد أسرة (بينكس) من كانت تسمى بذلك الاسم . فيبدو أن رفيقة الخيال هذه تعبر عن إشباع عدد من الرغبات أمكن للعائلة أن تشبعها ، وعدد آخر لم يتسنَّ لها إشباعه . فشخصية (نللى بينكس) المَزْجيَّة جعلت فى وسع الطفلة أن تتجاوز حدود السعادة التى عثرت عليها خارج بيتها ، دون أن تغادر منزلها وأدوات لعبها[1] .

فإطلاق اسم على رفيق الخيال يشير إلى مرحلة هامة من مراحل تطوره . فإذا كان الرفيق فى بادىء الأمر غامض المعالم ، متغير السمات من وقت لآخر ، فإنه بمجرد حصوله على اسم يصبح ثابت الشخصية ، محدود الصفات . وهذا يعنى انقضاء مرحلة التجريب ، أو بعبارة أخرى يعنى أن الطفل أصبح يعلم ما يريده ، وأنه استطاع أن يحدد فكرته عن نفسه . وقد أشار أدلر فى كتاب « التكوين العُصابى »[2] إلى أن الطفل عندما يبلغ الثالثة يكون قد كوَّن فكرة معينة عن نفسه . ويتفق هذا الرأى مع ما سبق قوله هنا . فلعب الطفل مع رفاق الخيال يتضمن تقديراً للذات .

وينبغى أن يُلقى نشاط الطفل فى هذه المرحلة ضوءا قوياً على مسألة لها أهمية نفسية كبيرة ، وهى إدراك الطفل لذاته كشخص . وقد وجَّه كثير من علماء النفس فى السنوات الأخيرة عنايتهم إلى حل المشاكل المختلفة المتصلة بطبيعة الشخصية وقياسها . وقد يأتى الوقت الذى نستطيع فيه أن نصف شخصية رجل بنفس الدقة التى يمكننا أن نصف بها الآن جسمه . غير أننا نود أن نعرف

---

(١) هذه الحالة مفصلة تحت عنوان « الحالة الخامسة » فى الفصل الثانى من كتاب « التحليل النفسى فى حجرة الدراسة » للمؤلف . (المترجم)

(2) Alfred Adler : The Neurotic Constitution'

إلى أى حد تتفق مثل هذه الصورة التى نرسمها له مع الصورة التى رسمها لنفسه . لا شك أن هنـاك عدداً من الحالات يكاد تقدير الرجل لنفسه فيها أن يكون منطبقاً على الحقيقة الموضوعية ، مما يجعله قادراً على أن يلائم بين نفسه و بين الواقع . غير أن هناك حالات كثيرة أخرى ينحرف تقدير الذات فيها عن الحقيقة انحرافاً يضطر الفرد إلى ابتداع أمور خيالية عن العالم الواقعى وخبراته مما يجعله يستطيع أن يصلح من ذلك التباين الواضح . و يمكن أن نكتشف فى مطالب الطفل من رفقاء خياله أثناء لعبه المبكر بعض الدلائل على مثل تلك الصعوبات المستقبلة .

وتظهر الأهمية الوجدانية للأسماء أثناء الطفولة والبلوغ . فقد نجد فى الأعمال التجارية مثلا أن رموزاً مثل (ب م ا ب ل ٣) ، أو (ز ح س / ٥٤ / ١) ، تكون من الوجهة العملية أكثر فائدة فى الدلالة على فرد معين من الأسماء المعتادة، ومع ذلك فإن كثيراً من الرجال والنساء يكرهون مثل هذه « الرموز » على الرغم من فائدتها الواضحة ، و يشعرون أنهم بتجردهم من أسمائهم المعتادة يفقدون جزءاً من فرديتهم . كذلك نجد من بين تقاليد البلوغ عند الأقوام البدائية إطلاق اسم جديد على الغلام يختلف عن الاسم الذى أطلق عليه عند ميلاده . و يقصد بذلك الإشارة إلى أنه قد أصبح شخصاً مختلفاً عن ذى قبل . كما أن الذين يعتنقون مذهباً دينياً جديداً يطلق عليهم عند التعميد، أو ما يقوم مقامه من الشعائر المماثلة ، أسماء جديدة تشير إلى أنهم أصبحوا أشخاصاً مختلفين .

وتؤكد كثير من خبرات الطفل المبكرة الأهمية الظاهرة لاسمه . فهو يعرف عند سماعه إياه أن الناس يتحدثون عنه . وقد يكون على خطأ فى ذلك إذ يقال له : « لا . إننا نقصد رو برت آخر » ، وعندئذ نراه يلقى أسئلة مختلفة عن رو برت الآخر هذا مثل : « لماذا سُمِّى رو برت . إن رو برت اسمى أنا » ، أو : « هل يشبهنى ؟ لا بد أن يكون كذلك ما دام اسمه مثل اسمى . » ومن الممكن أن نذكر أمثلة لا حصر لها من هذا النوع ، وهى جميعاً تشير إلى الصعوبة التى يجدها

الطفل فى التميز بين الاسم وصاحبه ، كما تبين مدى التطور الذى يحدث فى اتجاه الشخص الراشد حيال الأسماء . ومن المحتمل جدا أن تكون الخرافات المتصلة ببعض الألفاظ الغامضة ، وكذلك استخدام الأسماء فى ضروب السحر وما يشبهه تلك الأمور ، قد نشأت فى الأصل بهذه الطريقة نفسها .

وتكون بعض الخبرات الأولى المتعلقة باستخدام الاسم سارة . فمن المألوف مثلا أن يسأل الضيوف الصغير عن اسمه ، وأن يدخلوا معه فى أحاديث يتكرر فيها ذكر ذلك الاسم . غير أن بعض الخبرات الأخرى قد لا تكون سارة ، إذ قد يلجأ صغار الأطفال عند ما يرغبون فى امتهان أحدهم إلى السخرية منه بتشويه اسمه ، أو إبداله باسم آخر لا معنى له ، أو اسم ذى مدلول بغيض . وربما أضافوا إليه بعض المقاطع ، أو نطقوا به بنبر خاص : فقد يجد (ويلسن بروان) مثلا أن جماعة من زملاء الدراسة الذين يشعرون نحوه بالعداء أخذوا يشيرون إليه وينشدون فى صوت واحد : بروانى . . بونى . . جونى . . دونى . . تونى . . . أو ربما يطلق عليه أحدهم اسم « رد » (Red) بدلا من « براون » (Brown) . وقد يحتج (ويلى) على ذلك بقوله « إنهم يسخرون منى » ، أو : « إنهم يسخرون من اسمى » . وهو لا يرى ثمة فرقا بين العبارتين .

مثل هذه الخبرات ، مضافاً إليها حالات سوء التفاهم التى تتصل بالأسماء ، تجعل كثيراً من الكبار يحتفظون باتجاهات معينة نحو أسمائهم ، دون أن يكونوا شاعرين بمعناها الحقيقى ، كما أنها قد ترتبط باتجاهات أخرى نحو أسماء الأخرين . كذلك نجد أن اللقب هو بطبيعة الحال اسم الأب ، ولذلك يكون الاتجاه إزاء اللقب مرتبطاً أشد الارتباط بالاتجاه اللاشعورى نحو والد الطفولة . وقد يمكن تفسير الرغبة فى نشر المؤلفات ، ومنح الهبات المالية ، وكتابة الخطابات ، دون ذكر اسم صاحبها أو تحت أسماء مستعارة ، تفسيراً معقولا . غير أن المعنيين بدقائق بعض الحالات الفردية يقولون بأن التفسير الحقيقى أعمق من ذلك فى الواقع . فاتخاذ

إحدى المؤلفات لنفسها اسم رجل يرجع إلى سبب آخر غير مجرد الاعتقاد بأن كتب المؤلفين من الرجال أكثر رواجاً وانتشارا . كما أن الدافع إلى اتخاذ الأسماء الرنانة أو الأسماء المستعارة ذات المقطعين هو الظن بأن الاسم الهام يشير إلى شخصية عظيمة .

وكثيراً ما يحدث عند ما يمضى بعض الرجال وقتاً طويلا فى أحد الاجتماعات التى لا تتطلب منهم اهتماماً كبيراً ، أو القيام بدور هام ، أنهم يأخذون فى العبث بأقلامهم على ما يكون أمامهم من أوراق . ومن أمثلة ذلك أن مؤلفاً معروفاً اعتاد فى مثل هذه المناسبات أن يبدأ فى كتابة اسمه كاملا بحروف كبيرة واضحة ، ثم يرسم حوله إطاراً زخرفياً ، يحيطه بإطار ثان ، ثم ثالث ، وهكذا ، حتى تصبح الورقة كلها إطاراً عظيما يضم اسمه وحده . ويستحيل علينا أن نرى فى مثل ذلك العمل سوى احتجاج من ناحية الرجل على عدم تقدير أهميته فى مثل ذلك الاجتماع . فهو يحاول أن يؤكد فرديته وسط هذه النمطية المملة التى لا تجعل منه أكثر من مجرد ترس فى آلة إدارية. فاتجاهه الوجدانى نحو نفسه هو احتجاج ضد دوره الفعلى فى تلك اللحظة.

قد يبدو أننا ابتعدنا كثيراً عن موضوع رفقاء الخيال الذين كنا نصفهم ، غير أنه كان من الضرورى أن نؤكد مدلول الأسماء عند الطفل ما دام قد تبين أن إطلاق اسم على رفيق الخيال يعتبر من أهم الأمور .

وقد لا يكون الاسم المستعمل لهذا الغرض من أسماء الأعلام التى يكثر استخدامها كاسم أول للشخص، فمنذ بضع سنوات نشرت الممثلة (نانسى برايس) كتاباً يضم القصص التى ألفتها طفلتها الصغيرة وهى لم تتجاوز بعد عامها الثالث . وكان من بين شخصيات تلك القصص من يحمل اسم « هيبرتو »[1] أو غيره من الأسماء الغريبة . ومن الممكن أن نتصور أن الطفل يلجأ إلى بعض الكلمات غير المألوفة التى تلتقطها أذناه عفواً فى مناسبات هامة ، فيستخدمها ، دون إدراك معناها

(1) Hibbrtoo.

فى تسمية رفقاء خياله . فيحتمل أن يكون أصل « هيبرتو » هو « هيذرتو »[1] فى العبارة الهامة المعروفة : « قد ساعدنا المولى حتى الآن »[2] . وليس هـذا فى الواقع أكثر من حدس لا نملك من الحقائق ما يؤيده . وقد استخدمت طفلة لفظ « بودى » كاسم لرفيقة خيالها . وكانت تقوم بحركات غريبة تسميها « رقصات » ، وكانت « بودى » المشاهدة الوحيدة لها ، فكان دورها لا يخرج عن الإعجاب بما تؤديه مبتكرتها من أعمال . ولم تستطع أم الطفلة أن تفسر سبب اختيار ابنتها لذلك الاسم[3] .

وقد تكون الأسماء التى تخلع على رفقاء الخيال عادية ، مثل مارى ، وسيبل ، وآنى ، وتد ، وفرد ، وتشارلى . وقد يضاف فى بعض الأحيان لقبه إلى الإسم . ومن أمثلة ذلك أن طفلة ظلت تلعب عدة سنوات مع رفيقة خيالية أسمتها « آنى فوكسفورد » ، ولم يكن من بين أقاربها ، أو معارف أسرتها ، من يحمل مثل هذين الاسمين . فلم يكن لدى أبويها أية فكرة عن الطريقة التى توصلت بها إليهما .

ومما يبين ذلك حالة فتاة مصرية اصطحب أبوها إلى بيته ذات يوم تلميذاً هندياً كان سلوكه رائعاً حيال الفتاة . فقد فضلها على أخيها الأكبر وأختها الكبرى . وأخذ يلعب معها ويقص عليها بعض القصص ، كما أنه حمل إليها بعض الهدايا . وعند ما غادر الفتى مصر اعتادت الفتاة أن تتظاهر بأنه لا يزال موجوداً معها ، فكانت توجّه إليه الحديث كما لو أنه لم يغادر الغرفة . وظلّت تستخدمه بالطريقة نفسها التى يستخدم بها الصغار رفاق الخيال . غير أنها كانت دائماً تناديه باسمه الحقيقى . والسبب فى ذلك واضح . فقد كانت الفتاة ترغب فى وجود الفتى الهندى نفسه . ومن الجلى أن الطفل عند ما يكون الشخص الذى

---

(1) Hitherto.

(2) « Hitherto hath the Lord helped us »

(٣) تجد إشارة إلى هذه الحالة فى كتاب « التحليل النفسى فى حجرة الدراسة » : للمؤلف : الحالة الثالثة — الفصل الثانى . (المترجم) .

يود وجوده معه أحد معارفه الحقيقيين فإنه يطلق على رفيق الخيال الذى يلعب معه اسماً حقيقياً . فرفيق الخيال ليس مجرد نسخة من شخص حقيقى ، وإنما هو تجسيم للرغبات ، أى ليس له مقابل دقيق فى حياة الطفل . ويؤكد الاسم تأكيداً قوياً ما فى خيال الطفل من ابتداع ، وهو مظهر مبكر لنشاطه الابتكارى

ومن الأمور الهامة أيضاً تزويد رفقاء الخيال ببيت وعائلة ، وإن كان ذلك يقل فى أهميته عن إطلاق أسماء عليها . فالعبارة الآتية مثلا وصف كامل تقريباً لإحدى رفيقات الخيال : « اسمها مارى . وهى تقيم فى حانوت بالقرب من محطة القطار». وهذا الوصف أطلقه على رفيقة خياله غلام له أخت تكبره ببضع سنوات وتدعى (ماريون) . وقد كانت تلك الأخت من المهتمين بمحطات القطارات. وقد يكون العنصر المشترك بين الاسمين معبراً عن رضى الغلام بشكل جزئى عن شقيقته . ومهما يكن من أمر فإن ابتكار رفيق خيال وهو يعيش فى حانوت بالقرب من محطة القطار يوحى بوجود مجموعة من الرغبات امتزجت جميعاً فى صورة مخلوق واحد . وكان الاسم الذى خلعه الغلام على المحطة هو (راكن)[1] ، وهذا على ما يظهر تحوير فى اسم (فراتون)[2] . وعند ما حاول الأب تصحيح خطأ ابنه بقوله : «لعلك تقصد فراتون» ، أجاب الغلام : « لست أعنى فراتون ، فإن مارى تقطن بالقرب من راكن ، لا من فراتون » . وليس من الصعب أن نجد تفسيراً لهذا ، فقد ذهب الولد قبل ذلك بمدة قصيرة إلى محطة (فراتون) التى كانت من المحطات المزدحمة فى ضواحى بورتسموث ، فوقف على الرصيف ، وقد استغرق اهتمامه مرأى القُطر رائحة وغادية أمامه . ولم يلبث أن أبدى رغبته فى أن يسمح له بالصعود إلى القطر لقيادتها بنفسه . وقد تضايق كثيراً عند ما أدرك استحالة ذلك ، فاكتفى بهذا القدر من (فراتون) ، وتبخر اهتمامه بها إلى حد كبير . أما (راكن) الخيالية فأمرها مختلف عن ذلك ، إذ فى استطاعته

(1) Racken (2) Fratton

فى تلك المحطة أن يسوق القطر كما يريد . فالمحطة التى شادها فى حجرته هى (راكن) ، لا (فراتون) ، ومارى لا تقطن عند (فراتون) بل عند (راكن) .

ولا يكون رفيق الخيال عادة مخلوقاً ثابتاً محدوداً لا يناله التغيير . فقد كانت مارى الخيالية فى بادىء الأمر امرأة ناضجة ، أو طفلة كبيرة تقرب فى العمر من شقيقته ، ولكنها كانت تنقلب فى بعض الأحيان إلى طفلة من سنه . فكأن الأمر على ما يظهر يتوقف على نوع الحاجة التى يحسها ، فهو إما أن يكون فى حاجة إلى من يعينه على أداء عمل من الأعمال ، و إما أن يكون فى حاجة إلى من يزامله فى اللعب . ومن المحتمل أن الطفل عند ما تتقدم به السن ، و يصبح واثقاً من مدى قواه وقدراته ، ينمو عنده شعور بالأمن يجعل فى استطاعته أن يجد بنفسه إشباعاً لرغباته . و بذلك تصبح حاجته إلى رفقاء الخيال أقل إلحاحاً عن ذى قبل ، كما أنها فى كثير من الحالات قد تختفى اختفاء تاماً . وقليل جداً من الكبار من يستطيع أن يتذكر تفاصيل عن رفاق خيال طفولته . وهم قد يكونون صادقين عند ما ينكرون تخيلهم لمثل أولئك الرفاق فى وقت من الأوقات إنكاراً تاماً ، لولا أن آباءهم و إخوتهم وأخواتهم يتذكرون تفصيلات كثيرة عن تلك الحالات ، و إن كانوا ينسون كل ما يتعلق بالحالات الخاصة بأنفسهم .

وتختلف الطرق التى يصف بها الصغار رفقاء خيالهم لمن يثقون بهم من الكبار ، وكذلك التفاصيل التى يؤكدونها ، أو التى لا يشيرون إليها إطلاقاً . ولو صيغت الأسئلة التى توجه إليهم فى مثل الصورة الآتية مثلا : « ما ذا تشبه ؟ هل شعرها فى لون شعرك ؟ ما لون عينيها ؟ » ، فلا شك أننا نحصل فوراً على إجابات عنها ، حتى ولو كانت تلك الإجابات مما يخترعه الطفل لساعته بقصد إشباع فضول سائليه . ولكن إذا اتخذ السؤال الشكل الآتى : « أخبرتنى أمك أن طفلة صغيرة تأتى هنا أحياناً لتلعب معك . أما حدثتنى قليلا عنها ؟ » ، فإن الطفل يأخذ فى وصفها مبتدئاً بتلك الخصائص التى يعتبرها تفوق غيرها فى الأهمية ،

وقد يكون الإسم هو أول ما يذكره . وقد تقول طفلة مثلا أن رفيقتها فتاة « تصغى إلىّ عند ما أتحدث » ، و « تلعب معى » ، و « تفعل ما آمرها به » ، وقد تكون « أكبر منى » ، أو أنها « بيضاء البشرة ، ذات شعرذهبى ، وعيون زرقاء ، وجمال أخاذ » . هذا الوصف الأخير ابتدعته طفلة على جانب كبير من الحسن ، سمراء اللون ، ذات عيون بنية . وكانت هذه الطفلة قد سمعت يوماً ما سيدة تقول لأمها عنها : « يالها من سمراء صغيرة ! » . فرفيقة الخيال إذن ذات أخرى[1] ابتدعتها الطفلة كى تعوض بها عما اعتبرته نقصا شخصيا .

وقد يتضمن الوصف فى بعض الأحيان العبارة الآتية : « إنها شريرة جدا » ، كما أن الطفل أثناء لعبه مع رفيقة خياله قد يلتفت إلى أحد الكبار قائلا : « أليست (فلانة) عنيدة ؟ إنها ترفض إطاعة أوامرى . » ، ثم يبدأ سلسلة من التأنيب تقوم على أساس خبراته الواقعية .

ما معنى « الشقاوة » فى نظر مثل ذلك الطفل ؟ ربما كانت لا تعنى أكثر من قيامه بتحقيق ما يرغب فيه على الرغم من حظر الوالدين . فالطفلة التى أشرنا إليها جريئة ، وبها ميل إلى عصيان الأوامر ، وهى لا تطيق صبراً على كثير من المحرمات التى تصادفها فى حياتها . وقد قالت لأمها ذات مرة : « أنت دائماً تقولين لى لا تفعلى كذا أو كذا » . كما أنها اكتشفت أن عدداً كبيراً من أوجه النشاط التى تعتبرها لذيذة تدخل ضمن الممنوعات ، وأن كثيراً من الأشياء التى تحرمها عليها أمها تسمح لها جدتها بها . ونحن إذ نبحث فى فكرتها عن « الشقاوة » لا نقصد أى تقدير فطرى للخطأ والصواب ، وإنما يهمنا أن نعرف أن الخبرة المحسوسة عند تلك الصغيرة قد دلتها على أن الكبار الذين يملكون القدرة على الثواب والعقاب ، يحظرون عليها بعض الأمور ، ويسمحون لها ببعض آخر ، ويثيبونها على ضرب معين من السلوك ، ويعاقبونها على ضرب آخر . كذلك

---

(1) Alter ego.

اكتشفت الطفلة أن « شقاوتها » يمكن أن تكون سلاحا فى يدها ضد أمها ، وهو سلاح يضايق الأم ويؤلمها ، ويظهر لها أحيانا عجزها عن سياسة إبنتها . ومنذ عهد بعيد نصح « إبكتيتس » رجلا ثريا بألا يندفع وراء سورة غضبه إذا ما حطم عبده إناء ثمينا أمامه ، لأنه يدل بغضبه هذا على أن العبد يستطيع أن يتحكم فى حالة سيّده المزاجية ، على حين يعجز السيد نفسه عن ذلك . فغضب السيد يثبت تفوق الخادم عليه . فكأن الطفلة الصغيرة قد اكتشفت ما يقرب من ذلك .

فالطفلة إذن قد وجدت فيما يسميه الناس « شقاوة » وسيلة إلى نوع جديد من اللعب : فالأم تقول إنه لا ينبغى فعل هذا الأمر أو ذاك ، والأب يسمح بفعله مشترطا أن تكون الابنة حسنة السلوك ، والجدة لا ترى مانعاً فى عمله إذا كان هذا يتم فى سكون . . . وهكذا . . . لذلك يصبح من دواعى التسلية أن تفكر الطفلة فى شىء تعمله كى تلاحظ استجابات الآخرين المتباينة . وهكذا أصبحت فى وضع يجعلها ترد على أمها بقولها : « إن أبى يسمح لى بفعل ذلك إذا كنت حسنة السلوك ، وقد كنت كذلك فعلا طيلة هذا الصباح » ، أو تقول لأبيها : « إن جدتى لا تمانع فى أن أفعل ذلك كلما أردت : وهى لا تطلب منى إطلاقا أن أكون حسنة السلوك » . وهذه الخطة من الأمور المعروفة فى الشئون الحربية والسياسية ، حيث نجد الأمم والجماعات الضعيفة تثير بين الدول التى تهدد سلامتها العداء والخصومة . فهل يمكن القول بأن الطفل يكدح سعياً وراء القوة ، متمشين فى ذلك مع رأى بعض علماء النفس فى تأويل ذلك السلوك ، أم أنه يحاول فقط أن يضمن لنفسه الأمن فى هذا العالم المعقد . لقد تعلمت الطفلة السابقة من بعض أعمال الكبار التى صدرت عنهم دون حكمة أن تتوقع دوما ثوابا ماديا كنتيجة حتمية للسلوك الحسن ، ولذلك بدأت تطلب معظم الأشياء التى تقع تحت بصرها فى متاجر اللُّعب ، فتقول لمرافقها من الكبار : « أما اشتريت لى هذه اللعبة ؟ »

كما أخذت تلح فى طلب أشياء لا تعرف عن طريقة استعمالها شيئاً على الإطلاق ، ومنها مثلا أنواع من الآلات كانت معروضة ذات مرة فى واجهة مكان لشركة هندسية . وعندما تُرفض طلباتها فإن سلوكها كان يتخذ قالباً ثابتاً ، إذ يغبّر وجهها ، وتتخلل العبرات صوتها ، ثم تقول فى حزن واكتئاب : « ولِمَ لا تشتريها لى ؟ » .

وغالباً ما كانت تلك التجارب تكلل بالنجاح . وبذلك تجمّع لديها عدد كبير من اللُّعب التى كانت تحتفظ بها فى دولاب بمنزل جدتها . كذلك لوحظ أنها إذا ما صدها أحد عن أمر من الأمور — كأن لا يسمح لها بأن تفعل شيئاً تريده ، أو تحصل على شىء تطلبه ، أو عندما ينشغل عمها أو عمتها عن القراءة لها أو اللعب معها — فإنها تفتح الدولاب ، وتجلس على الأرض بجواره ، ثم تُخرج لُعبها واحدة بعد الأخرى ، وترتبها على الأرض حولها . وهى لا تلعب بها وإنما تقتصر على رصّها حولها ، وتأخذ فى التحدث أثناء ذلك إلى رفيقة خيالية عن عن الأشياء التي تملكها ، فتصفها لها ، وتؤكد ملكيتها إياها ، كما تذكر أحيانا اسم الشخص الذى حصلت منه عليها . وعندئذ تتغير حالتها المزاجية ، فتنقشع كآبتها ، ويحل محلها بالتدريج المرح والسرور . ويتضح من كل ذلك أنها قد نسيت ما نالها من حرمان فى وجود تلك الأشياء التى تذكرها بمناسبات سعيدة حيث كان فى استطاعتها أن تفعل ما تشاء ، وأن تثاب على « حسن خلقها » ، وأن يقوم الكبار على خدمتها .

وقد تم التعبير عن ذلك الاتجاه تعبيراً صادقاً فى إحدى رؤاها التى قصّتها ذات صباح وهى فى سن الثالثة . إذ قالت إنها رأت ملاكا يتناول جبناً ومربى فى العشاء . فالطفلة اعتادت فى منزلها أن تنال قبل نومها قطعة من البسكويت وكوبا من اللبن . وكثيراً ما كانت تطلب المزيد من ذلك فتقول : « هل أستطيع أن آخذ قليلا من الجبن مع البسكويت ؟ » أو : « هل يمكننى أن

أضع بعض المربى على البسكويت » . فإذا رُفض طلبها فإنها تقول : « ولكنى كنت اليوم حسنة السلوك جدا » . فالمسألة كلها لعبة فى نظرها . ولكن عنصر الجد فى تلك اللعبة يظهر فى اعتقادها بأنها تستطيع فى بعض الأحيان أن تحصل على ما تريد . غير أن أبويها قد لا يكونان فى حالة مزاجية حسنة ، فلا يسيغان اللعبة ، ولا يتورعان عن التصريح لها بذلك . و إذا ما عاودت الطلب فإنهما قد يحرمانها مما قد يكونان قد أعطياه إياها من قبل .

وقد تبين من بضع أسئلة ألقيت عليها أن الملاك فى نظرها شخص « حسن الخلق » ، وليست « الشقاوة » من خصاله . والحلم ييسر لها الاندماج فى ذلك الشخص الفاضل الذى يُثاب على طيبته بالجبن والمربى معا ، لا بواحد منهما فقط . فهنا إذن نرى إشباعاً للرغبات مصطبغاً بلون الطفولة . وتلقى الرؤيا كذلك ضوءاً ساطعاً على معنى « حسن الخلق » فى نظر الطفلة ، فهو ما يجعل صاحبه ينال الهبات و يحصل على الامتيازات . كما أن بعض المظاهر الأخرى فى سلوك الصغيرة تكشف لنا عن معنى « الإثم » عندها ، فهو ما يؤدى إلى عقاب مرتكبه بالحرمان والرفض . فالطفلة حائرة مضطربة إذ ليس هناك إتفاق فى الرأى بين أمها وأبيها وجدتها (بغض النظر مؤقتاً عن باقى أفراد الأسرة) على معنى « حسن الخلق » . و يظهر أنهم ليس لديهم مقياس مشترك يقدرون به ما يستحق الإثابة ، ولذلك تختلف المناسبات التى يعتبر فيها الفعل « إثما » .

ومن الممكن أن نتخذ من بعض أنواع اللعب مع رفيقة خيالها وسيلة لاختبار ذلك . فهى عندما تلتفت إلى أمها قائلة : « أليست (فلانة) رديئة ؟ إنها تريد أن تفعل كذا أو كذا » فإن استجابة أمها تصبح جزءاً من المعلومات التى تختزن بعناية لتستخدم فيما بعد . و بمثل ذلك تحصل البنت على رأى جدتها . وعندما تعنفها أمها بعد ذلك على إتيانها أمراً لا ترضى عنه فإنها عندئذ تستطيع أن تقول لها : « لكنك قلت لى فى مناسبة سابقة إن ذلك ليس أمراً رديئاً » ،

أو تقول : « أخبرتنى جدتى أن هذا الأمر لا غبار عليه عندما سألتها فى ذلك » .

ونستطيع إذا شئنا أن نفترض مبدأ من مبادىء السلوك ، فنقول إن سلوك الطفلة يشير إلى « إرادة القوة » . كما يمكننا أيضاً أن نشك فى احتمال أن يكون هذا السلوك قائماً على مثل ذلك المبدأ ، مفضّلين القول بأن الطفل بصفته كائناً بيولوجياً يكافح فى سبيل البقاء فى عالم يتحكم فيه الكبار الذين يعيش الطفل بينهم ، و يعترضون سبيل الكثير من نشاطه وفاعليته ، فإنه يكيف نفسه لهذا العالم قدر استطاعته . ولو وجدنا أن الطفل قد أخطأ فى فهم العالم بشكل أدى إلى نمو ضروب غير مرغوب فيها من السلوك عنده ، فلن يجدينا نفعاً أن نلجأ إلى مبدأ عام لتفسيره ، بل ينبغى علينا أن نفهم مشاكل الطفل النوعية ، ونحاول أن نبتدع له مواقف خاصة تتطلب التكيف الذى سوف يصلح من نمو الطفل وترقّيه بالشكل المطلوب . وها نحن مثلا أمام طفلة مضطربة حارت فى فهم معنى « حسن الخلق » الذى طبعه في ذهنها أفراد مختلفون على صور متنوعة متباينة ، فحاولت أن تكتشف أنواع السلوك التى تؤدى إلى إثابتها بالهبات والامتيازات . كما نجدها قد عثرت على وسائل تعينها على إظهار عدائها لأولئك الذين يعترضون سبيل رغباتها ، أو يعجزون عن مكافأتها .

« فشقاوة » رفيقة الخيال مكنتها من الاستمتاع بنوع من « الشقاوة » المقنّعة ، وفى الوقت نفسه فإنها إذ تعاقب تلك الرفيقة على ما تبديه من سوء السلوك فإنما تجرب بذلك حسن الخلق . ومن ثم فإنها تبتكر تلك المواقف التى تيسر لها لذة ارتكاب الخطأ مع البقاء فى دائرة الخلق الطيب ، فتحل لنفسها مشكلة يحار فيها كثير من الكبار . وهذه يمكن اعتبارها ، بصفة عامة ، مثل اللذة التى يشتقها القارىء من قصة بوليسية يلعب فيها هو دوراً فى الجريمة ، غير أنه يبقى فى جانب القانون ، و ينتظر بفارغ الصبر اللحظة التى يكتشف فيها أمر المجرم وتثبت إدانته. وهى مثل اللذة التى يشعر بها أولئك الناس الذين يقرءون بمحض رغبتهم

عن حالات من أعمال القسوة المتناهية مدّعين أن ما يدفعهم إلى ذلك ليس متصلا بالرغبة فى الاستمتاع بما يقرءون ، و إنما بأسباب أخرى تتصل بالفضيلة وحب الخير العام ، وكذلك أولئك الذين يقرءون كتاباً من أول صفحة إلى آخر كلمة فيه ، ثم يعلنون بعد ذلك على صفحات الجرائد مدى ما أثاره فيهم من رعب واستنكار ، و يطلبون مصادرته على الفور . ومثل هذا يحدث مع الطفل فهو يعنف رفيق خياله ، و يعاقبه ، على أنواع من سوء السلوك اخترعها بنفسه .

وليس فى الإمكان ملاحظة مثل هذا اللعب مدة طويلة دون أن يؤدى بنا ذلك إلى التفكير فى الاهتمام الشديد الذى يظهره الأطفال نحو الحيوانات ، والدمى الكبيرة ، و بعض أفلام السينما . فالأطفال شديدو الميل إلى أفلام شارلى شابلن الصامتة لأن ما يقوم به من حيل مضحكة يشبه أنواع السلوك المحظورة عليهم إلى حد كبير . ففى إحدى المناسبات مثلا يحاول شابلن أن يقطع رغيفاً من الخبز إلى حلقات ، بيد أنه يقطعه على شكل حلزونى ، ثم يتظاهر بأن الرغيف قد أصبح مزماراً من الغاب ، مما يكون مثاراً لضحك مشاهديه من الأطفال المعتادين النظام الصارم فى آداب المائدة . كذلك تحدث حركات (ميكى ماوس) فى المتفرجين التأثير نفسه للأسباب عينها . كما أن جانباً من الولع (بإخوان ماركس) ، (ولوريل وهاردى) لا يخرج تفسيره عن ذلك .

وليست جاذبية الحيوان فى نظر الأطفال أمراً بسيطاً ، بل إنها فى الحقيقة مؤلفة من عدة عناصر . ومما لا شك فيه أن أحد أسبابها هو أن الحيوان يستطيع أن يفعل أشياء كثيرة يعجز عنها الطفل ، إما لأنها محظورة عليه ، و إما لأنها فوق استطاعته . فالطفل كثيراً ما يشعر بالمضايقة بسبب ضآلة جسمه ، وضعف قواه ، و بسبب ما يفرضه عليه الكبار من قواعد السلوك ونظمه . وقد أوضح « مكدوجال » أن المضايقة تثير النزعة إلى المقاتلة وما يصحبها من غضب . فالطفل يشعر على الفور بالعداء ضد والديه ، وقد ينتابه الغضب بسبب قصور

حيلته ، ولـكنه يعجز عن تبين الناحية التى يصب عليها جام غضبه . وقد حدث أن بعض الآباء الذين كانوا قد لقّنوا أولادهم أن الله هو الذى خلقهم صرّحوا بدهشتهم وألمهم عند ما تبينوا فى أطفالهم ظهور شعور بالعداء نحو الله لأنه لم يخلقهم أفضل مما هم عليه . فـكأنهم قد نمّوا بطريقتهم الخاصة ذلك الاتجاه الذى ورد ذكره فى إحدى رباعيات عمر الخيام على لسان إناء ردىء الصنع يتساءل : « ماذا ! أهكذا اضطربت يد الخزّاف ؟ » . وقد سأل طفل أمه ذات مرة : « لِمَ لم يخلقنى الله بحيث أستطيع أن أتسلق مثل القطط ؟ ».

وهكذا كانت المخلوقات التى تطير فى الهواء ، أو تعدو كالبرق الخاطف ، أو تقدر على رفع أحمال ثقيلة ، أو تقفز فوق الحواجز ، أو تتسلق الأشجار ، أو تستطيع إخراج أصوات غريبة مختلفة ، أو تحفر جحوراً فى الأرض ، تـكتسب جميعاً أهمية كبيرة فى نظر الطفل الذى يكون قد بدأ يدرك الفرق بين رغباته وبين قدرته على تحقيقها . وهو يستعين بخياله على جعل تلك الحيوانات تؤدى له كل هذه الأعمال ، فيطير مع الطيور ، ويصيد مع القطط ، ويحفر الجحور فى جوف الأرض مع الأرانب ، ويفر من أعدائه مع الفيران عن طريق جحور يعجز الـكبار عن مطاردته فيها . وإذا كان الحيوان أليفاً مستأنساً سهل على الطفل أن يشعر بأنه يؤدى تلك الأعمال بنفسه . فيستطيع أن ينسى شعوره بالحرمان والدونية ، وعداءه نحو العالم ، ويمـكنه كذلك أن يحس بأن الحيوان جزء من نفسه بشكل ما يندر أن يستطيعه الـكبار .

فالطفل بابتداعه رفقاء الخيال ، أو بوسائل أخرى شبيهة بذلك ، ينجح فى تجاوز حدود طاقته وتجنب القيود المفروضة عليه ، فرغباته تتحقق فى الواقع والخيال معاً . ولـكنه لما كان بعد قاصراً عن التمييز بين ما هو حقيقى وما هو خيالى فإنه يعتقد أنه مستطيع تحقيق جميع رغائبه . وإذا كان هناك نقص ملموس فى ذلك فإنه يكون دائماً على ثقة من استكماله عند ما يصبح « كبيراً » ناضجاً . لذلك

يبدو كما لو أن الطفل يعيش فى حلم يقظة محوره السمو والتفوق ، وأن هذا الحلم قد بزغ وتطور من ثنايا خبراته فى حياته المبكرة عندما كانت صيحة واحدة منه تكفى لإشباع كل رغبة من رغباته كالدفء والغذاء والتدليل و إزالة أسباب المضايقة . و بذلك يوضع الأساس للاعتقاد المقبل فى سلطان الألفاظ وقوة الرغبات ، ذلك الاعتقاد الذى يعتنقه كثير من الراشدين بدرجات متفاوته دون أن يشعروا بذلك . فالألفاظ الغامضة ، مما له معنى أو لا معنى له ، و بعض العبارات المألوفة وما شابهها ، خليق بأن يجلب البركات أو اللعنات . وعبارة « افتحى يا سمسمة » تفتح الأبواب المغلقة ، كما أن جملة أخرى قد تطرد الفأل السيء الذى يعقب « العطاس » ، والنطق بعبارة ثالثة تحتوى ألفاظاً خاصة يكشف عن خداع الحواة وحيلهم . ولا يزال بعض الناس يؤمنون بأن بعض « الكلمات السحرية » تستطيع إحداث انقلابات فى العالم . و بما كانت آثار بعض هذه الأمور ما تزال باقية فى العقيدة السائدة بأن الطالب يستطيع باستظهاره بعض الرقى والتعاويذ أن يحسن فى الوقت نفسه أداء أعماله .

وقد كان كثير من الناس إلى وقت قريب يرون أن « الإيحاء الذاتى »[1] لا يعنى أكثر من أن ذكر رغبة من الرغبات فى صورة اعتقاد ثابت يكفى لإحداث تغييرات واسعة فى الشخص وأعماله . فترديد الشخص لنفسه أنه سوف يصبح غنياً يُعدّ أول خطوة فى سبيل تحقيق هذه الرغبة فى الثروة . و يعبّر عن هذا الاعتقاد فى صورتى صادفت هوى فى نفوس الكثيرين . وقد أوضح « بودوان »[2] المعنى الحقيقى للإيحاء الذاتى بدقة فائقة ، غير أن إيمان الناس به لم يكن وليد الحقيقة أو نتاج دراسات (بودوان) ، و إنما كان راجعاً إلى وجود حلم السمو[3] اللاشعورى عند الناس .

(1) Auto-Suggestion.
(2) Charles Baudouin.
(3) Fantasy of Supremacy.

وقد قيل إن منشأ النزعة إلى السمو يرجع إلى حياة الطفل قبل مولده ، أى عند ما كان لا يزال جنينا في بطن أمه ، حيث كانت جميع رغباته تتحقق دون جهد أوعناء . وهذا يُشعر الكائن الحى بأن كل حاجاته سوف تنال الإشباع . غير أن الحياة فى العالم الخارجى الذى يخرج إليه تؤكد له عكس ذلك ، إذ فيه يَخْبُر الخوف والجوع والبرد ، وشتى أنواع المشقة البدنية ، ولكن صيحة واحدة منه لا زالت تستطيع أن تفضى إلى الظفر بمساعدة أولئك الذين يقدرون على تكييف حياته بما يؤدى إلى راحته . و بمرور الوقت تكثر مطالبه ، كما يزداد عدد رغباته التى لم يتم لها الإشباع .

و يبدو أن حلم السمو يكون لا شعوريًا لا لأنه قد كُبت ، ولكن لأنه لم يكن شعوريًا فى وقت من الأوقات ، فهو لا يعبر عن نفسه بشكل مباشر كما هو الحال فى قول الطفل مثلا : « إنى مخلوق واسع المقدرة ، أستطيع أن أفعل كل شىء . وأن أسمو على كل ما فى هذا العالم ، وليس علىّ سوى أن أبدى ما أشاء من الرغبات ، فإن مجرد نطقى بها يكفى لتحقيقها . » . وهناك نوع من العته تطفو فيه إحدى المعتقدات على السطح ، فيؤمن بها المريض ، و يتأثر سلوكه بها . غير أن تلك المعتقدات تكون لا شعورية عند الرجل السوى ، وتعبر عن نفسها فى صور مختلفة . ولهذا يسهل علينا أن نغرى عدداً كبيراً من الرجال والنساء بالاعتقاد بأن اكتشافاً واحداً من الاكتشافات قد يبلغ مبلغ القدرة المتناهية الشاملة ... كالاعتقاد مثلاً بأن الدولة التى تسيطر على سر القنابل الذرية تستطيع أن تعمل كل ما يمكن أن يدور بخلد البشر ... أو بأن الأمة التى تمتلك الغازات السامة سوف تسود العالم بأسره عند ما تستخدمها فى الوقت المناسب ... أو بأن الحرب البيولوجية سوف تفضى إلى سيطرة الدولة التى تستعملها فى حرب قادمة على الأرض جميعاً .

كل تلك المعتقدات يسهل الإيمان بها لأنها تتمشى مع حلم السمو الذى

نتحدث عنه ، والذى يؤدى وجوده فينا إلى قيام استعداد للايمان بالقدرة الشاملة فى أنفسنا ، أو فى أولئك الذين نندمج فيهم . وهكذا يمكن أن نفهم سلطان أساطير الفرادس المفقودة فى ضوء ذكرياتنا اللاشعورية عن حياتنا قبل الولادة ، فإن تلك المتعة العظيمة التى يشعر بها المرء أو يتصورها فى تلك الفرادس ليست إلا تكييفاً للمستقبل وتظليله بظلال تلك الذكريات الماضية ، وبالمثل يمكن تفسير استعداد ملايين الناس فى عصور مختلفة ، و بيئات متباينة ، للايمان بجبروت شخص واحد مثل نابليون أو هتلر أو موسوليني ، وقدرته على عمل كل شيء . مع عجزهم عن أن يدركوا أن كل ما يقوم به مثل ذلك الشخص ليس نتيجة لقدراته الخارقة للعادة ، بل نتيجة لإيمانهم به . ويرجع هذا الاستعداد للاعتقاد بقدرة فرد من البشر إلى استمرار وجود حلم السمو والتفوق .

ونجد فى حياة الفرد محاولة مستمرة لإشباع ما يمكن أن نسميه « فضلات الرغبات غير المشبعة » التى نتجت عن هذا الحلم من أحلام اليقظة . فإن جانباً مما نشتهيه يمكن إشباعه عن طريق نشاطنا . وذلك هو القدر الذى يتهيأ للتحقيق الفعلى . أما فيما يختص بالباقى فقد يكون نصيبنا منه الحرمان ، مما يؤدى إلى انصرافنا عن العالم الواقعى الذى نجد فيه وحده الإشباع الحقيق ، ونلوذ بعالم خيالى ، عالم لعب ورؤى وأحلام يقظة .

ويعنى انصراف غالبية الأطفال عن رفقاء اللعب بعد بضع سنوات أن تلك الفترة التى يلعب فيها أولئك الرفاق دوراً فى حياة الطفل إنما هى فترة نمو ، يصبح الطفل فى نهايتها فى غير حاجة إليهم . غير أن تلك الفترة قد تستمر مدة ليست بالقصيرة كما حدث لسيدة تبلغ الخمسين من عمرها وتشتغل بالتدريس ، وتحيا حياة رتيبة عادية . فقد ذكرت تلك السيدة أنه كان لها من بين رفيقات خيالها طفلة كبرت معها ، وما زالت ملازمة لها . وكانت تصفها بأنها مخلوقة « روحية » . وقد أصيبت السيدة بصدمة فى كبريائها عند ما لاحظت أن الآخرين يسخرون

منها . كذلك صرحت شابة أخرى فى نهاية عقدها الثانى بأن رفيقة خيال طفولتها ما زالت تحتل من نفسها مكانتها الممتازة الأولى . وثمة مؤلف قصصى معروف نشر كتاباً صغيراً يدور موضوعه حول خبراته ومعتقداته الشخصية ، فتحدث عن ذكرياته المبكرة حيث ذكر مربية كانت تحمله إلى أعلى بحيث كان يستطيع أن يبصر ما فى الحديقة التى تقع خلف جدار مرتفع . وذكر بعد ذلك أنه كان يشعر فى مناسبات كثيرة أن يدين خفيَّتين كانتا ترفعانه ، وتعينانه على التغلب على مصاعب حياته . غير أن القاعدة العامة هى أن يهجر الفرد السوىّ رفيق خياله فى غضون بضع سنوات ، فإن ذلك الرفيق يشير ، كما رأينا ، إلى طور من أطوار النمو يمتد خلال الفترة التى يشاطر الطفلُ رفيقه اللعب فيها ، دالا بذلك على أنه يجتاز إحدى مراحل نموه الطبيعية . ويبدو أن اختفاء ذلك الرفيق يوحى بأن الطفل قد بدأ ينسجم مع حياة الواقع ، وأصبح يجد إشباعه فى الاتصال برفاق حقيقيين ، وفى نشاطه إزاء الأشياء الواقعية . وينبغى ألا يغيب عن بالنا أنه يكون بذلك فى حالة نمو جسمى وعقلى ، وأنه أخذ يتخلص تدريجاً من ذلك الحرمان الذى كان ينغص عليه حياته فى أيامه الأولى .

ونستطيع الآن أن نلخص بعض هذه الحقائق عن حياة الطفل العقلية ونموه ، وهى الحقائق التى كشف لنا عنها لعبه مع رفقاء الخيال . فنحن قد افترضنا حلم يقظة محوره رفقاء الخيال ، وهو متصل أوثق الاتصال بفاعلية الطفل الحقيقية فى اللعب ، وفيه يمكن أن نتبين العناصر الآتية :

تعديل فى تخيل القدرة الكلية المطلقة (١) الذى ينمو ويتطور أثناء حياة الطفل ، والذى يؤدى أخيراً إلى أنواع من النشاط التعبيرى .

---

(1) Fantasy of Unconditioned Omnipotence - See T. K. Slade - Our Phantanstic Emotions (London : Kegan Paul).

٢ — تعويض عن النقص الذى يكتشفه الطفل فى نفسه ، وعن فشل الآخرين فى الاستجابة لمطالبه .

٣ — « خلع » الرغبات التى لا يمكن تحقيقها فى حياة الواقع بسبب قدرات الطفل المحدودة ، أو بسبب ما يفرضه عليه الكبار من قيود .

٤ — وسيلة للهرب من العالم الواقعى الذى يشعر الطفل حياله أنه لا يشفى غليله ، ومجانبة أنواع الصراع التى تقوم فى نفسه عند ما يعمل أو يلعب مع غيره من الأطفال .

obeikandl.com

الفصل الرابع

حلم اليقظة والعاطفة

إننا نستطيع فهم التربية فى معناها الشامل على أنها توجيه الطفل توجيهاً سديداً مقصوداً ابتغاء إعداده لحياة الرجل الذى نرجو أن يكونه . وهذا ما يدركه القائمون على تربية الأطفال بدرجات متفاوتة من الوضوح ، فقد يشرئب هؤلاء بأبصارهم إلى المستقبل ، وقد لا يسترشدون فى عملهم بمثل عليا محدودة عن الشخصية ، وقد يقصرون تفكيرهم على مصالحهم الشخصية ، ولكنهم مع كل ذلك يحاولون دوماً تكييف الطفل وفق صورة واضحة فى أذهانهم .

ويرى البسطاء من الناس عادة أن الغرض من التربية هو إعداد الطفل ليكون « رجلا فاضلا » ، أو « رجلا مهذبا » ، أو ما أشبه ذلك . وكثيراً ما نسمعهم يقولون بلهجة التحذير : « لو تركت محمداً يفعل كذا أو كذا فإنه سيصبح كيت وكيت » ، ذاكرين جملة من الصفات المستهجنة . فقسوة الأطفال ، وخشونتهم ، وجشعهم ، وأنانيتهم ، كلها فى نظرهم صفات يحتمل أن تتطور إلى عادات سيئة فى المستقبل . كذلك نرى أن ميل الطفل إلى القراءة الانفرادية ، وتجنب الصحبة ، والاستسلام لأحلام اليقظة ، من الأمور التى تفضى عادة إلى تأنيب الآباء وغيرهم ممن يعتقدون أن شغف الطفل بمثل تلك الأمور لا يبشر بخير في مستقبله .

وتعتمد نظرتنا إلى هذا الموضوع ، وغيره من الموضوعات المشابهة له ، على فكرتنا عن طبيعة النمو . فنمو الطفل كما نفهمه الآن ينقسم بالولادة إلى قسمين متميزين : فالجسم فى أول تكوينه ينشأ عن البويضة الملقحة ، ثم تنقسم هذه

البويضة المرة بعد المرة إلى عدد من الخلايا تأخذ فى الانتظام على شكل أعضاء . وتغتذى هذه الأعضاء النامية بجسم الأم الذى يمدها بالطاقة والعناصر اللازمة للنمو . ويلخص الكائن الحى وهو جنين جميع مراحل التطور التى مرت بها الخلية البسيطة فى طريقها إلى صورة الكائن البشرى الكامل .

ولا ينبغى أن ننظر إلى الكائن الحى على أنه مجموعة من الوحدات المنعزلة المستقلة من خلايا وغدد وعضلات وأوعية دموية ، فإن هذه جميعاً تنتظم منذ البداية فى صورة أجهزة لها صفات تشريحية خاصة ، ثم تنتظم هذه الأجهزة فى وحدة شاملة هى الكائن الحى الكامل . ويمكن التمثيل لذلك بالسيارة وما فيها من اسطوانات ومحاور وملفات كهربائية وغيرها ، فإن هذه كلها تكوّن نظاما للتزييت وآخر لنقل التيار وهكذا . . . غير أن تلك النظم جميعاً تؤدى وظائفها فى وحدة متناسقة عند ما تتحرك السيارة . وكما أن السيارة بذلك تصبح نظاماً متناسق الأجزاء . فكذلك الطفل فإنه نظام حى .

ولكن تشبيه الطفل بالسيارة تشبيه ساذج غير دقيق ، لأن السيارة لا تنمو بل تبقى دوما على الصورة التى خرجت بها من مصنعها ، ولذلك قد يكون تشبيه الطفل بالمتجر أكثر دقة ، فإن المتجر يبدأ حياته على صورة وحدة منظمة كاملة لها مديرها وصاحبها ومجلس إدارتها ، وهو منذ افتتاحه عرضة للتغيير المستمر من حيث التنظيم ، فقد تندمج بعض أقسامه فى قسم واحد شامل ، وقد تتسع أقسام أخرى فتنقسم إلى شعب جديدة . وهذا يشبه ما حدث فى مكاتب البريد فقد ظهرت إلى حيز الوجود على شكل مكاتب صغيرة يقوم كل منها بجميع العمليات البريدية البسيطة ، ثم اتسع نطاق عملها رويداً رويداً حتى تطورت أخيراً إلى تلك المؤسسات الضخمة المعقدة التى نراها الآن . وهذا شأن الكائن الحى فهو يتطور منذ تكوينه تطوراً تدريجياً مستمراً يؤدى به فى النهاية إلى صورته الكاملة المعقدة.

وقد اختلفت آراء العلماء فى ماهية النظام العضوى للطفل عند ولادته ،

فإن بعض أجهزته البسيطة التي تضم طائفة بسيطة من أعضاء الحس والأعصاب والعضلات لا يطرأ عليها أثناء حياة الطفل إلا تغيير طفيف لا يكاد يذكر ، أو أنها قد لا تتغير على الإطلاق ، وتلك هى الأجهزة التي تنتج عنها الأفعال المنعكسة . وهناك أجهزة أخرى فى مثل بساطة الأولى غير أنها عرضة للتغير والتعقيد . ولقد دلل « باڤلوف[١] » و« و بشتريف[٢] » و« جون ب . واطسون[٣] » على أن فى الإمكان إحداث تغيرات صناعية فى تلك الأجهزة ، فنحن نعلم مثلا أن رؤية الطعام مثير طبيعى لإسالة لعاب الكلب ، غير أن فى الإمكان تدريب الكلب بشكل خاص بحيث أن لعابه يسيل أيضاً عند سماع صوت معين أو رؤية ضوء خاص . والطفل بطبيعته تظهر عليه علامات الخوف عند سماع صوت مرتفع ، ومن المستطاع أن نجعله يشعر بهذا الخوف عند رؤية أرنب أبيض[٤] مثلا . وقد استنتج بعض علماء النفس من أمثال هذه التجارب أن فى الإمكان تفسير جميع صور النمو على أنها أنواع من التنظيم لتلك الأفعال المنعكسة التى اعتبروها قابلة للتعديل ، وهى توجد على شكل تركيبات بسيطة فى الطفل الحديث الولادة .

غير أن « مكدوجال » ومن يناصرون مذهبه فى النمو يهتمون بالتركيبات التى تزداد فى درجة تعقيدها عن تلك الأفعال المنعكسة التى ينادى بها أنصار مذهب السلوكية واتباع مذهب الأفعال المنعكسة ، و يطلقون عليها إسم

---

(١) Pavlov عالم روسى من علماء الفسيولوجيا ، وهو الذى صاغ اسم « الفعل المنعكس الشرطى » . (المترجم)

(٢) Bechtrev عالم روسى آخر من علماء الأعصاب ، ساهم مع باڤلوف فى إخراج نظرية الأفعال المنعكسة الشرطية إلى الوجود . (المترجم)

(٣) John B. Watson زعيم مدرسة السلوكيين التى تهتم بدراسة السلوك الظاهرى ، وتنكر الشعور ، ولا تعترف بطريقة التأمل الباطنى . (المترجم) .

(٤) تجربة الكلب وتجربة الطفل والأرنب الأبيض من التجارب المعروفة فى ميدان الأفعال المنعكسة الشرطية . (المترجم)

« الغرائز » . و ينادون فيها برأى يتلخص فى أن الطفل يولد مزوداً باستعدادات فطرية تجعله يستجيب لأشياء ليست له بها خبرة سابقة ، فهو ينتبه إليها ، و يسلك حيالها سلوكا خاصا ، كما أنه ينفعل أثناء ذلك بصورة معينة . و يمكن أن نقتبس لذلك مثال الطفل الذى يسمع صوتاً مرتفعاً لأول مرة فى حياته ، فهو بمجرد أن يطرق سمعه مثل ذلك الصوت يأتى بحركات تدل على الخوف ، ثم يصرخ فزعاً (و يختلف صراخه هذا عن الصيحات الأخرى التى تصدر عنه فى ظروف مختلفة) . ونحن نعتقد أنه ينتابه فى نفس الوقت انفعال خاص نطلق عليه اسم « الخوف » . فالطفل قد تهيأ لهذا النوع من الخبرة لأنه مخلوق بشرى ورث عن أسلافه هذا التركيب الذى بدأ ظهوره فيهم فى الماضى البعيد ، عندما كان « سلوك الخوف » يفضى إلى إنقاذ حياتهم عند سماع الأصوات المرتفعة فى مناسبات مختلفة . فاستعداد الطفل للسلوك بهذه الصورة يعتبر جزءاً من التكوين البشرى الموروث .

و يمكن إجمال ذلك فى القول بأن الطفل يكون عند مولده مجموعة مؤلفة من التركيبات التى يستطيع كل منها أن يؤدى وظيفته فى مواقف معينة ، وهى متسقة بعضها ببعض بشكل خاص ينتج عنه كائن حى قادر على الحياة فى العالم على صورة طفل . و بمرور الزمن ينال التعديل هذه التركيبات من حيث تكوينها وعلاقة بعضها ببعض حتي ينشأ عن ذلك فى النهاية هذا الكائن المعقد الذى نعرف فيه الفرد الناضج .

و يستطيع الطفل الصغير فى بدء حياته أن يستجيب لعدد محدود من المثيرات . فهو يستجيب للثدى بشكل يجعل فى مقدوره أن يمتص منه غذاءه ، و يحفظ بذلك حياته . كذلك يستجيب للمواقف التى تسبب الخوف بصراخ مرتفع يدعو به أبو يه إلى إغاثته ، و يستجيب للملاطفة والتدليل بصيحات رقيقة تنم على الرضى

والاستحسان ، ويستجيب للألم والمضايقات البدنية بصياح يدفع الوالدين إلى العناية بأمره ، وهكذا .

تلك كلها أمور هامة صادقة تلائم الطفل . فنحن لا يمكن أن ننتظر منه مثلا أن يبدى حماساً لرؤية العلم الوطنى ، أو أن ينتشى عند سماع الموسيقى الرائعة ، لأن تلك أشياء لا يجوز لنا أن نتوقعها إلا ممن قد بلغ نموهم شأوا بعيدا .

ولنلق الآن نظرة على أم الطفل كما تبدو فى نظره . إنه يهتم بها منذ أول لحظات حياته لأنها مصدر غذائه . وهى الشخص الذى يسرع دوما إلى مساعدته عندما يكون خائفاً أو متضايقاً . فهو لذلك يربطها بمثل هذه المناسبات وتلك الأحاسيس ، كما أنها ترتبط فى ذهنه بمواقف الحب البسيط عندما تمنحه من ملاطفاتها ما يستجيب إليه بصورة بدائية ساذجة . لذلك يكون أمامنا فى هذه المرحلة المبكرة من حياة الطفل عدد من « الغرائز » (بمعناها الذى أوضحناه) تتجه كلها نحو شخص متميز عن سائر ما فى العالم الخارجى من أشياء مما تكون قد اتجهت نحوه من قبل . والرأى الذى ينادى به « مكدوجال » هنا يتلخص فى أن الغرائز البسيطة تنتظم فى مجموعات تتمركز كل منها حول شىء واحد تتخذ منه محوراً لنشاطها . وبذلك يصبح السلوك حيال ذلك الشىء هو نتيجة عدد من صور السلوك الأولية . وينتج عن ذلك انفعالات جديدة مركبة من عدد من الانفعالات البسيطة .

فنمو الفرد ، وفقاً لهذه النظرة ، هو تكوين عدد من العواطف السليمة تحت قيادة واحدة . ويعتبر الفرد كامل النمو إذا استطاع أن يستجيب استجابة ملائمة لشتى المواقف فى العالم الخارجى . وما دام الفرد وحدة كان بين هذه الاستجابات جميعاً تناسق وتوافق ، بحيث يحمل كل منها طابع « الذات » للشخص الذى تصدر عنه .

ومن ذلك نستطيع أن ندرك مدى الضرر فى أحلام اليقظة ، أو نفعها ، بالنسبة للأطفال إذا ما بحثنا فى الدور الذى تلعبه تلك الأحلام فى نموهم . أهى تساعد على ذلك النمو ، وتعين على تقدمه ، أم أنها تعوقه وتؤخره ؟ وهل هى تساهم فى تكوين

العواطف الطيبة ؟ إن لعب الطفل وأحلام يقظته التى يعبر عنها سلوكه إزاء رفقاء خيالة حافلة بالدلائل التى تنم على الاتجاه الذى يتخذه الطفل نحو ذاته ، ونحو الأطفال الآخرين ، ونحو سائر الأشياء التى يستخدمها كأدوات للعبه . وللعواطف التى تتمركز حول الذات أو الغير أو الأشياء المادية أهمية كبرى فى حياة الفرد . فهل يكوّن الطفل أثناء لعبه عواطف سليمة ؟ وهل لرفقاء خياله أثر فى تقدم نموه أو تأخره ؟ .

قد لا تكون هناك إجابة واحدة شاملة عن تلك الأسئلة . فقد قلنا إن الطفل يهجر رفيق خياله عندما يستنفد غرضه منه ، أى عندما يكون قد تقدم فى النمو بحيث أصبح فى غير حاجة إلى رفيق الخيال . وهذا يعنى أنه قد اكتشف ما يفضل ذلك الرفيق ، وهذا لن يكون إلا شخصاً حقيقياً . ولذلك فإن نمو الطفل من ناحية تكوين العواطف الطيبة يتوقف على نوع الشخص الحقيقى الذى يحله محل الرفيق الخيالى . فإذا كان الطفل الذى يتطلب من رفيق خياله كل الانتباه والإعجاب قد أصبح يجد بعد ذلك إشباعاً فى شخص حقيقى يعجب به (أى بالطفل) ويخضع له ، فإنه يكون عندئذ سائراً نحو التكيف السليم للحياة الواقعية ، غير أنه يكون قد أضعف من استعداده للملاءمة بين نفسه و بين زملائه الأطفال الذين يتطلبون منه أن يؤدى بالفعل عملا يستحق الإعجاب قبل أن يمنحوه إعجابهم .

فالطفلة الصغيرة التي تحيط نفسها بعرائسها ، بدلا من أن تلعب بها ، قد لجأت إلى ممتلكاتها المادية سعياً وراء الإشباع الداخلى . فهى إذن مادية ، بمعنى أنها أصبحت تعلق أهمية على أشياء ليست لها فى ذاتها أهمية تذكر ، فنمّت بذلك عاطفة خاطئة نحو الممتلكات والثروة ، كما نمت اتجاها خاطئاً نحو الناس ، فهى تنزع إلى الابتعاد عنهم بدلا من تكييف نفسها لهم ، وهى تتحول إلى ممتلكاتها على اعتبار أنها أكثر منهم إشباعاً لرغباتها .

ويوحى سلوكها في الوقت نفسه بنوع المساعدة التى يستطيع الكبار أن يقدموها

لها ، فهى كما ذكرنا تطلب منهم أن يلعبوا معها ، غير أنهم لا يستجيبون لرجائها بل يصدُّونها عنهم ، فتلجأ إلى رفيقة خيالها و إلى دُماها . وهى لا تلعب مع رفيقة الخيال بل تكتفى بأن تعرض عليها ما تملك من لُعب وعرائس . و بذلك تكون كل فاعليتها منصبة على عرض ما تملكه ، وابتداع تعليقات الإطراء وعبارات الثناء على لسان رفيقة الخيال . و ينبغى أن ندرك من ذلك أن فكرة الطفلة عن طرق اللعب فكرة ضعيفة نافهة . ولذلك يحسن بأحد الكبار أن يلعب معها ، وأن يكتشف لها ضرو باً شتى من استخدام الدمى المختلفة فى اللعب ، فإن الطفلة بمجرد أن تدرك أن الدمى ما صنعت إلا لتلعب بها ، لا لتمتلكها فحسب ، وأن رفيقة الخيال يجب أن تساهم أيضاً فى اللعب ، فإنها تكون عندئذ قد قطعت شوطاً لا بأس به فى تكييف نفسها لبيئتها .

و يشير استبدال المواقف الواقعية بمواقف اللعب ، و إحلال الأطفال الحقيقيين محل رفقاء الخيال ، إلى نوع من استخدام الرموز . و إن كنا لا نستعمل لفظ « الرمز » هنا فى المعنى الفنى الدقيق الذى يقصره عليه الدكتور (إرنست جونز) وغيره من علماء التحليل النفسى ، كما أننا لا نستعمله فى معناه العام الشائع فى لغة الكلام العادية . ولقد أكد الكثيرون أن أحلام اليقظة وما يتصل بها من صور الفاعلية تعتبر هرباً من الحياة . غير أن قليلا منهم من عنى بإيضاح ماهية هذا الهرب وطبيعته . ومن الواضح أنه ليس مجرد مخرج للنزعات الغريزية إلا فى حالات نادرة تسكن فيها جميع أنواع الفاعلية ، فيبدو الفرد كما لو كان ميتاً . كذلك لا نستطيع الاعتقاد بأن أحلام اليقظة ليست أكثر من بديل تلقائى للنشاط الذى يراد تجنّبه ، كما يحدث مثلا عندما يدعى أحد الأشخاص ارتباطه بموعد ما بغية التخلص من موعد آخر كان قد انتوى الذهاب إليه . ولو كان حلم اليقظة بديلا فعلا لوجب علينا أن نبحث فى ثناياه وتطوراته عن كل ما يحاول صاحبه أن يتحاشاه . وحتى فى حالات « الهرب » يجب أن نبحث فيما إذا كان

التخلص أمراً دائماً ثابتاً مقرراً من قبل ، أم أنه نوع من التراجع الذى يسبق الوثبة الحاذقة . ولو وافقنا على احتمال وجود نوع من الصلة بين الموقف الذى يظهر فى الحلم ، والموقف الذى يجد الحالم نفسه فيه عند محاولته الهرب ، فإننا نستطيع أن نرى فى ذلك ما يشبه موقف التلميذ الذى يظل قابعاً فى مقعده ، يعبث بقلمه على قطعة من الورق أمامه ، مكتفياً بمجرد التفكير والتأمل فى مشاكل الحياة ، بدلا من أن يهتم إيجابياً بما يحيط به من أشياء واقعية ، أى بدلا من أن يقف موقفاً عملياً من الظروف المحسوسة التى تتطلب منه الملاحظة والعمل . فهل يمكننا إذن أن نعتبر أن بعض ضروب اللعب ، و بعض صور حلم اليقظة ، تشبه نوعاً من مسائل الجبر من حيث أننا نعوض فيها عن الموقف الحقيقى أو بعض عناصره برفقاء خيال أو دمى أو مواقف اللعب ؟

يبدو أن بعض نتائج تطبيق العلاج النفسى الحديث على الأطفال تؤيد هذا الرأى[1] . فالطفل فى العيادة السيكلوجية يكون حراً فى اختيار أدوات لعبه مما يكون مكدساً على الرفوف التى أمامه ، فيتناول منها ما يريد ، و يبتدع صوراً من اللعب لا يتطرق الشك إلى أنها ترمز إلى الموقف الذى يسبب له القلق . كذلك يتغير اللعب وفقاً لتطورات هذا الموقف .

و يبسط (فردريك ألن) فى مؤلفه القيم « الطب النفسى للأطفال » عدداً من تجاربه التى أجراها على الأطفال ، وهى جميعاً تؤيد هذا التفسير . ومن ذلك مثلا أن طفلا كان يخشى مقابلة المعالج ، فكان يشغل وقته باللعب بجنود خشبية . وقد دلت التطورات التى طرأت على هذه اللعبة الحربية فى مناسبات متعاقبة على درجة إدراك الطفل للعلاقة القائمة بينه و بين المعالج ، إذ كان الطفل يغير من وقت لآخر الأدوات التى يلعب بها . فقد بدأ لعبته بالجنود ، ثم استبدل بالجنود تفاحة

---

(1) See : Frederic H. Allen, M. D, Director of the Philadelphia Child Guidance Clinic : " Psychotherapy with Children " . (London : Kegan Paul : 1947).

(كان يرى فى لونيهـا الأحمر والأصفر نزعته العدوانية وشعوره بالخوف) ، ثم استخدم بعد ذلك مطرقة وبعض المسامير ، ثم نوعاً من الطلاء . ويوافق الدكتور (ألن) على أن هذا التغيير فى المادة التى يعبّر بها الطفل عن نفسه فى لعبه ينم على أن الطفل كان يتقدم حثيثاً نحو درجة من تحقيق الذات أكمل من سابقتها [١] .

ويعلق « مكدوجل » أهمية كبرى على نمو عاطفـة اعتبار الذات [٢] ، « فالذات » التى يحس الفرد وجودها فى نفسـه ، و « الذات » التى يدركها هو وغيره من الناس إدراكاً موضـوعياً ، ينبغى أن تنطبق كل منهما على الأخرى . غير أن الملاحظ بالتجربة أننا لو أعطينا جميع أفراد إحدى الفرق قائمة بأسماء طلبة الفرقة ، وسألنا كلا منهم أن يدوّن ما يراه من تقدير لجميع من وردت أسماؤهم فى القائمة ، فإننا كثيراً ما نجد أن الطلبة إما أن يغفلوا أنفسهم إطلاقاً ، وإما أن يتسـاءلوا عما إذا كان مطلوباً منهم أيضاً أن يضعوا تقديراً لأنفسهم كذلك . وإذا ما أجيبوا على تساؤلهم بالإيجاب فإن بعضهم يعترض على ذلك بقوله : « ولـكن ليس من الممـكن أن يقدر المرء نفسه بنفس الدقة التى يستطيع بها أن يقدر غيره » . وقد حدث فى مجموعتين تتـكون الأولى منهما من ثلاثة وعشرين طالباً ، والثانية من عدد مماثل من الطالبات ، أن طلب من كل منهم وضع تقـدير لأفراد مجموعته من حيث القدرة على الزعامة . وعند فحص النتائج تبين أن عدد من وضعوا لأنفسهم تقديراً يقارب تقدير المجموعة لهم لا يزيد على ثلاثة فى كل مجموعة ، على حين اختلفت تقديرات البـاقين لأنفسهم عن تقديرات المجموعة اختلافاً كبيراً [٣] . ويبدو أن كثيراً من الناس يشقون

---

(١) المرجع السابق ص ١٦٣ ، والفصل الخامس منه .

(2) Self - regarding Sentiment.

(٣) من بحث للمؤلف نشره فى « مجلة علم نفس الشواذ » Journal of Abnormal Psychology فى يناير ١٩٤٨ .

طريقهم فى الحياة وهم يشعرون بأن نظرة الناس إليهم تختلف عن نظرتهم إلى أنفسهم ، غير أنهم كثيراً ما يألفون ذلك ، ويفسرونه على أساس اعتقادهم بأنهم لم تتهيأ لهم بعد الفرصة التى تعينهم على الظهور أمام الناس فى صورتهم الحقيقية ، فيكون اللوم إذن واقعاً على الظروف والأقدار. وهناك غير أولئك من يحاول جهده أن يتجنب الحياة الواقعية وما تحفل به من مواقف تؤدى حتماً إلى ظهورهم فى صورة تكشف عن ذات أقل مرتبة من تقديرهم لأنفسهم ، فيعتصمون بحلم اليقظة حيث يحيون فى عالم ملىء بالمواقف التى يتسنى فيها للذات « الحقيقية » التى اتخذت من الخيال لبوسا لها أن تبدو فى صورة رائعة سامية .

ويبدو أن لعب الأطفال — كما فسرناه فى الفصل السابق — يحتل مركزاً وسطاً بين هذين الطرفين . ولنأخذ مثالا يوضح ذلك لعب الطفل الذى اتخذ لنفسه رفيقة خيالية أسماها (مارى) . كان ذلك الصبى فى أحد الأيام فى الحديقة يراقب أمه وهى تجمع بعض التوت فى وعاء صغير معها . وبعد برهة وجيزة قال لها : « أم مارى تجمع التوت فى دلو ! ! » ، فقالت أمه وهى تقدم له بعض التوت : « أحقاً هى تفعل ذلك ؟ » . أخذ الولد التوت وقال قبل أن يأكله : « أم مارى تعطى ابنتها الدلو كله دائماً » .

من الجلى أن ذلك اللعب اللفظى من النوع العدوانى . فالصبى يقلل من قدر أمه وأهميتها وكرمها عن طريق مقارنتها بما لأم مارى من تلك الصفات . والمنظر الخيالى بما فيه تلك الأم التى تجمع كميات كبيرة من التوت فى دلو كبير ، والتى تدفعها شدة كرمها إلى أن تعطى ابنتها الدلو الممتلىء لتأكل منه ما تشاء ، كل ذلك يهدف إلى إفهام الأم الحقيقية أنها ليست ممن يشبعون رغبات الإنسان ، فهى لا تمتلك إلا القليل ، ولا تعطى إلا النزر اليسير . غير أن هناك قلقاً أشد عمقاً من ذلك ، فإن تقدم الطفل فى النمو يجعل العالم فى نظره أصغر مما كان ، كما أن رغبته فى أن تكون أمه وسائر الأشياء التى يريدها كبيرة توحى بأنه يبغض أن

يصبح هو كبيراً . فهو يخشى ذلك العالم الذى يجد فيه أن أولئك الذين كان يعتمد عليهم فى الحصول على أمنه وراحته قد تضاءل حجمهم ، وقل ميلهم إلى السماح له بأن يفعل كل ما يشاء . ولذلك فإن لعبه يعبر عن رغبة فى استمرار تواكله ، ودوام أمنه .

كذلك يظهر نقده لأمه فى مناسبة أخرى حدثت فى نفس تلك الفترة تقريباً ، فقد أبصر أمه يوماً تعد الطعام ، فدار بينهما الحديث التالى :

— ماذا تصنعين ؟

— كعكة .

— وما هذا الذى بداخلها ؟

— زبيب أحمر

وهنا قال الطفل فى بطء وتأكيد : — أم مارى صنعت كعكة كبيرة أول أمس .

— أكبر من هذه ؟

— أكبر كثيراً . . وقد وضعت فيها برقوقاً .

هذه الإجابات صدرت عفو الخاطر ، إذ لم يكن من المحتمل أنه كان يفكر فيها من قبل ، غير أنها مع ذلك لا تكشف عن اتجاه مؤقت عابر ، بل عن اتجاه مكين ثابت أمكن التعبير عنه بواسطة أشياء اتخذ منها الطفل وسائل ملائمة لذلك . فنجد فى كلتا المناسبتين نفس النقد للأم ، ونفس الإشارة إلى أنها أقل مرتبة من الأم الخيالية مما يمكن تلخيصه بالصورة الآتية :

وعاء صغير : دلو — فطيرة صغيرة : فطيرة كبيرة .

زبيب أحمر : برقوق — أمى : أم مارى .

كذلك نجد إشارة إلى تخلى أمه عن إجابة مطالبه ومنحه أقل مما يريد ، وإلى أن الأشياء التى يراها فى عالمه الحقيقى كانت دون ما يتخيله من أشياء ، وهذا يدل

إلى حد كبير على أن الولد قد بدأ يحس بأن عالم طفولته الحافل بالتوا كل الممتع والأمن الموصول قد بدأ يفلت منه . ومع ذلك نلاحظ فى بعض ضروب لعبه بالقُطر أن رفيقة خياله كانت تشاطره إياها ، وذلك عندما كان يبدى رغبة قوية فى قيادة القطر ، وتنظيم خطوط سيرها ، والسيطرة عليها ، والتحكم فى حركاتها . كذلك كان كثيراً ما يطلب مساعدة (مارى) فى أدوار الحلم الأولى لدرجة أنها تحولت من طفلة صغيرة إلى أخرى كبيرة قوية . ثم أصبح دورها بعد ذلك غامضا ، إذ لم يكن يزيد على « اللعب معه » ، ومشاهدة ما يطلب منها أن تشاهده ، و إبداء الاعجاب به وقتما يريد ذلك . وهنا نرى كيف أن الصبى على الرغم من أسفه على ترك مرحلة التوا كل قد بدأ يسير نحو مرحلة الاستقلال والاعتماد على النفس .

و يتمثل ما ذكرناه عن استخدام الطفل لأدوات لعبه بشكل رمزى فى القصة التى أوردها فرويد عن لعب طفل صغير كانت أمه تضطر إلى فراقه كل يوم بعد أن تودعه وداعاً مؤلماً . وعندما تعود إليه فى آخر النهار يكون اللقاء بينهما حاراً [1] . فكان الطفل أثناء غياب أمه يلعب ببكرة خشبية ربطت فيها فتلة من خيط القطن . يدفع الطفل البكرة تحت إحدى قطع الأثاث حتى تختفى عن نظره و يقول : « لقد ذهبت ! لقد ذهبت ! » ، ثم يجذب الخيط لتظهر البكرة مرة أخرى ، فيرحب بظهورها ترحيباً مشوباً بانفعال السرور الشديد .

وقد اعتبر فرويد أن لعبة الطفل هذه مسرحية يمثل فيها اختفاء الأم ثم ظهورها . والحقيقة أننا لا نستطيع أن نجد لها تفسيراً آخر ، إذ من الواضح أن الطفل قد اتخذ من البكرة شيئاً يمثل به الأم .

إن ما ذكرناه يكفى لتوضيح ما نرمى إليه . فلعب الطفل يكشف عن إدراكه لعجزه عن الحصول على ذلك اللقاء العاطفى بينه و بين أمه إلا بعد الافتراق عنها ،

---

(1) S. Freud : "Beyond the Pleasure Principle": - No.4' International Psychoanalytical Library (London : The Hogarth Press and the Institute of Psychoanalysis.)

ولذلك فإنه أصبح يميل إلى تمثيل ذلك الفراق ، فيحصل من وراء هذا اللعب الإيهامى على انفعال الحزن المرتبط به ، كى يستطيع بعد ذلك أن يسعد بنعيم اللقاء ، فهو يعبر فى وقت واحد عن رغبة فى لقاء أمه ، واشتهاء للتحكم فى الموقف بنفسه ، وهذا الاشتهاء ليس إلا تعبيراً عن حلم القدرة المطلقة .

ما الذى يؤدى إليه كل ذلك إذا ما تقدم الطفل فى النمو ؟ إنه قد يفهم الحياة على أنها شىء يضم من الخبرات ماهو سار وماهو مؤلم ، وأن هذه الخبرات يختلف بعضها عن بعض فى درجة الأهمية ، وأنه على الرغم من عدم استطاعته السيطرة التامة عليها فإن فى وسعه أن يفعل شيئاً ما ، وأن يسيطر على نفسه على الأقل نتيجة لازدياد معرفته . وقد ينمو عنده كذلك اعتقاد بأن هذه الخبرات المؤلمة لابد أن تفضى إلى نتائج سارة ، وأنها لذلك ينبغى أن تقابل بالترحاب — إذ لا لقاء إلا بعد فراق . وتشير قصص (إدجار ألان پو) إلى أن هذا الكاتب ظل طيلة حياته متأثراً باهتمامه بالموت ، لأن الموت مقدمة للحياة السعيدة الخالدة . وقد حدا مثل هـذا الاعتقاد بـكثير من الـكتاب إلى تمجيد الألم من حيث أنه تمهيد لمسرات أعظم وأبقى .

وقد حدث موقف مماثل فى حياة طفلة سعيدة انقلبت تعسه عقب مولد شقيقة لها لأنها اعتقدت أنها قد اغتصبت منها مكانتها عند أمها ، فأصبحت تشعر بأن أمها باتت غير مستطيعة حمايتها من غيرة أخيها الأكبر واعتدائه عليها . وقد حدث مصادفة أن أفزع البنت كلب ضخم ، فندت عنها صرخات قد امتزج فيها الرعب بالألم ، مما دفع أمها إلى ترك وليدها والإسراع لنجدتها . وعندما ألفت نفسها بين ذراعى أمها التى أخذت تهدىء من روعها عاودتها طمأنينتها ، وأحست أنها قد عادت إلى احتلال مركزها المغتصب . كذلك حاول شـقيقها أن يخفف عنها بأن دعاها إلى أن تشاركه اللعب . و بذلك كان الفزع من الكلب مصدر إشباع عاجل لـكثير من رغباتها . و بعد ذلك بمـدة قصيرة كانت البنت ترى فى نومها رؤى

مزعجة يظهر لها فيها كلب أسود يخيفها . ولذلك لا يسعنا إلا أن نفترض أن الكلب قد ارتبط بإشباع الرغبات الملحة ارتباط السبب بالنتيجة . و يضاف إلى ذلك أن الطفلة بدأت تتوقع وجود الكلاب السوداء فى كل مكان ، فكانت لا تجرؤ على الابتعاد عن الحديقة إلا بعد أن تتأكد من خلو الطريق منها . فكل من اللعب فى المثال الذى ذكره فرويد ، والرؤى والسلوك فى المثال الثانى توحى بأن إحدى الخبرات ، أو مجموعة منها ، قد أوحت إلى الطفل بأن الحياة تسير وفق نمط معين بسيط يمكن صبه في قالب تمثيلى بواسطة أشياء بسيطة ، كما يمكن تصويره فى اللعب ، و إدخال التغيير والتعديل عليه .

ونلمس فى هذين المثالين دليلا على وجود عدد من المعتقدات والانفعالات اتخذت من الأم مركزاً تدور حوله . فالصبى شديد الاشتهاء لحب أمه ، وهو يتخذ من الموقف الذى يجد نفسه فيه وما يكتنفه من ظروف موضوعاً للتمثيل . والبنت أيضاً تنشد الأمن الذى يتهيأ لها عندما تكون موضع رعاية الأم ومحط اهتمامها ، وهى كذلك تصوغ الموقف وظروفه فى قالب تمثيلى . فنجد فى الحالة الأولى أن الأفكار عن الأم تتضمن أفكاراً عن الفراق والأسى ثم اللقاء والسرور . وفى الحالة الثانية نراها تتضمن أفكاراً عن الخوف والأمن . ونلحظ فى كليهما علاقة اللعب والأحلام وأنواع النشاط الأخرى المشابهة لها بنمو عاطفة تكون الأم مركزها . وقد ذكر (مكدوجل) أن للعناصر التى تكوّن العاطفة دلالة وجدانية تربطها بعضها ببعض ، وتضفى على العاطفة ذاتها لونا من القوة والتماسك .

ولن يدهشنا أن نجد فى المادة التى بسطناها ارتباطاً قوياً بعاطفة الأم عند الطفل ، فقد اقتبسناها من أحلام اليقظة واللعب عند أطفال فى حوالى سن الثالثة كانوا فى مرحلة الانتقال من الطفولة إلى الصبا ، أى كانوا قد اقتربوا من تلك المرحلة التى يستطيعون فيها الاعتماد على أنفسهم فى بذل المجهود ، وهى مرحلة تقل فيها حاجتهم إلى العطف والرعاية مما يحتاج إليه صغار الأطفال . فهم قد أصبحوا

شاعرين بأنفسهم ، وأخذوا يتعلمون العناية بأمورهم . وكثيرون منهم لا يكونون واثقين تماماً بأنفسهم ، مما يجعلهم يترددون فى هجر طفولتهم دون أن تعلق أبصارهم ولو إلى حين بتلك الفترة التى كان يتم فيها قضاء حاجاتهم بواسطة آبائهم القادرين على كل شىء ، العالمين بكل شىء . غير أن الخبرة قد تعلمهم الارتياب فى تلك القدرة المطلقة ، والشك فى ذلك العلم الشامل ، كما توحى إليهم بأن الأبوين أصبحا لا يرغبان فى أداء شىء لهم ، وأنهما باتا ينتظران منهم أن يؤدوا أعمالهم بأنفسهم .

وهكذا يقف الطفل على أعتاب هذه المرحلة كما يقف المسافر الخائف الذى يضع قدما على سلّم السفينة على حين تظل قدمه الأخرى لاصقة بالأرض التى يخشى أن يغادرها . ولو قمنا بدراسة عواطف كبار الأطفال والراشدين ، وعلى الأخص ما يتصل منها بالبيت والأبوين ، لوجدنا أن ما يقع فى تلك المرحلة من حوادث ومخاوف ، وما يظهر فيها من رغبات ، يلعب دوراً كبيراً فى تكوين هذه العواطف . كذلك يدل البحث فى مكنونات اللاشعور على أن العقد المكبوتة المتعلقة بالبيت والأبوين ترجع نشأتها إلى مثل تلك المصادر . غير أننا لا نملك سجلات عن نمو السوىّ من الأطفال نستدل منها على مدى ما تلعبه أحلام اليقظة وأنواع اللعب الإنشائى عند الأطفال فى نمو العواطف السليمة واتزان الشخصية ولا شك فى أن مثل تلك السجلات على أكبر جانب من الأهمية ، ويحتاج جمعها إلى وقت طويل ، لأنها تتطلب فترات غير قصيرة من ملاحظة نمو كل طفل على حدة . وقد يكون فى الإمكان أن تتيسر لنا مثل هذه السجلات فى وقت قريب .

الفصل الخامس

حلم اليقظة والجماعة

من الممكن أن نقسم أحلام اليقظة عند الأطفال الذين بلغوا سناً يستطيعون فيها أن يقصوا أحلام يقظتهم بالكلام أو الكتابة إلى أربعة أنواع ، وذلك على أساس « المضمون الظاهر »[1] لتلك الأحلام ، أى على أساس عناصرها السافرة التى يكمن وراءها المدلول الحقيقى . وبذلك نستطيع تصنيف مئات الأحلام التى أمكن جمعها من تلاميذ الفرق العليا والدنيا بالمدارس الثانوية والابتدائية ، إلى ما يأتى :

١ — حلم المباهاة[2] : وفيه يأتى الحالم عملا من الأعمال التى لا يكون فى استطاعته عادة القيام بها فى حياته الواقعية ، فيكتسب به الإعجاب والاستحسان .

٢ — حلم الإنقاذ[3] : وفيه يقوم الحالم بعمل يغلب أن يكون فوق مقدوره ، ينقذ به حياة أحد الأشخاص (من الجنس الآخر فى الغالب) ، فينال بذلك محبته ، ويكتسب اعتراف أبويه بالجميل ، وإكبار المشاهدين . ومما يجدر بالذكر أن الفتاة التى ينقذ صاحب الحلم حياتها تكون فى معظم الأحيان ذات

---

(1) Manifest Content.

(2) Fantasy of Display.

(٣) Saving Fantasy وقد ناقش الدكتور إرنست جونز بالتفصيل العوامل اللاشعورية المتضمنة فى هذا النوع من أحلام اليقظة ، وعلاقته بعقدة أوديب فى مقال بعنوان « حلم منسى » ، نشر فى مجلة « علم نفس الشواذ » فى إبريل ١٩٢٢ . وقد أورده فى الطبعة الثالثة من كتابه : « مقالات فى التحليل النفسى » (الناشر : بالبير وترندال وكوكس — لندن ١٩٢٣) .

مركز إجتماعى أسمى من مركز منقذها ، غير أن ذلك لا يغير من شعورها نحوه . ويمكن النظر إلى عدد كبير من أحلام المباهاة ، مثل أحلام القنص و إصابة المرمى فى مباريات كرة القدم ، على أنها « أحلام إنقاذ » ، وذلك عندما يؤكد الحالم أن إصاباته للمرمى قد « أنقذت فريقه » من الهزيمة .

٣ — حلم العظمة[١] : وهنا يشغل الحالم مركزاً ممتازاً كمركز إحدى الشخصيات الملكية أو الأبطال . ومن الشخصيات المألوفة فى هذا النوع من أحلام اليقظة عند أطفال المدارس شخصية ملكة الجنيات ، أو زعيم عصابة من اللصوص ، أو « شخص شهير يعرفه العالم أجمع » ، أو بطل عالمى فى الملاكمة .

٤ — حلم الولاء[٢] : وفيه يؤدى الحالم صنيعاً لشخص يعجب به ، يحتل عادة منصباً أرقى من منصبه فيحصل من وراء ذلك على محبته ، وتفضيله إياه . وقد يكون ذلك الرئيس من الجنس الآخر . ولكن يبدو لى أنه يغلب أن يكون من نفس الجنس ، وخصوصاً فى أحلام تلاميذ المدارس . ويظهر أن ذلك من الأمور المألوفة للصغيرات المراهقات اللائى تراودهن كثيراً فى أحلامهن صورة إحدى مدرساتهن .

وفى كثير من أحلام اليقظة هذه إشارة صريحة إلى جماعة من الناس ، فهى لذلك تختلف عن حلم اليقظة أو اللعب الذى يتضمن وجود رفيق خيال واحد ، وغالباً ما تكون وظيفة الجماعة وعلاقتها بالحالم هى الإعجاب بفعاله الجريئة ، أو الاعتراف بعظمته وسلطانه .

وقد ذكر (مكدوجل) فى معرض حديثه عن الغريزة الاجتماعية[٣] ، أن تلك الغريزة تنشط فى حالات كثيرة يصعب فيها أن نعثر على أثر للتعاطف[٤] ،

---

(1) Fantasy of Grandeur.
(2) Fantasy of Homage.
(3) Gregarious Instinct.
(4) Sympathy.

أو ما اعتدنا أن نطلق عليه اسم « الغيرية » . فالغريزة الاجتماعية بهذا المعنى تظهر عند الحيوانات ، لأنها بسبب عجزها عن الدفاع عن نفسها منفردة ضد عدوها تتكتّل فى جماعات كى تستطيع أن تدرأ الخطر الذى يهدد أحدها أو جميعها ، غير أنها بمجرد زوال هذا الخطر تنفصل ، وينطلق كل منها فى سبيله .

وكثير من أحلام اليقظة — وخصوصاً عند الأولاد — تدور حول البحث عن شىء ، أو حول مغامرة تشترك فيها الجماعة ، ويكون الحالم فيها هو الزعيم . وقد تكون الجماعة التى تطيعه وتخضع لقيادته فرقة موسيقية ، أو عصابة لصوص ، أو فريقاً رياضياً ، أو فرقة من التلاميذ ، أو جيشاً ، أو أمة[1] فى بعض الأحيان . غير أن هناك فرقاً كبيراً بين حلم اليقظة الذى يكون الحالم فيه هو الشخص الوحيد الذى يدبّر الخطط ، ويصدر القرارات ، ويلقى الأوامر ، ويصر على الطاعة العمياء من أتباعه ، وبين حلم اليقظة الذى يظهر فيه على صورة فرد فى جماعة من الأقران ، فيتعاون مع غيره فى أمور يشتركون جميعاً فى تدبيرها على قدم المساواة . فالجماعة فى الحالة الأولى ليست أكثر من صورة مكررة للذات ، لأن الحالم فيها إنما يقوم بصب الثناء والإطراء والإعجاب على نفسه مرات مضاعفة .

ولا يميل صغار الأطفال أثناء لعبهم مع غيرهم إلى تكوين فرق متنافسة ، كما أنهم لا يحبون التقيد بالقواعد المألوفة ، بل يفضلون وضع القواعد لأنفسهم ، ثم يدخلون عليها من التغيير والتبديل ما يعتقدون أنه يكسبهم بعض المزايا والمغانم . فما ينشدونه من وراء اللعب إنما هو الإشباع المحدود « الأنانى » . أما ألعاب الكبار من الأطفال ، ممن تجاوزوا العاشرة عموما ، فتختلف عن ذلك ، إذ نجد فى مبارياتهم فرقاً ينافس بعضها بعضا . كما نسمع أفراد الفريق يتكلمون بصيغة الجمع فيقولون « نحن » ولا يقولون « أنا » ، وهذا يوحى بأن لهم غرضاً

---

(١) انظر الحالة الخامسة فى الفصل الثانى من كتاب « التحليل النفسى فى حجرة الدراسة » . للمؤلف . الترجمة العربية تحت الطبع . (المترجم)

مشتركا ، ومع ذلك يظل هناك فى مثل هذا النوع من اللعب مجال لقدر من الإشباع الأنانى الذى يتم عندما يتقن أحدهم اللعب ، أو يلعب من أجل فريقه بشكل يستدر إعجاب زملائه . غير أن النصر النهائى للفريق لا يتحقق عن طريق لعب فرد من الأفراد وحده ، وإنما عن طريق المجهود المشترك الذى يقوم به الجميع متعاونين .

ولكن حلم اليقظة سواء أكان من نوع أحلام المباهاة أو العظمة أو الولاء أو الإنقاذ لا يظهر صاحبه فى صورة عضو فى فريق ، فهو لا يتعاون مع الأفراد الآخرين الذين يظهرون فى الحلم ، ولا يعمل إلا من أجل غاياته الشخصية ، وإشباع رغباته الفردية .

والفكرة المركزية فى هذه الأحلام الأنانية هى نفس الفكرة المحورية فى المؤلفات الأدبية التى يتعشقها أصحابها . ومن أبسط صورها أقاصيص المغامرات التى تظهر فى الجرائد اليومية التى تتخاطفها أيدى تلاميذ المدارس ، كما توجد فى الكتب الرخيصة التى يصفها المحافظون من أنصار العصر القديم بأنها « مريعة » ، ويحرصون على أن يخفوا عن أبنائهم أنهم كانوا هم أنفسهم من قرائها فى صدر صباهم ، وأنهم كانوا يستمتعون بها حينئذ قدر متعة أبنائهم بها الآن . وتكون القصة « المريعة » عادة هى قصة الولد الذى يلعب دور الزعيم ، فهو فى بعض الأحيان خادم فى سفينة يتولى قيادة عدد من البحارة الذين ظلوا على ولائهم له ضد المتمردين القساة ، وهو أحياناً أخرى منبوذ لا صديق له يتزعم جماعة من رجال الحدود فى هجومهم على عصابات الهنود الحمر ، أو صبى فقير يهزم « فتوّة » المدرسة فيصبح البطل المحبوب بين زملائه . فجميع أوجه النشاط تكون من النوع المحظور فى المجتمع الذى ينتسب إليه الغلام ، مثل سفك الدماء والشجار والقتل ، ولكن ظروف القصة تكون مما يبرر تلك الأعمال . ولقد كان من أثر ظهور طرق القتل الحديثة ووسائل الانتقال ، وانتشار المخترعات العلمية ، والتربية

أن تيسرت لمؤلفى تلك القصص مادة غزيرة وفيرة لم تكن معروفة لزملائهم من قبل . غير أن الفكرة الرئيسية لم تتأثر فى جوهرها بكل ذلك . فقائد الطائرة الذى يحلق بطائرته العجيبة فى أجواز الفضاء ، والمخترع الشاب الذى يستطيع أن يجعل إحدى النفاثات تتجه إلى هدفها بشكل آلى ، قد يختلفان فى الظاهر عن الكشاف الصغير على صهوة فرسه الوحشى ، ولكنهم جميعاً ليسوا إلا الحالم أو القارىء وقد تحول فى حلم اليقظة إلى إحدى تلك الصور .

ونستطيع أن نؤكد وجود صراع عندما نلاحظ أن أحلام اليقظة التى من هذا النوع ما زالت ملازمة لأولئك الأفراد الذين وصل نموهم إلى المرحلة التى ينبغى عليهم فيها أن يتعاونوا مع غيرهم فى أداء أعمال جمعية ، فنراهم يؤدون مثل تلك الأعمال ، ولكنهم لا يشتقون منها إلا الإشباع الفردى . فالغلام الذى يشعر بأنه يساهم فى حياة الجماعة ، ويتقن الدور الذى عليه أن يلعبه ، ينبغى من الناحية النظرية أن يحصل من ذلك على نوع راق من الإشباع لا يجوز له أن ينشد غيره . غير أننا من الناحية العملية يندر أن نعثر على شخص وصل نموه إلى هذه الدرجة من الكمال ، وبخاصة بين التلاميذ أو التلميذات ، إذ نجد فى الحياة الواقعية أن استحسان ناظر المدرسة ، أو رضى رئيس الفريق ، أو إطراء الأب ، أو ثناء أحد الزملاء ممن يعتد برأيهم يعتبر من العناصر الضرورية للاشباع التام . ومن أمثلة ذلك أننا نجد فى كتاب « أيام توم براون المدرسية » أن مجرد وقوف الدكتور (أرنولد) خلف السور لمشاهدة الأولاد أثناء لعبهم يحدث أكبر الأثر فى مدى ما يبذلونه من مجهود . ومن المعروف عموماً فى المدارس والكليات أن وجود المتفرجين والمناصرين الذين يعرفون كيف يهللون ويصفقون تشجيعاً لكل لاعب بمفرده ، كما يشجعون الفريق جميعه ، له أثر كبير فى انتصار الفريق .

ويختلف الأفراد اختلافاً كثيراً من حيث مقدار نجاحهم فى اللعب مع غيرهم ، ومدى السعادة التى يشعرون بها لمساهمتهم فى نتائج مجهود مشترك . إذ يبدو أن

بعض الناس يسعون دوماً وراء الحصول على ميزة التفوق على أقرانهم ، بينما يبذل البعض الآخر كل جهده فى تجنب ذلك . ومن المعروف فى الجيش أن هناك فئة من رجاله لا تعمل إلا من أجل أوسمة الشرف وشارات الفخار ، ولا تخاطر إلا رغبة فى أن تذكر أسماؤها فى النشرات الحربية ، على حين تفزع فئة أخرى من مجرد شعورها بأنها قد أصبحت محط الأنظار ، وإذا ما ذكر عمل من أعمال البطولة أتاه نفر من أفرادها ، أو أشير إلى إقدامهم وتفانيهم فى أداء واجبهم ، نراهم يحتجون على الإشادة بذلك بقولهم: « إنهم لم يعملوا أكثر مما يعمله غيرهم » ، فكأنهم يحاولون بذلك الإسراف فى الاتجاه المضاد لاتجاه الفئة الأولى ، فإن رغبة الفرد فى أن يكون مجرد عضو فى الجماعة قد يتم التعبير عنها بالخضوع التام لتلك الجماعة . ونجد بالبحث والدراسة أن هذا الاتجاه لا يقل فى درجة الأنانية عن اتجاه السيطرة عند الرجل الذى ينشد الزعامة دوما ، ويسعى سعياً موصولا وراء التحكم فى زملائه ، والظهور عليهم . فالسيطرة والخضوع فى سيكولوجية (مكدوجل) يتساويان من حيث أنهما غريزتان من غرائز اعتبار الذات ، وترتبط كل منهما بانفعال نوعى ذاتى يكون موجباً فى الأولى وسالباً فى الثانية .

فلو نظرنا إلى سلوك بعض الأفراد فى الجماعة من زاوية معينة لرأينا فيه نوعاً من الصراع المستمر مع الجماعة نفسها ، فى حين يكون سلوك البعض الآخر استمراراً للاعتماد عليها . وكثيراً ما نسمع بعض الناس يقولون من حين لآخر : « إن الحياة فى الجيش رائعة ، لأنها خلو من المسئولية » . وهذا الاتجاه ليس عاماً ، ولكنه موجود فعلا ، وينبغى أن ندخله فى تقديرنا عندما نقوم بدراسة حياة الفرد وسط الجماعة . ولقد أصبحت هذه المسألة من أمهات المسائل الاجتماعية فى العصر الحديث ، فإن الدولة قد بدأت تتدخل فى أمور كانت من قبل متروكة لتصرف الأفراد . ويقول بعض معارضى مبدأ رقابة الدولة إن شخصية الأفراد لن يتم نضجها واتزانها ما لم يكونوا مسئولين عن سلوكهم وأعمالهم . ولو اعترفنا بصدق

هذا الرأى ، بجانب إيماننا فى الوقت نفسه بأن المهام التى تتولاها الدولة لا يمكن تركها فى يد الأفراد ، فإن ذلك سيؤدى بنا إلى التساؤل : ما النظم القائمة — أو الممكن قيامها — التى يستطاع بواسطتها تدريب الأفراد على احتمال التبعات بحيث يدرك كل منهم علاقته بالمجتمع والدولة ، و يشعر بضرورة بذل كل جهد ممكن فى سبيل الخير المشترك ، بغض النظر عن أى مغنم فردى قد يحصل عليه من وراء ذلك ؟

لا نستطيع الإطالة فى مناقشة هذا الموضوع هنا لأنه بحث اجتماعى وسياسى أكثر منه سيكولوجى . ولكن دلائل حلم اليقظة توحى بأن المشكلة التى تكمن وراءه مشكلة واقعية وليست مشكلة أكاديمية جدلية . فإن التهرب من المسئولية لا يؤدى بالفرد إلى التقدم نحو المراحل التى يستطيع فيها الاندماج فى الجماعة والانسجام معها ، و إنما يوحى بميل نحو ملازمة مرحلة مبكرة من مراحل الطفولة. فالمجتمع أو الجماعة أو الوطن مثلها فى نظر الفرد الملازم لتلك المرحلة المبكرة مثل الأم فى نظر الطفل الرضيع ، فهى التى ترضعه وتحمله وتحميه من شتى الأخطار ، ثم لا تطلب منه شيئاً مقابل كل ذلك لأنه ضعيف الحيلة ، وهذا وحده هو سر تعلقه بها .

ونجد فى أحلام اليقظة المسرفة فى الأنانية أن بعض حديثى السن يرون أنفسهم فيها فى صورة « شخص يعرفه العالم أجمع » ، غير أننا لا نعثر فى ثناياها على سبب ، ولو خيالياً ، لذلك . فهم يرون أنفسهم محط إعجاب الجماهير الحاشدة دون سبب يدعو إلى هذا الإعجاب . والموقف الوحيد الذى يشبه ذلك يحدث لكثير من الناس فى وقت مبكر من حياتهم ، وذلك عند ما يعرض الأبوان صغارهما على أنظار حشد من الزائرين والأقارب الذين يجعلونهم مركز انتباههم ، وموضع تعليقاتهم التى تنبىء عن الإعجاب . و يبدو إذن أن حلم اليقظة الذى من هذا النوع يدل على أن جانباً من الحالم على الأقل قد تعلق بطفولته ، وأن هذا

الجانب لم يجد إشباعاً فى نشاط الجماعة ، فبحث عنه فى خياله . وعندما تتقدم السن بمثل هـذا الشخص ، وتطوف بذهنه فـكرة الزواج ، فإنه يتطلب أن يكون محبوباً لا من أجل مركزه أو مزاياه أو نجاحه أو مستقبله ، بل من أجل « ذاته وحدها » . وتلك هى الفـكرة المركزية فى كثير من قصص المغامرات العاطفية التى يدل ذيوعها على أن القراء عامة يطلبون كل ما هو مصطبغ بلون الطفولة .

ولا تختار الجماعة من بين أفرادها من تخصهم بثنائها إلا إذا كانت تؤمن بوجود أسباب تدعو لذلك . وقد لا تـكون تلك الأسباب وجيهة فى ذاتها ، غير أن وجودها أمر ضرورى للظفر بإعجاب الجماعة . ولو أن إحدى جمـاعات التلاميذ أو التلميذات التى ألف أفرادها العمل معاً فى المدرسة مدة عامين أو أكثر طلب إليها أن تقدر درجات لأفرادها (أربع درجات مثلا للقدرة الممتازة على الزعامة ، وصفراً لعدم القدرة على ذلك ، ودرجة أو درجتين أوثلاث درجات لما بين ذلك) فإن القوائم التي نحصل عليها ستكشف عن قدر مدهش من الاتفاق. فأغلبية القوائم ستشير إلى معامل ارتباط عال مع التقدير العام للفصل . وسوف يحصل بعض التلاميذ على ثلاث درجات أو أربع من جميع زملائهم ، على حين لا ينال غيرهم ولو درجة واحدة . ويحتمل أن نجد بين المجموعة غلاماً يقدر لنفسه أربع درجات ، ويعطى كل من عداه درجة واحدة مستثنياً من ذلك صديقاً له يمنحه درجة تقرب من درجته . وقد أُجريت بجانب بعض التجارب التى لم تنشر، والتى بُنيت عليها هذه الآراء ، تجارب أخرى كان الغرض منها الوصول من سؤال الأفراد إلى الأسباب التى تجعلهم يصدرون مثل هذه الأحكام ، فوُجد أن أغلب الأولاد والبنات الذين وضع لهم الفصل كله تقديراً عالياً كانت تقديراتهم لأنفسهم ولغيرهم تتفق مع تقدير الفصل ، إذ كان لها معامل ارتباط مرتفع مع تقدير الفصل ، كما كان حكمهم على مركزهم بالنسـبة إلى باقى الفصل يكاد ينطبق على حكم زملائهم عليهم .

أما تقديرات أولئك الأفراد الذين قدروا أنفسهم — ولعلَّ أحد أصدقائهم أيضاً — تقديراً عالياً ، على حين أعطوا درجة واحدة أوصفراً لباقى زملائهم ، فإنها قد دلت على ارتباط منخفض مع تقدير الفصل لهم ، كما أن أحكامهم على مركزهم فى الفصل قد اختلفت اختلافاً كبيراً عن حكم زملائهم عليهم ، فكانوا بذلك يؤلفون مجموعة صغيرة يرى الفصل أنها لا تصلح للزعامة . فتقديراتهم جميعها سواء لأنفسهم أو لغيرهم تدل على أنهم قد كيفوا أنفسهم تكييفاً سيئاً للجماعة التى يحيون فيها حياتهم الجمعية .

ولا شك أننا فى مسيس الحاجة إلى الكثير من البحث والتجريب قبل أن نستطيع الإطالة فى الكلام عن طبيعة هذا الإخفاق فى التكيف ، أو تفصيل الظروف التى أفضت إليه . ويمكننا أن نرى كيف أن صاحب أحلام اليقظة المفرطة فى الأنانية يحس اشتهاء لنوع من الإشباع يعجز عن الحصول عليه وهو فرد فى جماعة . ونستطيع أن نرى فى ذلك فشلا فى الانتقال من مرحلة الطفولة . وأسباب ذلك متعددة كثيرة . فقد يحدث أحياناً أن الطفل كان فى سن مبكرة من حياته يستمتع برعاية أبويه وعطفهما ، غيرأن مولد طفل آخر قد أحدث فى الموقف العائلى تغييراً مفاجئاً لم يتح له الفرصة الملائمة لمواجهة مثل ذلك الانقلاب . فمثله فى ذلك مثل الحاكم المنفى الذى أصبح يقضى وقته لا فى مواجهة الموقف الجديد الذى وجد نفسه فيه بل فى الاسترسال فى الأحلام التى يستمتع فيها بملكه المفقود . وقد بدأ الناس الآن يدركون مشكلة هؤلاء الأطفال . ولم يقتصر هذا الإدراك على الذين يعملون فى عيادات الأطفال السيكولوجية فحسب بل تجاوزهم إلى المدرسين والآباء مما أدى إلى محاولة عرض أمثال تلك المواقف بشكل يساعد الطفل على تكييف نفسه لها بسهولة . كذلك يحدث فى أحيان أخرى أن يُطلب إلى الطفل أن يعرض نفسه على أنظار الزائرين الذين يسرفون فى إطراء محاولاته البدائية فى الغناء أو الرقص أو تقليد أصوات الحيوان أو الناس . وإذا لم تتخذ

الحيطة الكافية فى ذلك — وهذا أمر قلَّ أن ينتبه إليه الآباء الذين يشجعون أبناءهم على عرض أعمالهم على الزوار — فإن الطفل يتولاه الاعتقاد بأن دوره فى الحياة لا يتجاوز هذا الظهور ، وأن سائر الناس ما وجدوا إلا للإعجاب به . وإذا لم يستطع الطفل بعد ذلك تنمية موهبة من مواهبه بحيث تصبح مشاهدته أمراً مثيراً للاهتمام حقاً ، فإنه سيجد عند ما تتقدم به السن أن الناس يرمقونه بنظرات الملل والسآمة ، ويصبح إلحاحه الموصول فى طلب الإعجاب والثناء مصدر مضايقة لهم . ولما كان الطفل لا يرضى عن ذلك فإنه إما أن يضطر إلى مضاعفة الجهد لفرض نفسه عليهم فرضاً ، وإما أن ينسحب بعيداً عنهم وقد تولاه الوجوم والاكتئاب . وغالباً ما يحدِّث نفسه بقوله إن القوم قد انقلبوا عليه ، أو إنهم أصبحوا عاجزين عن ملاحظة علامات الفطنة والذكاء عند ما يرونها . بهذا نستطيع أن نفهم سبب انصراف مثل هذا الفرد عن الجماعة وإخفاقه فى تكييف نفسه لها ، وبحثه عن العزاء فى أحلام اليقظة المفرطة فى الأنانية . فخبراته المبكرة قد جعلته مدللا ، وجعلته مدمناً على طلب الإطراء ، كما قد تفضى بعض الخبرات الأخرى به إلى أن يصبح شرها بطناً . والحقيقة أن كل طفل نام يحتاج إلى الثناء حاجته إلى الغذاء . ولكنه لن يصح بدناً ونفساً إلا إذا قد منا له الكمية والنوع الملائمين لحاجاته السوية . فكل من الإفراط والتفريط يضاعف من أهمية الغذاء والثناء فى نظره .

غير أننا لمسنا من قبل وجود عنصر أنانى واضح فى معظم أحلام اليقظة عند حديثى السن فى حدود الأعمار التى نتكلم عنها الآن . وهذا أمر حقيق قد نجده أيضاً عند بعض من يوحى سلوكهم بأنهم قد لاءموا بين أنفسهم والجماعة التى يعيشون فيها مما يدل على أنهم منقسمون على أنفسهم . فشطر منهم يتقدم تقدماً طبيعياً فى طريق التكيف السليم للجماعة ، فى حين يميل شطر آخر إلى الارتداد إلى مرحلة مبكرة كان ينبغى أن يخلفها وراءه . وبعبارة أخرى يكون أولئك

الأفراد على أبواب مرحلة انتقال تشبه تلك المرحلة التى كان يقف عندها الطفل الذى ابتدع لنفسه رفقاء الخيال ، عندما كان يقف عند الحد الفاصل بين الطفولة والصبا . كذلك يقف الأولاد والبنات الذين نتحدث عنهم بين الصبا والمراهقة .

ويمكن دراسة أحلام اليقظة الأنانية فى هذه المرحلة من زاوية أخرى ، فهى ترمز إلى الهرب من الجماعة وما تتطلبه من الفرد ، أو ترمز إلى التمرد عليها . ومن المفروض أن الفرد ينسجم مع الجماعة إلا إذا كانت به حاجة لأن يفر منها أو يتمرد عليها ، أى عند ما يتنازل عن مطالبه ، أو يستطيع إشباعها فى داخل دائرة الجماعة ، أو يتمكن من تحقيقها بوسائل لا تتضارب مع مطالبها . والتنازل عن المطالب التى من هذا النوع ليس إلا أمراً ظاهرياً ، لأن ما يحدث فى الحقيقة هو أنها تكبت فى اللاشعور ، بحيث أن الفرد لا يكون شاعراً بوجودها ، بل يعتبر نفسه راضياً عن حياته الاجتماعية دون أن يدرك شيئاً عن اتجاهاته المنسية التى تأخذ الآن فى التعبير عن نفسها بصور يجهل مدلولها ، مثل الرؤى وأحلام اليقظة والسلوك المتسم بالأعراض المتعددة الأشكال .

ويستطيع الفرد أن يحصل على الإشباع وسط الجماعة إذا ما كشف أن فى مقدوره أن يسهم فى شتى الأعمال التى تحفل بها حياة الجماعة ، ويستمتع بالقيام بدوره فيها ، ويحقق الإشباع الأنانى الذى ينشده ، لمجرد قبول الآخرين لوجوده بينهم ، واستحسانهم لطريقة القيام بدوره . وقد يكون ذلك من أعسر الأمور عند بعض الأفراد . فالغلام الذى لا يستطيع من الناحية البدنية أن يجارى زملاءه فى ألعابهم المدرسية يجد صعوبة كبيرة فى تكييف نفسه للحياة الواقعية فى المدرسة حيث تعتبر الألعاب على أكبر جانب من الأهمية . وكثيراً ما ينمى فى نفسه نوعاً من الازدراء الدفاعى نحو الألعاب والمبرزين فيها ، أو نحو المدرسة كلها ومن يقومون على إدارتها . وفى الناحية الأخرى نجد أن غالبية التلاميذ يميلون إلى احتقار جميع مظاهر الفردية فى الزى أو الذوق أو الهوايات ، ويعبرون عن

استهجانهم لذلك بالأسماء المستعارة الساخرة والتهكم المهين . ونجد فى قصة « ستوكى وشركاه » (لـكبلنج) أمثلة عديدة لذلك .

ويحدث فى بعض الأحيان أن يجد أحد الأفراد ممن أوتوا الشجاعة والمقدرة على السعى وراء ميولهم الخاصة أن الجماعة فى النهاية ترضى عن العمل الذى أتموه ، فيصبح عندئذ من « القصاصين » الشهيرين ، أو « الملحنين » المعروفين ، أو « الفنانين » النوابغ ، أو « العلماء » الممتازين ، أو غير ذلك ، مما يجعله شبيهاً بصانع مصائد الفيران (فى إحدى قصص إمرسون) الذى كان قد برع فى عمله لدرجة أن العالم كله قد أصبح يشق طريقه إلى بيته . وبذلك يكون قد حقق الحلم الذى أشرنا إليه فى هذا الفصل ، حيث يجد الحالم نفسه مُتبوِّئا أسمى المراكز ، يحف به حشد من الجمهور المعجب به . وفى الحالة التى نحن بصدد الكلام عنها نجد أن الجمهور يتجاوز مجرد الإعجاب ، فيهلل للحالم بصفته فرداً من أفراده ، مدعيا أنه لم يؤدّ عمله إلا من أجل صالح المجتمع . وأنه قد قدم نتائج عمله للجماعة كلها . فتقول الجماعة : « لقد أخرج لنا فلان ذلك العدد الضخم من القصص ! » . ومن جهة أخرى نرى كثيراً من الناس ينطلقون وراء أهوائهم الخاصة فينتجون أعمالا لا يقبلها إلا الخاصة وحدهم ، ويجدون فى ذلك بعض الإشباع ، غير أنهم فى الوقت نفسه يشتهون ذيوع الصيت الذى يشعرهم بأن عملهم قد وجد صدى فى نفس الجماعة كلها وحاز قبولها . وإذا ما أخفقوا فى ذلك فإنهم يُنمون فى أنفسهم نوعاً من العداء يعبِّر عنه فى صورة الهجو والقدح .

ونجد فى بعض ضروب أحلام اليقظة الأنانية إشارة إلى ما يعتقد الحالم أن الجماعة تنتظره منه إذا ما تولى قيادها . وهذا ينطبق على الأحلام التى يتزعم فيها غلام جماعة من الرجال . ففى إحدى قصص الأولاد نقرأ عن موظف صغير السن فى أحد المصانع يلعب دوراً رئيسياً فى إحدى حركات الإضراب ، فيكشف للرجال عن خداع زعمائهم وزيف نوايا مديريهم ، وعندئذ ينصبه الرجال زعيما

عليهم ، فيقوم بعرض مطالبهم على صاحب العمل ، ثم يقنعهم بالعودة إلى أعمالهم . ليست هذه القصة أكثر من حلم يقظة أتقن صوغه ، وهو قد يتجاوز فى تفاصيله ودرجة تماسكه حلم التلميذ العادى ، غير أنه لا يختلف عنه فى جوهره ، فهو يؤكد أهمية النفاذ إلى أعماق الصدور ، و إدراك ما يعتمل فيها من دوافع ، وهو يقسم الناس إلى طائفتين متميزتين ، طائفة مفرطة فى الطيبة وأخرى مسرفة فى الشر ، إحداهما صديقة والأخرى معادية . والزعيم هو الذى يعرف كيف يلجأ إلى الطائفة الملائمة . فهنا نرى صورة للمجتمع ، أو لجماعة الناس الذين يحيا الفرد بينهم و يعمل معهم . ومن الجلى أنها صورة مسرفة فى البساطة .

وتؤكد بعض أحلام اليقظة الأنانية الأخرى أهمية امتلاك سر من الأسرار ، وكتمانه عن الغير واستغلاله . وقد صيغت هذه الفكرة أيضاً فى قوالب قصصية مختلفة ، فيكون السر فى بعض الأحيان شيئاً يهمس به رجل على شفا الموت فى أذن غلام يكون قد ترفق فى معاملته ، أو يكون مكتوباً بالشفرة التى يحل البطل رموزها كما فى قصة « حشرة الذهب » (لإدجار ألان پو) . وفى « كنوز الملك سليمان » (لريدار هجارد) نجد السر فى خريطة رسمها بدمه على قطعة من القماش رجل قبل أن يموت ، على حين نجد السر فى قصة « هى أو عائشة » لنفس المؤلف مكتوباً بلغة قديمة على قطعة من الخزف ظلت محفوظة عدة قرون لدى عائلة الرجل الذى قام بالبحث عن الكنز المخبوء . وقد يصحب البطل فى رحلته رفيق واحد ، أو يشترك معه فيها رفيقان أو ثلاثة ، كما أنه قد يأخذ معه فى بعض الأحيان جماعة كبيرة من الرجال . وتشق القافلة طريقها عادة فى بلاد مجهولة حيث تقابل أقواماً غريبة أطوارهم ومعايشهم ، وتصادف كثيراً من المخاطر والأهوال . وقد يضطر الصبى إلى الاعتماد على مهارته الشخصية فى القتال ، أو على خبرة زميله الأكبر منه سناً الذى يقدم له العون ، دون أن يبغى من وراء ذلك أكثر مما يجده من الإشباع فى خدمة زعيمه . وقد تنقسم الجماعة إلى فريقين يكون أحدهما موالياً للزعيم ، فى

حين يتآمر الفريق الآخر عليه ، ويتحين الفرصة للإيقاع به والقضاء عليه بمجرد اكتشاف الكنز السرى . وهذه هى فكرة قصة « جزيرة الكنز » (لروبرت لويس ستيفنسن) .

ويلاحظ الطفل فى وقت مبكر من حياته أن الكبار يتحدثون فيما بينهم عن أشياء كثيرة لا يفهمها ، ويدرك من ذلك أنهم يعرفون الكثير مما يجهله هو ، فينشأ عنده اعتقاد بأن قوتهم وميزاتهم إنما ترجع إلى تلك المعرفة التى يمتلكونها دونه . فالطفل ينتابه العجب لكثرة ما يقرؤه والده فيسأله عما يوجد فى تلك الكتب . وعندما يحاول أبوه إخباره عن ذلك فإنه كثيراً ما يجد من العسير عليه أن يصدق أن أباه ينفق من وقته كل ذلك القدر فى أشياء ضئيلة الأهمية بهذا الشكل ، ويرتاب فى أنه لابد يخفى عنه شيئاً . ومن أمثلة ذلك أن (لويس كارول) عثر وهو صغير على جدول لوغاريتمات فسأل أباه « تفسيراً » لمحتوياته ، وكلما حاول الأب ذلك صاح لويس الصغير فى صبر نافد : « لا . لا . فسره لى ! » وأخفق الأب رغم محاولاته المتعددة فى إشباع فضول ولده ، لأن الغلام ، على ما يظهر ، كان يعتقد بأن تلك الأرقام التى تظهر أمامه على صفحات الكتاب تخفى سراً لا يريد أبوه أن يطلعه عليه .

كذلك يعلم الطفل أن الكبار يتحدثون عن أمور عدة لا يريدون أن تصل إلى مسامعه ، ويدرك أيضاً أن الكثير من إجاباتهم عن أسئلته ليست سوى محاولات للتهرب من القول الصريح . كما قد يحظرون عليه فى بعض الأحيان إلقاء أسئلة عن موضوعات معينة مثل الأمور الجنسية وولادة الأطفال . ولقد كان ذلك مألوفاً فى الجيل الماضى أكثر منه فى الآباء المستنيرين من جيلنا الحاضر ، فنرى الآنسة (باربارا كارتلاند) تستطيع أن تقول فى كتابها « سنوات المضيق »[1] الذى تقص فيه تاريخ حياتها : « لم أكن أعلم قط شيئاً عما يمكن أن أعبر عنه

(1) Barbara Cartland : « The Isthmus Years »

بشكل يتناسب مع مقتضيات الأدب بلفظ « الزواج » إلى أن بلغت التاسعة عشرة تقريباً ، وطُلبت يدى للزواج خمس مرات » . كذلك كان الأطفال فيما مضى كثيراً ما يباهون زملاءهم بأى نوع من المعرفة يكونون قد التقطوه فى مثل تلك المسائل ، فكان زملاؤهم يصغون مشدوهين إلى ما يسردونه عليهم منها ، كما أن مثل تلك المعلومات كانت تعطى صاحبها نوعاً من الامتياز المؤقت على أقرانه .

فى جميع هذه الأحلام ، سواء أكانت من الأحلام غير الناضجة عند صغار الأولاد ، أو من القصص المتقنة التى يجد أولئك الأولاد متعة فى قراءتها ، يكون زعيم الجماعة هو الشخص الذى يملك من المعلومات قدراً أكبر مما يملكه أتباعه . فهم بدونه لا يستطيعون العثور على الكنز الذى سوف يقتسمونه . ونجد الدافع إلى هذا الاعتقاد فى نظرة الطفولة إلى الأب الذى يحيط بكل شىء علما . وما زال الإيمان بأهمية العلم بكل شىء ملازماً لكثير من الناس . وقد ذاع فى العصر الفكتورى انتشار عدد من المجلات التى لم تكن لتزيد على مجموعة من المقتطفات عن معلومات قديمة لا تنفع أحدا ، ويقابلها فى المجلات الحديثة تلك الأبواب التى تنشر تحت عنوان « ماذا تعلم ؟ » ، و« هل تعرف ؟ ».

ومما هو جدير بالاهتمام أن نذكر أن القبائل البدائية كانت تعنى كثيراً فى حفلات التدشين بتلقين الصبى الأسرار التى يحتفظ بها رجال القبيلة وحدهم ، وهى لا تضم طائفة من المعلومات عن الأمور الجنسية فحسب ، بل إنها تتناول كذلك أسرار القنص والحفلات الخاصة بالرجال . فالغلام لا يصبح رجلا لمجرد اجتيازه لتجارب شعائر القبيلة ، وإنما لأنه قد صار على علم بالأشياء التى تعتبر من الأسرار التى تحرص القبيلة على إخفائها عن النساء والصغار ، وهى أمور محظور عليه أن يفشيها وإلا عرّض نفسه لعقاب الموت .

لذلك ينبغى أن نتوقع اختلافاً فى نظرة الغلام الذى تؤكد أحلام يقظته ناحية

المعرفة عن نظرة الغلام الذى تكون أحلامه مسرفة فى إبراز الفعل والعنف . فإن النوع الأول يوحى بالانطواء[1] إذ يحاول دوما أن يصل إلى أهدافه عن طريق تدبير الخطط ، فى حين ينم الثانى على ميل نحو الانبساط [2] لأنه يدرك غاياته بطريقة الهجوم . غير أننا يجب أن نذكر فى ذلك أن حلم اليقظة يعبر عن ناحية واحدة من مجموع تركيب الفرد ، وأننا لا نصادف فى الحياة الواقعية أنموذجاً خالصاً لأحد النمطين .

وتعتبر القصة البوليسية الحديثة من الصور الهامة لحلم اليقظة المتصل بناحية المعرفة . ويرجع ظهور هذه القصص إلى (إدجار ألان پو) الذى كتب « جنايات قتل فى شارع مورج » ، و « الخطاب المسروق » ، و « سر مارى روجت » ، وقصة أخرى أقل شهرة من الثلاثة السابقة هى « أنت الرجل » . وقد ذاع هذا النوع من القصص وبخاصة بعد نشر مغامرات « شرلوك هولمز » (لكونان دويل) ، كما ظلت الطبعات الرخيصة للروايات التى من هذا النوع تنشر للأولاد عدة سنوات ، وقد نالت انتشاراً كبيراً فى أوساطهم . فكثير منهم يولع بفكرة اكتشاف الأشرار وعقابهم ، وهؤلاء يرون أنفسهم فى حلم اليقظة وهم يقتفون أثر المجرم ، فينالون بذلك ثناء المجتمع . وهم يستطيعون ذلك بسبب تفوقهم على المجرم فى الذكاء وسعة الحيلة ، أو فى العلم والمعرفة . ويكونون فى أغلب الأحيان أشخاصاً غامضين لا يثيرون ريبة المجرم فيهم ، قادرين على حل المعميات ، كما أنهم يكونون أشد فطنة وأدق ملاحظة من رجال الشرطة الرسميين . فنرى (دوبن) مثلا فى أفضل قصص (پو) يصل إلى سر الجريمة باستخدام الذكاء المنطقى . ونجد (شرلوك هولمز) الغامض يلجأ إلى الاستدلال العقلى واستغلال المعلومات القديمة ، كما يستخدم كثيراً من المهارة البدنية . كذلك نلاحظ أن رجل البوليس السرى

---

(1) Introversion.

(2) Extraversion أو Extroversion

فى روايات (أوستن فريمان) ليس رجلا منطقياً فحسب بل وعالماً ألمعياً كذلك ، يمتلك معملا كامل المعدات ، ويستمتع بقسط وافر من العلم .

ففى جميع هذه الأحلام نجد مجرماً قد انقلب على المجتمع ، واتخذ منه عدواً له ، وبطلا يستغل تفوقه فى العلم فيحظى من وراء ذلك بإعجاب الجماعة ، غير أنه فى كل ذلك يكشف عن تفوقه على الشخص الذى عهد إليه المجتمع بمهمة المحافظة على الأمن والقبض على المجرمين . (فدوبن) ينجح حيث أخفق ضباط الأمن العام الفرنسيين ، (وشرلوك هولمز) يدلل على جهل مفتشى « سكوتلنديارد » وغبائهم ، والدكتور العالم فى قصص (أوستن فريمان) ، على الرغم من علاقاته الطيبة مع السلطات ، يكشف لهم دوماً عن ضعف حيلتهم وذلك بمساعدته الموصولة لهم فى هتك سر الجرائم الغامضة . والحقيقة أن ما يؤكده كل هؤلاء للجماعة هو بمثابة قول الواحد منهم : « لقد أسأتم الاختيار ، وكان الأجدى بكم أن يقع اختياركم علىَّ أنا » .

ويمكن التوسع فى دراسة الدوافع التى تكمن وراء فكرة القصة البوليسية بشكل تفصيلى يتجاوز كثيراً ما نستطيعه هنا . ويكفينا أن نعلم أن الحالم بابتداعه الضحية والجريمة والمجرم ورجل البوليس إنما يعبر فى وقت واحد عن عدائه للجماعة التى تصورها الجريمة ، كما أن عداءه لمرتكب الجرم يظهر من سرد محاولات رجال الشرطة لاقتناصه والاقتصاص منه . فحلم اليقظة جميعه ليس إلا قصة صراع بين عداء الصغير للجماعة من جهة ، واتفاقه معها من جهة أخرى .

ويظهر بعض الأجانب فى عدد من أحلام اليقظة عند الأطفال ، فيكونون أحياناً مجرد أفراد غرباء غريبى الأطوار ، أو يكونون فى أحيان أخرى زنوجاً أو ألماناً أو صينيين على وجه الخصوص . وهذه الشخصيات تكون فى العادة مقتبسة من الكتب أو أفلام السينما أو أحاديث الناس العادية . ولكن الطفل يستخدمها بطريقته الخاصة ويدخلها فى أحلام يقظته . فقد يتخذ من الزنجى صديقاً

يدخل السرور على نفسه بتهريجه ، أو شخصاً يذكره « بالعم توم » ، كما أنه قد يصوره على شكل رجل متوحش مسلح بالحراب . أما الصيني فيكون في العادة شخصاً غامضاً ، يكمن التهديد وراء نظراته الضيقة ، كما يظهر الألماني في صورة العدو ، وذلك بسبب الحرب الأخيرة .

فالأجنبي في نظر الطفل ، كما هو في نظر الكثيرين منا ، شخص ليس من الجماعة التي ننتمي إليها ، ولذلك يسهل أن يكون موضع البغض والكراهية . والرجل الإنجليزي العادي يكره الأجانب ولا يثق بهم ، غير أن أولئك الأجانب قد يلقون معاملة حسنة رفيقة في كثير من البلاد الأخرى . ومع ذلك يحتمل أن يتضاعف شعور الإنجليز بالبغضاء نحو الأجانب عندما تكون مصالحهم القومية مهددة ، أوعندما تنشط أنواع معينة من الدعاية المقصودة التي ترمي إلى تلك النتيجة . وقد يتخذ هذا الشعور عند الطبقات الدنيا منهم مظهر النهب والسلب والاغتيال . ولكنه يعبر عن نفسه عامة في صورة أعمال مدبرة تؤدي إلى نتائج قاسية حاسمة .

ومن الجلي أن هناك بعض العلاقة بين كراهية إحدى الدول الأجنبية ، وإعلان الحرب ضدها . غير أننا لو حاولنا القول بأن البغضاء وحدها هي سبب الحرب فإننا نكون عندئذ مغالين في تبسيط أسباب الحروب أكثر مما ينبغي .

ويندر أن تكون أسباب الحروب في هذه الأيام في مثل بساطة أسباب الحروب في العصور الماضية ، عند ما كان مجرد اختلاف تافه بين حاكمين كافياً لإثارة جحيم الحرب بين بلديهما ، أو يوم كانت تنشب الحروب لمجرد رغبة إحدى الدول في امتلاك أراضي دولة أخرى أو نهبها . أما الآن فيبدو أن الحروب تنزع إلى اتخاذ صبغة تأديبية . إذ نرى أحدى البلاد تكيل اتهاماتها لبلد آخر ، فإن لم تتلق الترضية الكافية ، فإنها تعلن عليها الحرب لعقابها .

وقد أشار الأستاذ بوفيه في كتابه « عاطفة المقاتلة » [1] إلى أن القتال بين

(1) P. Bovet « The Fighting Sentiment »

الأولاد يقع عادة عقب محاولة أحدهم اعتراض سبيل الآخر . فقد يمسك غلام كبير برسغى ولد صغير و يحول دون تحريكه إياهما ، وعندئذ يحاول الصغير تخليصهما بركل خصمه ، فيتفادى الكبير تلك الركلات ، و يظل قابضاً على الرسغين ، فلا يلبث الآخر حتى يصرخ و يصيح فى اهتياج شديد . و إذا أطلق غريمه يديه فإنه حينئذ يلقى بنفسه عليه و يضربه بشدة ووحشية .

ومما يجدر بالملاحظة أن ما يسبق الحرب من احتجاجات إحدى الدول على تصرفات بلد أجنبى تتخذ صورة اتهامات تدعى فيها الدولة المحتجة أن أعمالها قد عُوّقت ، كالقول بأن : « ال... يحولون دون قيامنا بكذا أو كذا من الأعمال » . فهذه الدولة تعترض سبيل نمو التجارة المشروعة لدولة أخرى ، وتلك تقاوم حصولها على مستعمراتها ، أو تعرقل توسعها الحيوى .

ونستطيع أن ندرك بسهولة أسباب ذلك ، فإن عدداً كبيراً من الناس يحيون حياة حافلة بالحرمان . وتشير كثرة حدوث أحلام اليقظة ، وذيوع الأحلام النمقة التى تظهر على صورة أفلام أو قصص مغامرات عاطفية ، إلى نفس الاتجاه ، لأن هذه جميعاً ليست سوى أنواع من الإشباع الخيالى للرغبات التى أصابها الحرمان فى الحياة الواقعية . ولو أنّا أضفنا إلى مصاعب العيش الحقيقية ، من حيث المأوى والكساء والغذاء ، نقص الإشباع النفسى ، لأمكننا أن ندرك مقدار مافى الحياة من سخط ومتاعب ، وما يصحب ذلك من إيمان « بضرورة علاج تلك الحالة » . أولئك المحرومون هم المستمعون الذين يوجه إليهم الساسة خطاباتهم ، موحين إليهم بأن حالتهم لن يتيسر علاجها إلا بتغيير الحكومة القائمة لأنها سبب آلامهم وشقائهم ، وهكذا يستطيع الخطيب اللبق أن يقنع سامعيه بأن الحكومة وحدها هى الملومة على ما يعانونه من حرمان فى حاجاتهم الخاصة والعامة . ولما كان عدد كبير من أولئك الناس لا يستطيعون إدراك ماهية متاعبهم ، فإنهم يجدون ارتياحاً فى صب اللوم على كل هؤلاء الذين جعلوا منهم كبشاً للفداء كما يبدو فى نظرهم .

ولعل الأجنبى هو الذى يُتخذ وسيلة لتحقيق هذه الغاية . فمن المبادىء السياسية التي كانت شائعة من قبل ، أن فى الإمكان تحويل انتباه أفراد الشعب عن الأمور الداخلية بواسطة حرب خارجية . ولا زال الخطيب الماهر فى بعض البلاد يستطيع إقناع الناس بأن ارتفاع الأسعار ، والفقر ، وسوء الحالة المعيشية ، والبطالة ، وحتى الأمراض والأوبئه ، إنما ترجع جميعاً إلى الأجانب ، فيندفع الشعب على الفور إلى مطالبة حكومته باتخاذ إجراءات شديدة ضد أولئك الأجانب ، وقد ينضم إليه فى ذلك بعض المتعلمين من الرجال ممن يدركون تماماً براءة الأجنبى من مثل تلك الاتهامات ، كما أنه قد يساورهم نفس شعور الحقد ، فيأتون من الأعمال الحمقاء مالا يصدر إلا عن الجهلة من أبناء وطنهم .

وكثيراً ما يقال للانجليزى الذى يعيش خارج بلاده : « أنا لا أحب الإنجليز لأنهم . . . » وتكمل الجملة بعبارة عامة . ولو أجاب الإنجليزى بقوله : « لست أصدق ذلك ، فإنك كنت دوماً ظاهر الودّ نحوى » ، فإنه يتلقى الجواب الآتى : « ولكنك لا تمثل الرجل الإنجليزى العادى » . هذه العبارة الأخيرة تضم الحقيقة بين ثناياها ، فإن الأجنبى المكروه ليس هذا الفرد أو ذاك ، ولكنه « نوع » ، أى شىء خيالى .

وقد أُجرى منذ بضع سنوات استفتاء كان الغرض منه اكتشاف رأى الأطفال فى الأجانب . وقد يكون لفظ « الأطفال » هنا ضيق المعنى ، لأن البحث شمل عدداً من التلاميذ يتراوح سنهم بين السابعة والسابعة عشرة فى عدد من المدارس الثانوية والابتدائية فى المدن والقرى . وأمكن جمع ما يقرب من ثلاثين ألفاً من آرائهم [1] ، وُجدفيها تكرار وصف الزنوج بأنهم قوم طيبون يزرعون لهم الموز ، أو أنهم مجرد مهرجين يثيرون الضحك ، والألمان بأنهم علماء نوابغ أو

(1) Green and Herbert — « Pacial Prejudice in School Children » — Kwartalnik Psychologizkny (Poznan, Poland) 1930 .

قتلة قساة القلوب ، أما الأسبان فقوم غلاظ الأكباد ، يقضون جلّ وقتهم فى مصارعة الثيران ، والبريتونيون ذوو شجاعة فائقة ، والأمريكيون أناس مغرمون بالتفاخر ، والصينيون رجال ذوو مكر ودهاء ، يدمنون تدخين الأفيون ، لهم عيون منحرفة ، وهم خونة يميلون إلى القسوة ، ويكثرون من اختطاف الأطفال .

وقد أمكن التأكد من مصدر تلك الآراء ، إذ مما لاشك فيه أن الكتب والأفلام قد لعبت دوراً كبيراً فى تزويد أصحابها بالمادة التى دخلت فى تركيب أفكارهم . فالكتب المدرسية ، والمعلومات الدراسية ، وأفلام السينما ، والأحاديث المنزلية كانت فى مجموعها مصدراً لمادة لاتقل عن مادة الكتب الأخرى : ويلاحظ أننا نؤكد « المادة » لا « الأفكار » ، لأن من الجلى أن الطفل نفسه هو الذى صاغ أفكاره من المادة التى تجمعت لديه ، وذلك تحت تأثير الأهواء والميول القائمة . ومن الواضح أيضاً أن الطفل يتناول بالتغيير والتبديل ما نزوده به من معلومات كى يعبر بواسطته عما كان يعتقده من قبل ، ويمكن أن نقتبس على سبيل المثال حالة غلام من كاردف كان قد وصف الصينيين بالقسوة ، وعندما سئل عن سبب ذلك أجاب : « رأيت ذات مرة رجلا صينياً يضرب غلاما فى الطريق . » وقد يدهشنا أن نعلم عدد المرات الكثيرة التى رأى فيها ذلك الغلام رجالا غير صينيين يضربون الصبية فى طرقات الحى الذى شب فيه ، ومع ذلك فانه بسبب حالة واحدة معينة أصدر حكما عاما صارما على أبناء دولة يقرب عدد أفرادها من أربعمائة مليون نسمة .

وقد يدفعنا ذلك إلى التساؤل عما إذا كان من الضرورى لقيام جماعة متماسكة أن يرمق أفرادها كل فرد أجنبى عن جماعتهم بعين الريبة والكراهية . وقد لمسنا من قبل أدلة تنم على أن الطفل عند اقترابه من السن التى تهيئه للدخول فى زمرة الجماعة — ويكون ذلك فى العادة حوالى سن الحادية عشرة وما بعدها — يكون

فى حالة صراع إذ تتجاذبه نزعاته الأنانية من جهة ، ونزعاته الاجتماعية من جهة أخرى .

وكل ما يشد أزر النزعات الاجتماعيـة سوف يعين إذن على دفع الطفل إلى حظيرة الجماعة و إبقائه فيها ، وجعله يشعر بالأمن داخلها . فإذا كانت هذه الجماعة فرقة من فرق الـكشافة فإنه سوف يرتدى لباسها الخاص كى يشعر بأنه واحد من أفرادها ، و يستطيع الإعلان عن ذلك لغيره ، كما يصبح متميزاً عمن ليسوا من الـكشافين . و إذا كانت الجماعة مدرسة فإنه سيلبس الزى الخاص بهـا ، وغطاء الرأس المميز لها ، وذلك للأسباب نفسها . كما أنها إذا كانت إحدى منظمات الأطفال المنتشرة فى هذا البلد فإنه سوف يضع شارتها فى عروة سترته ، وقد يضاف فى بعض الاحيان إلى تلك الشارات التى ترمز إلى الزمالة والأخوة بعض العبارات السرية والرموز الاصطلاحية . فإذا كانت الجماعـة أكبر من ذلك كالدولة مثلا فإنه عنـدئذ سيستطيع التخاطب بلغة خاصة تميزه عن أولئك الذين لايتكلمونها ولايفهمونها ، والإقامة فى مكان من العالم يغار على سلامته ، وأن يحيى العلم الوطنى، ويفخر بتاريخ وتقاليد قد لقنها . كل تلك الاشياء تكون ملـكا له لانه أصبح عضوا فى مجتمع ، فهى مغانم إيجابية .

و يمكن أن تقوى الرغبة فى الظفر بتلك الميزات إذا مابدأت آراء الغلام عمن ليسوا من جماعته تصطبغ بالازدراء والمقت . فعندما دخلت بريطانيا الحرب ضد ألمانيا عام ١٩١٤ ، وهبَّ (كتشنر) يناشد الرجال الصالحين للخدمة العسكرية للتطوع فى صفوف الجيش ، أصبح السؤال الآتى : « لماذا لا ترتدى الزى العسكرى ؟ » يستخدم كتعريض مهين بأولئك الشبان الذين حالت بعض الاسباب دون استطاعتهم الانضمام إلى المحاربين . و بنفس الطريقة يتجه الشعب بتفكيره نحو الأجنبى و يسأله : « لماذا لاتـكون فرداً من أمتنا ؟ » ولن نجد من بين الإجابات التى قد تعنَّ له ما هو فى صالح الأجنبى . والمعنى الوحيد التى كان يخامر نفس

من يلقى السؤال الأول وهو : « لماذا لاترتدى الزى العسكرى ؟ » هو أن ذلك الشخص بثيابه المدنية ليس إلا جبانا ، خائر العزيمة ، خائناً . كذلك لا يكون الاجنبى واحداً منا لأنه يتكلم لغة غير مفهومة تختلف عن لغتنا ، و يلبس ملابس غريبة عنا ، ونجد فيه بدلا من الفضائل التى نتحلى بهـا عدداً من الرذائل التي تقشعر لها أبداننا . وهو بجانب ذلك يعترض سبيلنا . فنحن إذا لم ننتسب إلى جماعتنا القومية فإننا نبقى خارجها مع ذلك الأجنبى .

بذلك يعتبر الاتجاه إزاء الأجنبى فى جميع أنحاء العالم عنصرا من عناصر القوة فى العاطفة الوطنية ، وهو يشتد بطبيعة الحال و يقوى عندما يكون تماسك الأمة ضعيفاً . وعلى الرغم من أن الـكره الواضح للأجانب ينم على حركة قومية قوية ، فإنه ليس دليلا على أمة قوية ، بل يدل فى الحقيقة على ضعفها . وهذا يمثل بمنتهى الدقة موقف الغلام قبل مرحلة المراهقة ، فهو يشعر شعوراً معيناً نحو الجماعة ، ولـكنه لا يكون على تمام الثقة من أن مكانه فيها ثابت مكين ، ولهذا قد يشعر بضرورة الإسراف فى تأكيد الأشياء التى تشير إلى عضويته الكاملة فى الجماعة ، والإفراط فى كره الصفات التى تجعله غير صالح لها ، وهو يدرك وجود تلك الصفات فى نفسه إدراكا قويا غير أنه ينكرها تماما ، وهكذا يستطيع أن يتخذ من الأجنبى ضحيـة يلصق بها جميع نقائصه وأخطائه ، معتقداً أنه يتخلص منها بذلك .

إن هذه المسألة على أكبر جانب من الأهمية من الناحية التربوية . فلو أن بغض الأجانب يعنى أن الولد قد استطاع أن يتخلص من عناصر الصراع الداخلى بإلقائها على شخص خيالى أو « نموذج » يعتقد أنه يمثل أفراد أمة أجنبية ، وأنه بذلك قد مهد الطريق أمام نموه السوى ، فعندئذ يكون ذلك البغض قد حقق بالفعل غرضاً نافعاً ، ولـكن الفـكرة ذاتها خاطئة زائفة ، يفضى قيامها إلى قدر كبير من سوء التفاهم الدولى ، و يؤيد قيـام الحروب ، ولذلك ينبغى اكتشاف شىء آخر يصلح أن يكون بديلا منها ، و يؤدى نفس وظيفتها السيكولوجية فى النمو

دون أن يكون له نتائجها الخطرة ، والأمـل كبير فى أن يتحقق ذلك فى المستقبل القريب . ومن المؤكد أنه إلى أن يحين ذلك الوقت فأننا لن نستطيع الاكتفاء بالاعتماد على مجرد قيام الاتصال العادى بين الشعوب ، أو على انشاء « صداقات القـلم » بين الصغار فى الأمم المختلفة ، أو الاهتمام بجعل الدروس المدرسية مصدراً للأنباء الصحيحة عن الشعوب الأخرى ، فإن كل ذلك لن يجـدى فتيلا فى تصحيح الأفكار الخاطئة التى تملأ ذهن أطفال قد نما عنـدهم من قبل استعداد لـكره كل ماهو أجنبى عنهم ، فلا يرون فيمن يصادفهم من أجانب على جانب كبير من حسن الأخلاق ، وما يصل إليهم من أصدقاء من الخارج ، أكثر من مجرد دليل على ما للقاعدة العامة من استثناءات ، وعلى أن هناك ، حتى فى البلاد الأجنبية ، أفراداً يختلفون عن النوع العادى . وقد أدى فحص أوراق الإجابة عن الاستفتاء الذى أشرنا إليه إلى استنتاج أن تلاميذ الفرق العليا بالمدارس الثانوية ، ممن يعتبرون على أبواب الحياة الجامعية ، لايختلفون من حيث ما يشغل أذهانهم من ألوان الهوى والتحزّب عن تلاميذ المدارس الابتدائية الذين لا يتجاوز سنهم سبع سنوات ، وإن اختلفوا عنهم من حيث اللباقة فى الدفاع عن آرائهم .

ويمكننا كذلك أن نرى أن هـذه المرحلة التى يستطيع الصبي فيها أن يعمل مع الفريق كعضو فيه ، أو يكون راغباً فى ذلك على الأقل ، تعتبر من أهم مراحل النمو ، فإن فترة الانتقال من المرحلة الانانية إلى المرحلة الجمعية فترة صراع شديد . ومما هو جدير بالاهتمام أن ألعـاب « الفريق » توصف غالباً بعبارات حربية ، ويُنظر إليها على أنها موقعة صغيرة ، فيقال إن الفريق قد أحرز « الانتصار » ، وإنه قد « هزم » منافسه ، وإن « القتال » كان عنيفاً عندما حاول الفريق المهزوم أن « يقاوم فى عناد » . . . إلى غير ذلك .

فالفريق المنافس يشبه إذن ذلك الأجنبى الذى تكلمنا عنه لأنه يحمل إسماً مختلفاً ، ويلبس أفراده زياً من لون مغاير للّون الذى اتخذه الفريق لنفسه ، كما أنه

يلعب تحت قيادة زعيم آخر .

ويمثل الفريق جميع أنواع المجتمعات ورابطات الإخاء التى قد ينضم إليها الصبى مدة من الزمن . فكلها ترمى إلى محاربة شىء أو تأييده والدفاع عنه ، ولكل منها مجموعة خاصة من القواعد ، وغرض مشترك تسعى إليه ، ونجد فى الفصل والأسرة نواحى معينة تشترك فيها تلك الجماعات والفرق ، غير أن الفصل والاسرة ليس لهما غرض مشترك واضح المعالم يمكن صوغه فى صورة بسيطة مثل التى نصوغ فيها غرض الفريق . فالولد يرتبط بأسرته ، ويدافع عنها ويخلص لها ، لا لأنه يدرك الغرض المشترك بينهما ، ولكن لأن الرابطة التي تصله بها رابطة حنان واعتراف بالجميل . وعندما يصل إلى السن التى تتيح له الاهتمام بالجماعة يصبح وقد تجاذبه البيت والفريق ، وغالباً ماينتصر الفريق على البيت . فكأن الفريق يساعد الولد بطريقة أخرى على بلوغ مرحلة نمو أرقى من سابقتها ، ويعينه على الفطام من نظام قد استنفد غرضه منه ، ويتمثل هذا الصراع القائم بين مطالب كل من البيت والجماعة فى الصورة التقليدية للجندى الشاب وهو يودع أباه وأمه على باب كوخهما كى يسرع إلى الانضمام إلى فرقته التى تمر أمامه.

وقد أصبح من مألوف الأمور الآن فى المدارس الثانوية تقسيم المدرسة إلى عدد مناسب من الأقسام التى نطلق عليها عادة اسم « الاسر » ، والحقيقة أن كل أسرة من هذه الاسر تعتبر فريقاً . فهى تتخذ لها اسماً خاصاً ولوناً مميزاً ، ثم تتنافس فيما بينها على إحراز التفوق فى الالعاب المختلفة ، والمباريات الرياضية ، وأحيانا فى التمثيل والأدب أو الأشغال اليدوية . وقد اقتبست فكرة الاسر من « المدارس العامة » حيث تكون الأسر فيها وحدات حقيقية تتكون من مجموعات من الأولاد يعيشون معاً فى القسم الداخلى ، ويشرف على كل مجموعة عميد من المدرسين . كذلك نرى فى بعض المدارس أن الفصل الواحد يقسّم إلى فرق ينافس بعضها بعضاً فى المواد الدراسية ، وبذلك يعمل كل تلميذ لامن أجل إحراز التفوق

لنفسه ، بل فى سبيل رفع فريقه إلى القمة . لذلك يمكن أن يلعب نظام الفرق ونظام الأسر ، إذا أحسن استخدامها ، دوراً كبيراً فى مساعدة تلاميذ المدارس الثانوية على تكييف أنفسهم لحياة الجماعة .

ولعل حركة الكشافة والمرشدات تعتبر من أنجح المحاولات فى مضمار إشباع الحاجات النفسية للأولاد والبنات فيما بين العاشرة والرابعة عشر ، فإن الهدف الذى ينصبه أمام أعينهم هذا النوع من النشاط ليس هدفاً بسيطاً واحداً ، بل إنه يجمع بينهم كى يشتركوا فى القيام بأعمال منوعة ، مما يجعلهم ينظرون إلى أنفسهم على أنهم فريق واحد . ويبرز توحيد الزى ناحية انتسابهم إلى جماعة واحدة ، فينمّي ذلك فيهم شعوراً بتمايزهم عن غيرهم ممن لا يملكون حق ارتداء ملابس الكشافة . كذلك يطلب منهم دائماً أن يراعوا النظافة فى شئونهم ، والأناقة فى هنداهم ، وموالاة ارتداء الزى الكشفى . ومن الممكن أيضاً استخدام شعارهم المعروف وهو « كن مستعداً » فى إشعارهم بالأخطار التى يتعرض لها فى العالم الخارجى أفراد ليسوا مستعدين لها . فكأن الكشافة بذلك تستغل الحافز الذى يحتمل أن يكون هو الذى حدا بالفرد إلى تكوين الجماعة . وفى الوقت نفسه يكون الإشباع الأنانى ميسوراً لأفراد فريق الكشافة أو المرشدات عندما يستغلون خبرتهم ومرانهم فى تقديم المساعدة إلى الغير ، أو يظفرون بالشارات المختلفة التى نراها على صدورهم وأكمامهم مثل شارات المهن والأقسام . فكان الحركة جميعها نوع من التدريب الرائع النافع فى تلك المرحلة الدقيقة التى يكون الولد فيها شاعراً بالصراع الداخلى القائم بين الحوافز المختلفة التى تدفعه حيناً نحو الميول الفردية ، وحيناً آخر ناحية مصلحة الجماعة .

ويكثر الحديث فى هذه الفترة « الحرجة » عن ألوان الصراع التى كثيراً ما تدفع الأولاد إلى ارتكاب أعمال عدوانية ضد الجماعة ، أو ضد هؤلاء الذين تمثل السلطة التى فى أيديهم ماينال الأولاد من حرمان على أيدى الجماعة . ويناقش

(هيلى) فى كتابه « الصراع العقلى وانحراف السلوك [1] » — وهو من أوائل الكتب القيمة فى هذا الميدان — طبيعة الصراع الذى يكمن وراء مظاهر هذا الجُناح عند الأحداث . فقد يتخذ التمرد صورة الفرار من البيت ، أو الهرب من المدرسة ، أوالكذب ، أو إنزال الأذى بالغير ، أو سرقة الزملاء ، أو الاشتراك فى إحدى العصابات التي تتكون بقصد السرقة ، والشجار مع العصابات الأخرى ، والسطو على المتاجر ، وغير ذلك من الأعمال التى تقع تحت طائلة القانون . ويمكن التمثيل لهذا الصراع بحالة غلام كان يعتبر من أحسن الأعضاء خلقاً فى أحد أندية الصبيان ، ولكنه فى إحدى الليالى اقتحم النادى خلسة بعد إغلاقه ، وحطم كل ما وصلت إليه يده . وعندما اكتشف أمره بعد ذلك لم ينكر ارتكابه لما حدث ، بل اعترف صراحة به ، دون أن يستطيع إبداء سبب لذلك .

وقد كانت الفترة التى نتكلم عنها موضوع دراسة فى السنوات الأخيرة ، وإن كانت الأسباب التى أفضت إلى بحثها تختلف عن دواعى هذه الدراسة . فنجد فى تقرير هادو [2] ميلا إلى اعتبار أن سن الحادية عشرة هى السن التى ينبغى عندها انتقال التلاميذ من المدرسة الابتدائية إلى مدرسة ثانوية من نوع يناسب استعداداتهم ، ويلائم نوع الأعمال التى يعتزمون القيام بها فى مستقبل حياتهم . على حين يعتقد عدد من المشتغلين بالتربية من مدرسين وإداريين أن تلك السن لا تلائم هذا الانتقال ، ويقترحون أن يتم ذلك فى سن الثالثة عشرة . وقد أجريت تجارب كثيرة فى هذا الموضوع ، ويبدو منها أن بعض النتائج توحى بأن المدرسة الثانوية أكثر ملاءمة للتلميذ الذى يبلغ من العمر ثلاث عشرة سنة منها لمن لم يتجاوز الحادية عشرة . وتنادى فئة ثالثة من الباحثين ، استناداً إلى نتائج أخرى غير السابقة ، بأن الفرق الأولى من المدرسة الثانوية ينبغى أن تنظم بشكل يلائم من

---

(1) W. Healy : « Mental Conflicts and Misconduct ».

(2) The Hadow Report .

بلغ سن الحادية عشرة ، إذ أنه يكون عندئذ أكبر من أن تناسبه المدرسة الابتدائية . ويمكن الرد على كل ذلك بأن فى الإمكان جعل الفرق العليا من المدرسة الابتدائية ملائمة لحاجات التلاميذ الذين تتراوح أعمارهم بين الحادية عشرة والثالثة عشرة .

ويبدو أن الجدل القائم يشبه ما ألف الناس قيامه فى الأسر التى ينتقل فيها الأطفال من عناية المربيات إلى أيدى المربين الخصوصيين ، حيث تدعى المربية أن الطفل قد حرم عنايتها فى وقت مبكر ، على حين يحتج الرائد بأنهم لم يعهدوا بالطفل إليه إلا فى وقت متأخر . وما دمنا نحاول أن نناقش المسألة من ناحية المناهج ومواد الدراسة فإن الجدل لن ينتهى بقول فصل . والنقطة القوية فى حجج المطالبين بتأخير سن الانتقال هى أن قليلا من الأطفال من يُظهر فى سن الحادية عشرة ميلا قوياً لاتجاه معين . كما أن اختباراتنا المهنية لم تصل بعد إلى درجة الكمال التى تجعل فى استطاعتنا أن نعتمد عليها فى التنبؤ بمستقبل الطفل وهو ما زال فى سن الحادية عشرة .

غير أننا إذا نظرنا إلى هذه الفترة التى تقع بين الحادية عشرة والثالثة عشرة على أنها فترة انتقال — وإنها فى الحقيقة لكذلك — فيمكننا عندئذ أن ندرك أن من الأفضل نقل الطفل عند هذه السن من المدرسة الابتدائية ، لا إلى مدرسة ثانوية من النوع المألوف ، بل إلى مدرسة تنظم نواحى النشاط فيها على أساس الحاجات النفسية لتلاميذ هذه السن ، فإنهم بذلك يستطيعون أن يتغلبوا على ذلك الصراع الذى يحول استمراره دون صلاحيتهم لعضوية الجماعة ، كما يمكنهم أن يدلّوا باختيارهم لأنواع النشاط التى يساهمون فيها على الميل الذى يتخذ أساساً لتحديد نوع التربية التى تلائمهم فى المستقبل .

الفصل السادس

حلم اليقظة والخيال العاطفى

كتب الأستاذ (ستانلى هول) فى كتابة عن المراهقة ، وهو من أوائل الكتب فى هذا الموضوع ، ما يأتى : « يعتبر البلوغ تاريخ ميلاد الخيال ، وحلم اليقظة هو ضوء الشفق الذى ينبىء عن إشراق الخيال . وإذا كان الخيال خصباً غنياً فإنه يستطيع إكمال كل نقص ، إذ يمنح الضعيف جسما رياضياً بديعا ، ويهب السائل المعدم ثراء عريضاً . ولا يدخل فى حسابه مقتضيات الزمان أو المكان . فهو فى إيجاز ملكة للتعويض والتكميل ، وفى دنياه تتحقق جميع الأمانى . وتدل مئات من الأحلام التى سجِّلت فى غير هذا المكان على أن الكثيرين من الأطفال الأسوياء لا يجدون أن كل ما يحيط بهم قد تضاءل فحسب ، بل إنه قد أصبح أيضاً قاتما معتما إذا ما قورن بأحلام اليقظة . فسن الطفولة تكون مفرطة فى النقص إذا أقفرت من ألوان الخيال . وإذا لم يكتمل نمو الملكات النقدية التى تعمل فيما بعد على القضاء على تلك الخيالات والأوهام ، فإن الصغير قد يصبح ذاهلا عما يجرى حوله ، أو ناسياً لما يدور فى بيئته تمام النسيان ، فلا يستجيب لندائها ، إذ يكون زمام أحلامه قد أفلت من يده فتصبح ألواناً من (الحصار) . ولا نكون مخطئين إذا ما وصفنا حالات الاستغراق والغيبوبة بأنها نوع من الانتشاء بخمر الخيال ، وتلك حالة كثيراً ما تنقلب عادة مكينة ، غير أنها بحكم طبيعتها لا تكشف عن نفسها للغير إلا فى أنواع من الاتجاهات العُصابية ، واضطرابات فى الاستجابات العادية ، مما يعزوه أفلاطون إلى طبيعة الفيلسوف الحقيقى . وإلى تلك المرحلة التى

تعتبر عتبة للحياة النفسية السوية يرجع كثير من القصص الذائعة ، ورفقاء الخيال ، والحيوانات التخيلية التى يستحيل أن يقرّ علم الحيوان وجودها ، وكذلك قصص المغامرات العاطفية التى يكون مؤلفوها هم دائما الشخصية المركزية فيها ، والتى تكون فى ذلك الوقت مصطبغة بلون الحقيقة إلى درجة كبيرة ، ولكنها وفقاً لقوانين الظواهر النفسية المتصلة بالمراهقة ليست ثابتة بل عارضة ، بحيث أن كل ماتحفل به من مناظر قد يعاود الظهور فى روايات أخرى[1] » .

وهكذا يتنبأ « ستانلى هول » بالآراء التى أصبح علماء التحليل النفسى يؤكدونها فيما بعد عن أحلام اليقظة ، وعلاقتها بالقيود التى تفرضها ظروف الواقع علينا . غير أنه لاينبغى لنا وقد اتسعت معلوماتنا عن حياة الأطفال المبكرة ، و بلغنا فى ذلك شأواً بعيداً ، أن نقرّ « هول » على رأيه القائل بأن ظهور أحلام اليقظة يبدأ عند سن البلوغ . كما يجب أن ننظر إلى رفاق الخيال ، والحيوانات التخيلية ، والقصص الذائعة على أنها بقايا أحلام يقظة حدثت فى أوقات مبكرة . غير أن مايسترعى الاهتمام فى أحلام اليقظة عند المراهقين هو « صبغتها العاطفية » .

ونجد فى العادة أن حلم اليقظة العاطفى يصور الحالم فى صحبة شخص من الجنس الآخر ، فقد يسير الاثنان جنباً إلى جنب ، أو يجلسان متجاورين ، أى أنهما يكونان عموما معاً . و ينصب التأكيد فى غالب الأحيان على الوسط الذى يوجدان فيه ، ذلك الوسط الذى يوصف دائما بأنه مفرط فى البهاء والروعة . و يكون المنظر غالباً فى الهواء الطلق حيث تضفى عليه التلال والأشجار والغابات والحدائق والزهور جمالا رائعاً . أما إذا كان المنظر داخلياً فإن الغرف تكون « أنيقة » ، أو « جذابة » أو « مؤثثة بأفخر الرياش » . و يتوقف مدلول تلك الألفاظ على اطلاع الحالم وخبراته إلى حد كبير . وتوصف الحالات الوجدانية التى تصحب مثل هذا الحلم بأنها سعيدة ممتعة . وقد يذكر الحالم فى بعض الأحيان أن لفظ « السعادة » لايصف

(1) Stanley Hall : « Adolescence » — vol. I., p. 313 .

الخبرة التي مر بها وصفاً دقيقاً ، لأن السعادة ذات صفة فريدة ، فيقول : « كنت كما لو أنّى رُفعت عن الأرض » ، أو « أحسست بأنى أخف من الهواء ». وليس هناك مايوحى بأن تلك الوجدانات قد تكون ذات صبغة شهوية ، كما أن الحالم لا تساوره أية ريبة شعورية فى إمكان ذلك ، وإلا فإنه ما كان ليقص حلم يقظته بمثل تلك الصراحة . وينبغى ألا يغيب عن بالنا أنه على الرغم من اهتمام الصبيان والبنات كل منهم بالآخر ، وميلهم إلى التواجد معاً أثناء سنوات المراهقة المبكرة ، فإن الكثيرين منهم لايكون عندهم وعى جنسى ، وإنما ترجع الانفعالات السارة فى حلم اليقظة إلى مجرد اجتماع الجنسين ، على الرغم من أن الحالم لايدرك فى وضوح السبب الذى يجعل ذلك الأمر يؤثر فيه مثل هـذا التأثير الممتع . كما أن تلك الانفعالات قد تنسب فى بعض الأحيان إلى رواء المنظر ، أو أريج الزهور ، أو أهازيج الطيور .

وعلى الرغم من أن اعترافنا بحدوث أحـلام اليقظة المبكرة يضطرنا إلى الاختلاف مع « هول » فى أن المراهقة هى « تاريخ ميلاد الخيال » ، فإنه لايسعنا أن نشك فى اختلاف أحلام اليقظة العاطفية عن الأحلام التى سبقتها فى مراحل النمو المبكرة من حيث كثرة ما تحفل به من صور مختلفة . ويبدو أن الخيال فى سن المراهقة يكون أكثر نضجاً منه قبل ذلك . وكل ما يحدث فى هذه السن هو أن الذكاء الذى تقيسه اختباراتنا العقلية ، يكون قد بلغ أقصى نموه ، ولعل هذا الاتفاق لا يخلو من مغزى ودلالة .

وقد يكون غنى أحلام اليقظة العاطفية بشتى ألوان الصور راجعاً إلى ماتيسره الخبرات السابقة للافراد من مادة تشتق مباشرة من الحياة نفسها ، أو من الكتب وسائر المصادر التى تزود المراهقين بالمعلومات ، وكذلك إلى أن أحلام المراهقة تكون مسبوقة بأحلام الطفولة المتأخرة والصبا ، وينبغى أن ندخل فى حسابنا أيضاً

ذلك الكبت الشديد الذى يصيب الحوافز الجنسية (بمعناها المألوف) ، ومايرتبط بها من انفعالات عنيفة .

وقد قصت فتاة فى السادسة عشر من عمرها تقريباً ، وهى من عائلة رقيقة الحال تعيش في إحدى ضواحى لندن ، أنها كانت ترى كل ليلة ، قبل ذهابها إلى فراشها ، حلم يقظة تظهر فيه حجرة جميلة ذات ألوان هادئة ، عاجية أو قرنفلية ، بها نافذة ضيقة تحتها مقعد ذو وسائد . ولا تذكر الفتاة إذا كان بالغرفة أزهار ، ولكنها تذكر أن هذه الحجرة كانت تضوع بأريج الزهور . وكانت النافذة تطل على الحديقة حيث تبدو أشجار الفاكهة وقد تفتحت أزهارها . وكان يجلس إلى جوارها على المقعد ذى الوسائد شخص يبادلها حديثاً فيه عذوبة ورقة . . . يستطيع من قرأ شيئاً عن الشعر الغزلى، وخاصة تلك القصائد الشرقية التى تمثلها « أنشودة سليمان » أصدق تمثيل ، أن يدرك على الفور مغزى تلك الصور التى كان يتكرر ظهورها فى أحلام اليقظة عند الفتاة . غير أن تلك الأحلام جميعاً ، على ما بها من متعة ورواء ، كانت فى نظر الفتاة غريبة غير مفهومة ، إذ هى لا تذكر من خبراتها الماضية ، أو مما قرأته فى الكتب ، ما قد يوحى إليها بتلك الرموز التى استخدمتها . ولذلك فإنها أخذت تفخر بأن أحلام يقظتها كانت من ابتكارها . وقد وصفت تأثيرها الوجدانى العام بأنه من النوع الذى يورث اللذة والراحة النفسية .

إننا نرى فى هذا الحلم أيضاً رفيق خيال يذكرنا برفقاء الخيال الذين لاحظنا وجودهم فى لعب صغار الأطفال وأحلام يقظتهم . فهل نستطيع إذن أن نفترض هنا وجود حالة كبت ، ونكوص إلى مرحلة مبكرة ، بدلا من الانتقال إلى مرحلة متقدمة من مراحل النمو السوىّ ؟ قد يكون الأمر كذلك . ولكن الأكثر احتمالا هو أن الرغبات الأنانية التي تميز المرحلة المبكرة لم يتم التخلص منها ، بل أنها كُبتت ، فعادت الآن إلى الظهور تنشد الإشباع . فمنظر الغرفة الهادئة ، العبقة بالعطر ، ذات الألوان الهادئة ، تشبه إلى حد كبير « البرج العادى » ، أو الحصن

الصغير الذى سُجنت فيـــه (راپونزل) [١] ، أو البرج الذى كانت (سيدة شالوت) [٢] تجلس فيه إلى مغزلها ، وتطيل النظر فى مرآتها . فهو يشير إلى الانسحاب من العالم الخارجى ، وهـذا هو ما يعنيه ابتداع رفقاء الخيال ، أو الانشغال بالدمى واللُّعب .

فنحن إذن أمام حالة « هرب » من العالم الواقعى الذى تعرفه الفتاة . فهى تقضى نهارها فى المدرسة حيث تقوم بأعمال تتطلب انتباهها الشعورى ، وجهدها الإرادى ، وتشترك مع زميلاتها فى أداء ضروب شتى من النشاط العادى ، وهذا مفروض أنه يشبع جانباً من حاجاتها النفسية . ولـكن يبقى بعد ذلك جانب آخر من الرغبات والأمانى التى لم تنل الإشـباع ، فلا تجد الفتاة وسيلة إلى ذلك الإشباع الذى تشتهيه إلا عند الابتعاد عن مدرستها وأسرتها ، والانفراد بنفسها ، حيث تستطيع أن تخلق لنفسهـا ملجأ موهوما ، ورفاقا خياليين ، تستمتع بصحبتهم . وعندئذ تسلم عيونها لسلطان النعاس بعد أن تـكون قد أصابت إشباعاً ملائماً ، وإن كان غير كامل .

ويدور حلم هذه الفتاة حول أمر يحتاج إلى دراسـة ومناقشة . ويدرك من قرءوا كتاب « تأويل الرؤى » لفرويد [٣] ، أو رسالة « نظرية الرمزية » لإرنست جونز [٤] ، أن الرموز المختلفة التى ظهرت فى الحلم إنما هى قبل كل شىء وسائل غير مباشرة لتمثيل جسد الفتاة ، غير أن الفتاة لا تشعر بأنها كذلك ، ولهذا نراها تتحدث فى غير موار بة عن اللذة التي تشعر بها عند تأملها ، وتصفها بالجمال .

---

(١) بطلة قصة خرافية لوليام موريس . وهى طفلة صغيرة ذات جدائل مفرطة فى الطول والجمال من الشعر الذهبى . سجنتها إحدى الساحرات فى البرج فكانت تدلى شعرها ليتخذ منه أميرها المحبوب سلماً يصعد عليه إليها (المترجم)

(٢) ذكرها (تنيسون) فى إحدى قصائده الشهيرة ، وكانت لا ترى العالم إلا خلال مرآتها . (المترجم)

(٣) Sigmund Freud : « The Interpretation of Dreams » .

(٤) (2) Ernest Jones : « The Theory of Symbolism » .

وتلك هى النظرة العاطفية إلى الجسد البشرى . ولقد أطنب كتّاب المدرسة الرومانتية ، مثل (بيرون) و (مور) وغيرهما ، فى التعبير عن الإعجاب بالجسد البشرى ، فكانوا يقارنون أجزاءه بكل مافى الأرض والسماء من أشياء تصلح لتلك المقارنة . وقد سايرهم « شكسبير » فى ذلك ، غير أننا نجده فى لحظات التفكير الهادئ يصف تلك الموازنة بأنها موازنة « زائفة » . ولا شك أن مما يثير الاهتمام أن نجد فتاة صغيرة السن تستخدم خيالها فى حلم يقظتها ، دون قصد ، لنفس الغرض الذى كان يرمى إليه أشد الشعراء العاطفيين إسرافا . أليس حلم يقظتها جميعه يبرز جمال جسدها — من حيث بهاء الصورة ، ورقة اللون ، وأريج الزهر ؟ — ، وكذلك حقها فى الإعجاب والاستمتاع به إلى أقصى حد ، حتى ولو شاركها غيرها فى ذلك ؟

ولا شك فى أن تلك النظرة إلى الجسد نظرة وثنية غير أخلاقية . وقد بذل مجتمعنا كل جهد مستطاع للتخلص منها ، كما أن كثيراً من المذاهب الدينية تعارضها فى شدة وعنف . وهى أيضاً تخالف معظم ما تعلمته الفتاة ، وما شبت عليه فى البيت والمدرسة منذ نشأتها الأولى .

ونستطيع أن نملأ صفحات كتاب باقتباس مقتطفات من أقوال الفلاسفة ، ورجال الدين ، والفنانين ، وعلماء التشريح ، والمؤلفين ، والشعراء ، وكلها تعبر عن آرائهم فى جسد الإنسان ، وعلى الأخص جسد الأنثى ، وتتراوح تلك الآراء بين القول بدمامة الجسد البشرى ، أو الإشادة بجماله ونبله . « فسفر التكوين » مثلا يذكر أن الإنسان قد صيغ على صورة الخالق ، ولذلك لا يرى حرجاً فى التحدث عن جماله « الإلهى » ، بينما يرى (شوبنهور) أن الرجل لا يرى فى جسد المرأة أى جمال إلا عند ما يكون واقعاً تحت سلطان الشهوة الجنسية . ويقال أن محلّفى أثينا شعروا باستحالة ارتكاب (فيرن) أى جرم وهى على تلك الدرجة من الجمال الطاغى الأخاذ ، ويبدو أن (سويفت) كان يرى أن البشر

عادات بغيضة ، وشكلا كريهاً ، بحيث أننا لو قارناهم بالخيل لكانوا مثاراً للسخرية . ولذلك نجده يصورهم فى (ليليبت) على شكل أقزام كى يظهرهم فى صورة مخلوقات قميئة تثير الاحتقار ، على حين يصورهم فى (بروبدنجناج) عمالقة ، بقصد الإسراف فى تضخيم نقائصهم وعيوبهم . ولكن (ملتون) ، على الرغم من أنه كان من طائفة المتطهرين ، فإنه قد عبر بتحفظ عن تقديره لجمال حواء قبل الزلة ، ولبهاء صورة (أورورا) و (ونيبرا) .

غير أن اهتمام الطفل الصريح بجسمه ووظائفه ، واستمتاعه بذلك ، يصطدم بحظر الآباء وغيرهم ممن يكون عليهم أن يعلموه الرعاية الصحية لوظائف الجسم ، ويطلبون منه فى إصرار أن يساير مقتضيات العرف الاجتماعى . فيتعلم الطفل من ذلك أن كثيراً من الأمور السارة الممتعة فى نظره يعتبر « قذراً » أو « غير لائق » ، ويجد نفسه مضطراً لقبوله على أنه كذلك ، دون أن يستطيع بإدراكه الضئيل أن يدرك الأسباب التى تدعو لمثل تلك التقديرات . كذلك يتعلم أن يكون « نظيفاً » و « محترما » و « حسن السلوك » و « متواضعاً » ، إلى أن يأتي عليه وقت يشعر فيه بخجل حقيق من مخالفة العرف المفروض عليه . فيكون قد كبت بذلك أشياء كثيرة أودعها عقله اللاشعورى ، ولكن الحوافز التى كانت تفضى إلى إتيانه ما كان يأتيه من أعمال قبل فرض تلك القيود تظل ناشطة فعالة ، فتدفعه إلى مخالفة قواعد العرف مادام فى استطاعته أن يتجنب حدوث صدام بينه وبين المجتمع ، ولذلك يرحب الكثير من الناس بفترات الاستحمام التى تتاح لهم فى المصايف الساحلية ، أو معسكرات العراة .

ولكن يبدو أن التغييرات الجسمية التى تصحب المراهقة تؤدى بالفرد حتما إلى توجيه انتباهه إلى جسده ، مما يجعل الحافز إلى تبين مافى الجسد من جمال وإثارة يعاود التعبير عن نفسه ، ويصبح ذلك على أكبر جانب من الأهمية البيولوجية لأن الفرد يحب ، عندما يكون راغباً فى التزاوج ، أن يظهر جسده بديعاً

جذابا فى أعين أفراد الجنس الآخر . ولكن قوة الكبت تحول دون التعبير المباشر عن جمال الجسد ، فيتم ذلك التعبير بصورة رمزية . ويمثل الحلم الذى بسطناه ذلك كما أن فى استطاعتنا أن نذكر له أمثلة أخرى كثيرة .

فحلم البطل الذى أشرنا إليه من قبل يتكرر حدوثه للصبِّية ، غير أن صورته تكون قد نالها التغيير والتعديل . ويمكن اقتباس الحالة الآتية لتمثيل ذلك تمثيلا واضحاً : يرى الحالم حصانا قد جمح براكبه ، واندفع فى طريقه ، ويكون ذلك الراكب فتاة . ودون أن يكترث الحالم بما قد يتعرض له من أخطار يسرع نحو الحصان ، ويمسك بلجامه فيوقفه ، ثم يعين الفتاة على الترجل ، ويصحبها إلى حيث يقابل والديها اللذين يقدمان له شكرهما ، ويدعوانه لمرافقتهما إلى بيتهما ، حيث يكرران له الشكر ، ويثنيان على بطولته .

نلاحظ فى هذا الحلم عناصر تشترك فيها أحلام يقظة البطولة عند صغار الأولاد ، غير أننا نرى فى الوقت نفسه فروقا تضفى عليه لونا « عاطفياً » ، فالشخص الذى ينقذه البطل فتاة ، وليس هناك وجود لجمهور المعجبين ، وهذا يوحى بأن استحسان الجماعة لأعمال البطولة ليس جزءاً من الإشباع الذى ينشده الحالم .

كذلك نجد عنصراً هاماً آخر . فالغلام الذى قص الحلم ذكر أن أبوى الفتاة كانا من طبقة اجتماعية تسمو على طبقته ، مدلّلا بذلك على أنه ما كان يستطيع دخول بيت الفتاة أو التعرف إليها واكتساب صداقتها لولا ما أوتيه من شجاعة ونخوة . فهو إذن قد تمكن بإقدامه من أن يعبر الثغرة الاجتماعية التي تفصل بين طبقتيهما ، وأن يتغلب على المعارضة التى تقيمها التقاليد العتيقة . فهو قد استخدم القوة فى إنقاذ الفتاة من الجواد الجامح ، كما أنه أخذها من والديها برضاهما . فكأنهما بذلك قد قبلا التوفيق بين مركزين اجتماعيين مختلفين .

ونجد أنواعا شتى من التعبير عن فكرة « التوفيق » هذه فى كثير من الكتب التى ليست سوى صور مختلفة لحلم اليقظة ، إذ نرى فى بعض منها شخصاً

يمثل النظام القديم ، أو أحد النبلاء الفرنسيين ، أو واحداً من أولئك السادة الأمريكيين الذين حاربوا فى صدر شبابهم من أجل اتحاد الدويلات الأمريكية فى الحرب الأهلية ، وأن هذا الشخص يصطدم بالنظام الجديد السائد ، الممثل فى الشاب الذى وقعت ابنته فى غرامه . وقد تتخذ القصة بعد ذلك تطورات مختلفة ، غير أن الخاتمة تكون إجمالا كما وصفناها فى حلم اليقظة عند المراهق . فبطوله الشاب تترك فى نفس الأب أثراً عميقاً يفضى إلى التوفيق بين الرجلين ، وزواج الشاب بالفتاة .

ولسنا فى حاجة لأن نؤكد أن الشاب الذى يظهر فى حلم اليقظة يكون صاحب الحلم نفسه أو ممثلا له . فالكهل رمز ذلك النظام القديم ، الذى يكون الشاب متمرداً عليه ، يمثل القوم الذين حاولوا أن يفرضوا على البطل بالقوة مثلا عمليا ومعايير خاصة . وأولئك هم بالترتيب الأب ، فأفراد الأسرة ، ثم من يأتى بعدهم من المعلمين والأطباء ورجال الدين . وهم جميعاً يملكون سلطة يحاولون فرضها عن طريق سمو مركزهم ، وعلو منزلتهم . ويكبر الأطفال ويسعون فى الحياة دون أن يحسوا كرهاً نحو آبائهم ، فإن الرغبة فى موتهم أو رحيلهم أو تغيبهم مدة طويلة مستمرة تكون قد كبتت فى اللاشعور منذ وقت طويل . ومع ذلك نجد لحياة الأطفال تاريخاً حافلا بضروب التمرد العرضى على النظام فى المدرسة والبيت والكنيسة ، مما يشير إلى استمرار بغضهم للسلطة ، حتى ولو كان الذين يستخدمونها ممن يحبهم الفرد من نواح كثيرة . فنرى بعض الأولاد يكثرون الهرب من المدرسة ، كما أن بعضهم تظهر عليه من حين لآخر أمراض عصبية تتيح له التغيب عن المدرسة . وحتى أولئك الذين يكونون متقدمين فى دراستهم ، ومحبوبين من مدرسيهم ، لا يكتمون ابتهاجهم بحلول موعد انتهاء موسم الدراسة . وكثيراً ما يُسر الأولاد كذلك لتغيب أحد مدرسيهم بسبب المرض ، ونراهم يعبّرون عن ذلك بأشكال مختلفة تتضمن فى جملتها ما معناه : « حسنا ! الآن سوف يتاح لنا

وقت هادىء لفترة من الزمن » . وتمر بالمدرس حالات كثيرة من الأفعال الصبيانية التى تنبىء عن روح المشاكسة ، مثل المخالفات البسيطة للنظام ، الأمر الذى لا يعود على مرتكبيه بشىء من النفع ، ولكنه يكون مجرد تعبير عن كراهيته لسلطة المعلم . وتفضى مثل تلك الفعال إلى نتيجتين : فهى تسبب مضايقة للمعلم ، وتثير غضبه فى بعض الأحيان ، كما أنها تضطره إلى أن يوجه انتباهاً خاصاً إلى التلميذ كفرد . فمن الناس من يفضل أن يعامل معاملة سيئة كفرد على أن ينال معاملة حسنة يشترك معه غيره فيها . وكم رأينا أثناء الحرب ، والسنوات التالية لها ، كثيراً من الناس يصرون على طلب معاملة خاصة تختلف عن تلك التى يعامل بها غيرهم وذلك من حيث كميات التموين والوقود . ونحن بطبيعة الحال لا نعنى بقولنا هذا أولئك الذين كانت بهم حاجة ماسة إلى تلك المواد ، بل أولئك الذين لم يكن لديهم على الإطلاق سبب يبرر تلك الرغبة . فكانوا يضيعون وقت الموظفين سدى لغير ما سبب سوى كرههم للمساواة بغيرهم فى المعاملة . لأن بعض أنواع تقدير الذات تؤكد لنا اختلافنا عن غيرنا من الناس مما يفضى إلى كراهية النظم والقوانين التى تضع الأفراد جميعاً على قدم المساواة . وهى تعبر عن نفسها بإظهار مميزاتنا على غيرنا عن طريق المطالبة بالمعاملة الخاصة ، والإعفاء من القوانين ، وعن طريق ردود الأفعال التى تتيح لنا التعويض عن إحساسنا اللاشعورى بالدونية .

ومما لا شك فيه أن هذه الاتجاهات ترجع إلى سن الطفولة المبكرة . فالوليد شخص ممتاز ، يتمتع بمعاملة خاصة من والديه ، وخصوصاً إذا كان الطفل البكر ، أو كان أصغر الأبناء . ويحتمل ألا تكون تلك الفترة حافلة تماماً بذلك القدر من السعادة التى ينسبها الشعراء إليها . ولكن ميزاتها الكثيرة لا تقدر إلا بعد فقدها ، وعندئذ يحدث إسراف فى الإشادة بمحاسن الطفولة المبكرة ، مما يجعلها تبدو كما لو كانت فترة نعيم مقيم . وقد كان الناس يجدون فى هذا الوهم متعة كبرى

كما أن البشرية قد جنت منه نفعاً متعدد الصور ، إذ حاول عدد من الأفراد الأكفاء إبدال الحقيقة وصبها فى قالب ذلك الحلم من أحلام اليقظة الذى يدور حول ذلك الكمال المفقود ، فحاولوا أن يقيموا على الأرض فرادس ومجتمعات كاملة ، وكانوا يحسون فى ذلك بما يشبه المتعة التى يحس بها أولئك الذين ينطلقون وراء آمال عريضة ، وغايات بعيدة ، قد لا يتحقق منها شىء على الإطلاق . ولقد أفادت جهودهم الكثيرين غيرهم . ولكن جنة الأطفال لن تستمر فيها الدعة والسلام ، إذ يقتحمها عليهم الأب الصارم المتسلط الذى يفرض النظام عليهم ، ويطلب منهم أن يكونوا مسئولين عن أعمالهم . وهنا تصبح تلك الجنة الوادعة الآمنة بيئة جافة مجدبة . ولذلك نرى (سندرلا) تطيل التفكير ، أثناء عملها بالمطبخ ، فى تلك الفترة التى كانت تنعم فيها بحنان أمها وعطفها ، قبل أن تجىء تلك المرأة التى أكرهتها على القيام بعملها البغيض . ولا تنتهى حياة الواقع وما فيها من متاعب وآلام إلا عند ما يظهر المحب الذى يرفعها ثانياً إلى علياء سمائها المشتهاه ، ويشاطرها حياتها فيها .

ويندر بغير التحليل أن يستطيع الراشد أن يتذكر طبيعة اتجاهه اللاشعورى أو مداه ضد الأب الذى يكون قد ارتبط بالقيود المفروضة عليه ، لأن هذا الاتجاه ينمو عادة فى الوقت الذى يبدأ الطفل فيه أن يدرك أن أباه ليس فى الحقيقة محيطا علماً بكل شىء ، أو له قدرة شاملة ، أو معصوماً من الخطأ . وقد استطاع (إدموندجوس) فى كتاب « الأب والابن[1] » أن يستعين بذكريات طفولته فى تقديم وصف رائع لهذه المرحلة . فالرغبات العدائية ضد الأب تكبت كبتاً تاماً لدرجة أن معظم الرجال والنساء لا يكون فى مقدورهم أن يؤمنوا بإمكان

---

(١) Sir Edmund Cosse : "Father and Son" والمؤلف كان من أبرع النقاد والكتاب فى إنجلترا ، كتب تراجم حياة عدد من العظماء ، وكان أمينا لمكتبة مجلس اللوردات عام ١٩٠٤ . وقد كتب « الأب والإبن » عام ١٩٠٧ ، ويعتبر هذا الكتاب قصة حياته المبكرة . (المترجم)

وجودها إطلاقا . وهم إذ يعترضون بحدة على تأكيد وجودها ، بدلا من مقابلة ذلك التأكيد بابتسامات الاستخفاف ، إنما يتيحون لنا أن نفترض وجود أسباب تدعو إلى الاعتقاد بأن للأمر مدلولا شخصيا بالنسبة إليهم ، ولو أن مجرد اعتراضهم واحتجاجهم لا يقطع طبعاً بوجود تلك الرغبات المبكرة . وتؤيد ملاحظة نمو صغار الأطفال بشكل دقيق منزه عن الهوى ، وجود رغبات عدائية قوية ضد الأب منذ وقت مبكر ، حتى ولو ظهر على الطفل فى بعض الأوقات ما يوحى بأنه يكنّ لأبيه أشد الحب .

وقد يخيل إلينا أن هناك تناقضاً فى القول باجتماع حب شخص و بغضه فى آن واحد . ولكن تلك حقيقة واقعة تؤيدها أمثلة كثيرة . غير أن بغض الأب ، والخوف منه ، وحبه ، لا يمكن أن تجتمع معاً فى عاطفة متزنة مرتبطة بالأب . فكلما ازداد الطفل فهما للأسباب التى تحدو بالأب إلى فرض النظام ، فإن الخوف والعداء لا يموتان ، بل يظلان كامنين فى أغوار اللاشعور ، ويكونان على أهبة الاستعداد للارتباط بالأشخاص أو النظم التى تقسر الفرد على أن يمر ثانية بمثل تجاربه المبكرة مع أبيه ، مما يؤدى إلى أن يتخذ من أولئك الأشخاص ومن تلك النظم « بدائل للأب[1] » وهكذا فإنه قد ينقل عداءه القديم لأبيه إلى المدرس ، أو إلى رجل الدين ، أو إلى الطبيب . كما أنه قد يحوله نحو نوع معين من الدين ، أو الآلهة ، أو « رأس المال » ، أو « العمل » ، أو « الاستعمار » ، أو قد ينقله إلى زعيم سياسى معين ، أو حزب من الأحزاب ، أو بعض أنواع الحكومات . ولذلك نرى من حين لآخر أفراداً يعتنقون مذاهب سياسية تخالف المذاهب التى كانت تحظى بتأييد آبائهم ، ثم نجدهم بعد ذلك يؤازرون حزب الأب بعد فترة مقاومة يكونون قد قاموا أثناءها « بدراسة » السياسة ، مما يجعل فى استطاعتهم أن يقنعوا أنفسهم بأن تحولهم كان نتيجة للتفكير السليم المتزن .

(1) Father Substitutes.

ومع ذلك لا ينكر أحد أننا عندما نحاول اكتشاف السر فى إصرار أحد الأفراد على معارضة مذهب سياسى أو دينى فإننا كثيراً ما نجده قائماً على أهواء قد تغلغلت جذورها فى أعماق اللاشعور ، كما نجد أن الغرض من دراسته لتلك المذاهب لم يكن إلا وليد الرغبة فى إقناع نفسه بسلامة اتجاهه . وبذلك تكون النتيجة سابقة على الدراسة . وقد يظهر الاتجاه العدائى فى العطف على الثوار عامة ، أو تأييد حركات المعارضة أيا كان لونها . وعندما نصادف أشخاصاً فى مظهر وادع يقبعون فى دورهم فى دعة واطمئنان ، ويأخذون فى التعبير الهادىء عن إقرارهم لتلك الفصول العنيفة فى فلسفة (نيتشه) ، أو يتحدثون عن استحسانهم لأعمال القسوة والوحشية التى تصدر عن دكتاتور فى إحدى البلاد البعيدة ، فإننا عندئذ نستطيع أن نستنتج وجود نظام لا شعورى من الاتجاهات ، أى عقدة[1] ، من النوع الذى نتكلم عنه .

فموقف الخيال العاطفى الذى يظهر فى حلم اليقظة ، أو القصة الشبيهة به ، أو فى الحياة الواقعية فى أحيان كثيرة ، يضم ، صراحة أو ضمنا ، شخصاً أو عدة أشخاص يذكرون الفرد بأبيه فى طفولته . فالسيدة التى يريد الرجل الزواج منها تكون من أسرة ينبغى الحصول على موافقتها حتى يمكن للزواج أن يتم . كذلك نجد أن كلا من الدولة والكنيسة على السواء تفرض على الزواج قيوداً مدنية ودينية . كما ينبغى بجانب ذلك كله مراعاة العرف المألوف والنظم السائدة . فالزوج عليه أن يتحمل مسئوليات تقتضيه عادة أن يستقل بشئونه الاقتصادية قبل الزواج . وكل تلك الأمور مجتمعة تعنى قيام عقبات تعرقل تحقيق الرغبة فى الزواج وتدور بعض أحلام اليقظة العاطفية ، وبعض قصص المغامرات العاطفية ، حول أبطال يستطيعون التغلب بالقوة على كل تلك الصعاب ، كما فى قصيدة « لوكينفار » للروائي الشهير « ولتر سكوت[2] » . كذلك نرى التمثيل للزواج باستيلاء الزوج

(1) Complex.

(2) Sir Walter Scott : "Lochinvar".

على الزوجة ما زال سائداً فى حفلات الزواج عند بعض الشعوب .

وقليل من النظم ما يشبه نظام الزواج من حيث ما يحف به من قيود وقواعد وهذا يصدق على الشعوب البدائية صدقه على حضارتنا الحديثة . ولهذا نجد فى إنجلترا مطالبة مستمرة بتغيير بعض القيود ، أو تعديل بعض القواعد . كذلك نلاحظ أن الزواج من أكثر النظم تعرضاً للدعابة . ولقد أثبت فرويد فى كتاب « سرعة الخاطر واللاشعور[1] » أن كثرة الفكاهات تنمّ على عداء نحو الشخص أو النظام الذى يكون محور النكته .

ويمكن وصف الموقف بشكل بسيط . فأمامنا رجل متقدم فى السن يسيطر على فتاة ، والجماعة كلها من ورائه معترفة بحقوقه ، مؤازرة لها . ولدينا شاب قد اعتزم أن يأخذ الفتاة زوجا له ، ولكنه يلقى معارضة من الرجل الآخر الذى تعضده الجماعة . فلا بد له إذن من التغلب على تلك المقاومة .

وتتخذ المعارضة صوراً شتى يكون لكل منها مدلول خاص فى ضوء ما ذكرناه عن العلاقة القائمة بين الأب والابن فى مرحلة الطفولة المبكرة . فقد يكون الشاب ابناً لعائلة منافسة ، كما فى « روميو وجولييت » (لشكسبير) ، أو يكون فقيرا ، أو من أسرة أدنى فى المركز الاجتماعى من الأسرة التى يرغب فى مصاهرتها ، أو على دين يختلف عن دين الفتاة ، أو أجنبى الجنسية ، أو يحترف عملا لا يرضى عنه والد الفتاة .

وهنا يعود الصراع بين الابن و « بديل الأب » مرة أخرى إلى الظهور ، غير أن الهدف المنشود يكون فى هذه المرة مختلفاً . وقد يحدث قتال مسلح بين قبيلة الفتاة وأتباع الفتى ، أو قد يلتقى ممثلو الطرفين لمحاولة الوصول إلى حل ودى . وقد تصور قصة الغامرة العاطفية ، مثل قصة « ابنة اللورد أولين »[2] ، كيف أن الأب القاسى يرفض الإذعان . ثم مقدار ما ينتابه من الغم عندما يرى ابنته

(1) Sigmund Freud : "Wit and the Unconscious".
(2) "Lord Ullin's Daughter"

تنتزع منه ، بعد أن تكون قد فضلت فتاها عليه ، ومدى خيبة آماله إذ يبصر الاثنين ينطلقان معا ، و يخلفانه وراءهما نهبا للندم وفريسة للأحزان . ولهذه القصة صور كثيرة متنوعة ، ولكن معظمها يدور حول الطريقة التى يستطيع بها الشاب أن يقضى بفعاله أو مهارته أو بطولته على كل معارضة و يكسب الفتاة . فهو ينتصر على الأب ، و يجرده من كل ماله قيمة فى نظره ، شأنه فى ذلك شأن سائر المنتصرين .

وقد تكلم (ميريديث) عن الحب على أنه « كرنيڤال الأنانية » ، إذ من المؤكد أن فترة الخيال العاطفى فى حياة الشاب هى الفترة التى تعود فيها إلى الظهور ، فى صورة موشاة ، أحلام اليقظة الأنانية التى حدثت له من قبل فى فترة النمو المبكرة ذات الصبغة الأنانية . ومما لا يخلو من مغزى أن يكون من بين عادات الزواج السائدة أن يلبس العروسان يوم زفافهما فاخر الثياب . و يركبان عربة أنيقة يتبعها لفيف من المعارف والاصحاب . كما أنهما فى بعض البلاد قد يضعان تاجين على رأسيهما ، أو يدعوان باسم الملك والملكة . والزوج فى مثل تلك المواكب التمثيلية يحتل مركز أبيه لأنه أصبح رب أسرة . وذلك نفس ما يحدث له فى الحياة الواقعية . و يوحى حلم اليقظة العاطفى بأنه على الرغم من التعديلات التى أدخلها رقينا الاجتماعى ، وتقدمنا الاقتصادى ، على المعنى الحقيقى للزواج ، وصوره الظاهرية أيضاً ، فإن مدلوله السيكولوجى بالنسبة للعقل الباطن ما زال مرتبطا بأسلوب الخيال العاطفى البسيط الذى أتينا من قبل على وصفه .

و يمكننا أن نرى فى مجتمعنا الحديث زيادة كبيرة فى عدد القيود التى تعترض سبيل الشباب . فقد كان فى وسع كل شاب فيما مضى أن يرغب فى الزواج ، وأن يستقر فى أسرة خاصة به ، وذلك بمجرد تجاوزه التاسعة عشرة من عمره ، أو ربما قبل ذلك . ولكن ذلك ليس فى مقدورنا الآن ، فإن مطالب الحياة المتحضرة قد أفضت إلى ضرورة تحصيل العلم إلى سن متأخرة ، يعقبها التدريب المهنى وفترة

التمرين ، وهذا يجعل كسب القوت قبل من العشرين أمراً متعذراً . يضاف إلى ذلك ان مستويات الحياة قد أصبحت مرتفعة ، كما أن نفقات الضروريات قد تضاعفت . فالمساكن غير مريحة ، و إيجاراتها عالية ، والأثاث غالى الثمن ، ونفقات المعيشة فى ازدياد مطرد . كل ذلك يعنى أن عهد الشباب يكون قد أدبر قبل أن يصبح الفرد فى مركز يتيح له أن ينشىء بيتاً و يعول زوجة . وغالباً ما يؤجل الزواج أكثر من ذلك فى حالة أصحاب الحرف والموظفين وغيرهم .

ومن نتائج ذلك أن يجد الصراع الذى رأيناه يعبر عن نفسه فى صورة « كسب » امرأة بأخذها من أبيها ، صورة أخرى من التعبير ، إذ أن العداء اللاشعورى نحو الأب يتجه بشكل شعورى نحو النظام الاجتماعى القائم الذى ينظر إليه على أنه نظام عتيق يقاومه جماعة من الشبان الأقوياء المتحمسين الذين يبتغون الفرصة لإقامة نظام أفضل . وهذا يفسر قيام حركات الشباب فى بعض البلاد منذ أكثر من قرن . و إن مما يؤسف له أن تكون جماعات الشباب هى التى آزرت حركات موسوليني فى إيطاليا ، وهتلر فى ألمانيا .

ومن السهل طبعاً أن نشير إلى أن (وليام بت) كان رئيساً لوزراء بريطانيا العظمى وهو فى سن الحادية والعشرين وقد كنا نجد فى الماضى أن زعماء الأمم ، وقادة الجيوش ، وأساتذة الجامعات ، ومستشارى الملوك ، كانوا من الشبان الذين لم تكن سنهم قد تجاوزت تلك السن التى ما زال فيها شباب اليوم يوالى دراسته . غير أن من الإنصاف فى الوقت نفسه أن نذكر أن ما نراه اليوم من المطالبة « بإتاحة الفرصة للشبان » لا يرجع إلى أن من ينادون بها يعتقدون أن لديهم من الكفاية ما يؤهلهم لشغل مثل تلك المناصب الخطيرة ، بل يرجع إلى ذلك القلق الذى يعبر عن نفسه بهذه الصورة . ومن الواضح أن عدم الرضى هذا ينبغى أن يكون مشعوراً به . فالحياة قد تغيرت فى نواح شتى بحيث أن المسئوليات الملقاة على عاتق الشباب قد أصبحت مضاعفة ، كما أن ما ينشده أولئك الشباب من

إشباع بات يؤجل إلى آجال غير محدودة . كذلك ليس لدينا إلا القليل من النظم التى تستطيع أن تعوضهم عن ذلك الإشباع المشتهى الذى سلبوا إياه . يضاف إلى هذا إن طرائقنا فى الحياة قد أصابتها تغييرات شتي دون أن يحدث ما يقابلها من تكييف ملائم يجعل تلك التغييرات ثابتة محتملة . ولو حاولنا أن نبحث عن أسباب هذا التوتر الذى يفضى إلى قيام حركات الشباب ، أو أردنا أن نفهم الماهية الحقيقية لعدم الارتياح القائم الذى له ما يبرره ، لن نجد ذلك فى تلك العبارات المتزنة المثيرة للجدل التى تحفل بها نشرات الدعاية لتلك الحركات ، بل نجده فى أحلام اليقظة التى تجد فيها الرغبات الجوهرية الملحة حاجتها من التحقيق . ففى حلم اليقظة العاطفى نعثر على المدلول الحقيقى للعالم الجديد الذى ينشده الشباب . كما نلمس كيف أنه إذا أخفق فى الحصول عليه فى العالم القائم ، فإنه يسعى للوصول إليه كالمحروم ، عن طريق تلك الحركات التي قد تكون متزنة أو عنيفة ، أو يحاول أن يظفر به بين الظلمات فى دور الخيالة .

الفصل السابع

مراحل النمو

نستطيع الآن ، وقد فصلنا الأنواع المختلفة لأحلام اليقظة التى تحدث فى فترات مختلفة من حياة الكائن البشرى قبل البلوغ ، أن نبحث فيما إذا كانت هذه الفروق فى طبيعة حلم اليقظة تقابل فروقاً فى الفرد . وهذا يؤدى بنا إلى بحث الوسيلة التى يتطور بها الفرد من طفل إلى راشد .

إن من الآراء التى قلّ أن نجد من يؤمن بها اليوم أن الطفل يصبح راشداً بمجرد تقدم سنه نمو جسمه ، بحيث يمكن اعتباره منذ البداية « رجلا صغيراً » . وذلك هو ما تشير إليه الأقوال الآتية التى نسمعها فى بعض الأحيان مثـــل : « أنت فى سن تؤهلك لأن تعرف أكثر من ذلك . » ، أو : « إنك كبير لدرجة تكفى لأن تفعل هذا بنفسك ! » .

وكما أن ازدياد حجم الطفل أمر واضح ملموس ، كذلك القول بأن هذا النمو ليس مطرداً ولا متماثلا حقيقـــة لا تحتاج إلى برهان . وهناك ارتباط إلى حد ما بين السن والنمو ، وهو الذى يعنيه الناس عند ما يتحدثون عن طفل أكبر أو أصغر من سنه ، أو عند ما يحكمون ، بدرجة لا بأس بها من الدقة ، على سن الطفل من النظر إلى حجمه . ولـكن لو كان هذا النمو عملية ثابتة مطردة بحيث يكون الرسم البيانى لعلاقة السن بالحجم خطاً مستقيما ، ما كنا نستطيع عندئذ أن نتكلم عن « مراحل النمو » . غير أن النمو فى الحقيقة ليس مطرداً ، كما أنه ليس طائشاً بدون غاية أو غير خاضع لأى نظام فجميع الأطفال يمرون فى أعمار متشابهة إلى حد ما

وفترات من النمو السريع وفترات من النمو البطىء ، وتختلف هذه الفترات طولا وقصراً ، وهـــذا يوحى بأننا لا نـكون مخطئين إذ نتكلم عن « مراحل النمو » . على أن كل ما يقال عن مراحل النمو عند الأطفال إنما يصدق من الناحية الإحصائية فقط . مثله فى ذلك مثل سائر الآراء العامة الشبيهة به . فلو قلنا مثلا أن النمو . يكون سريعاً فى فترة معينة من العمر فإننا نجد أن عدداً من الأطفال يكون نموهم السريع قد بدأ عند سن مبـكرة عن ذلك ، وعدداً آخر عند سن متأخرة ، على حين يكون النمو السريع عند باقى الأطفال ، وهم الغالبية ، منطبقاً على القاعدة العامة ، إذا كانت تلك القاعدة صحيحة . فمثل هذه التعميمات لابد أن تقوم على أساس ملاحظة عدد كبير من الحالات ، كما أن النتائج ينبغى أن ترتب فى جداول ، وأن تفحص فحصاً علميـاً رياضياً ، بحيث لا نصل إلى قاعدة صحيحة بوجه عام فحسب ، بل تـكون لدينـا أيضاً فـكرة واضحة عن مدى اطراد هذه القاعدة .

وليست « مرحلة النمو » — على أحسن الاحتمالات — أكثر من فـكرة مبدئيـة . فنحن نتكلم مثلا عن « الطفولة المبـكرة » ونقول إن الخصائص البارزة فى هذه الفترة هى « الاعتماد على الغير » ، إذ يعتمد الطفل على أمه بصفة خاصة ، أو على من يقوم مقامها . ونحن لا نستطيع أكثر من ذكر آراء عامة مبدئيـة عن الاعتماد على الغير أو الاعتماد على النفس ، لأننا لا نستطيع أن نقيسهما بنفس الدقة التى نقيس بها الطول أو الوزن ، أو حتى بتلك الدقة التى نقيس بها الذكاء الآن ، لأننا لا نملك آلات قياس تتيح لنا قياس هذه الخاصية البارزة فى الطفولة ، أو اختبارات نحصل منها على نتائج ذات قيمة فى هذا المضمار .

كذلك لا نستطيع تكوين فكرة واضحة تماماً عن مدى تأثر الطفـل بالعوامل فى تـكوينه ، أو إلى تأثير من يحيط به من أفراد ، وما يستجيب له من

نظم . إذ لا شك فى أن كثيراً من الأمهات يملن إلى إطالة فترة التواكل هذه ، سواء أكان ذلك عمداً أم عفواً ، لأن بعضهن يعتقدن أن فترة الطفولة فترة حافلة بالمسرات لدرجة أن الطفل ينبغى أن يستمتع بها أطول وقت ممكن . كما أن بعض الأمهات يجدن متعة فى تلك الخبرة التى يتيحها لهن شعورهن بأنهن عنصر ضرورى فى سعادة شخص آخر ، على حين تهتم مدارس منتسورى ومدارس الحضانة بتشجيع الطفل منذ البداية على أن يكفى نفسه بنفسه ، وألا يعتمد على غيره قدر المستطاع ولذلك تتوقف درجة الاعتماد على النفس التى تظهر فى سن معينة على اتجاه البيت أو المدرسة ، وسائر التأثيرات الأخرى التى يكون الطفل معرضاً لها ، كما تتوقف على درجة النمو الجسمى والعقلى للطفل .

ومن النظريات التى كان لها أثر كبير فى تفكيرنا عن مراحل النمو النظرية التى تسمى « بالنظرية التلخيصية »[1] ومؤداها فى إيجاز أن « نمو الفرد يعتبر تلخيصاً لنمو الجنس » . و إذا طبقنا هذا الرأى على الجنس البشرى فإنه يعنى أن الطفل يلخص أثناء تطوره ، من بويضة ملقحة إلى مخلوق كامل ، قصة التطور البشرى من الخلية الحية إلى الإنسان الناضج . و يستحيل أن يكون مثل هذا القول صحيحاً إلا بشكل عام . ولا بد أن نتوقع كثيراً من السخافات إذا أسرفنا فى الاعتقاد بأن حياة الكائن البشرى القصيرة صورة دقيقة مصغرة لتاريخ الإنسان الطويل . غير أننا نستطيع أن نرى فى تلك التغيرات التى تطرأ على الجنين منذ تكوينه حتى ولادته سلسلة من تغيرات الصورة السريعة التدريجية التى يمر بها قبل أن يصل إلى صورة الطفل البشرى المعروفة . فالجنين يتخذ صوراً تشترك معه فيها الكائنات الدنيئة التى انقرض بعضها فى حين ظل البعض الآخر باقياً . وهكذا نراه يمر أثناء الفترة التى تتوسط بين الحمل والولادة بسلسلة من الصور تنتهى إلى صورة الفرد البشرى .

---

(1) Recapitulation Theory.

ولا يتأثر نمو الجنين فى تلك الفترة بالعوامل الخارجية إلا قليلا . وأقصى ما يمكن عمله عندئذ هو تيسير الظروف الصحية الملائمة للحامل ، وتوفير الغذاء الكامل لها ، حتى يستطيع جسدها أن يستجيب لحاجات الطفل النامى . غير أن الطفل عند ولادته لا يكون تام النمو ، وهو يشبه فى ذلك الحيوانات العليا كالقردة والنسانيس ، والحيوانات آكلة اللحوم على وجه الخصوص . ويظل نموه عرضة للتأثر بعوامل مختلفة طيلة العشرين عاماً الأولى تقريباً . ولذلك يمكن النظر إلى تربية الطفل على أنها محاولة مقصودة من ناحية الأب والمجتمع لتوجيه ذلك النمو بحيث يفضى بالطفل فى النهاية إلى أن يصبح الراشد الذى نريد أن يكونه . ويستحيل أن نفكر فى نمو الفرد دون أن ندخل فى حسابنا مختلف التأثيرات التى تكون فى بعض الأحيان عرضية عشواء ، كما تكون فى أحيان أخرى مستمرة مقصودة .

وقد أصاب (كارل جروس[1]) عند ما أشار إلى أن الذى يلعب من الحيوات العليا هى صغارها التى لم يكمل نموها ، فتؤدى أنواعاً من النشاط قد يبدو غير ذى جدوى وقت القيام به ، ولكنه يعدّها لضروب النشاط النافع الذى سوف يعينها على الحياة عند ما تكبر . وهذا صحيح بالنسبة للحيوانات آكلة اللحوم . فالقطيطة إذ تطارد أوراق الأشجار المتساقطة فتطبق عليها مخالبها ، ثم تتركها ، ثم تعود للانقضاض عليها قبل أن تذهب بعيداً عن متناول مخلبها ، إنما تقوم بنشاط يعدها لصيد الفيران بشكل جدى . كذلك نرى الجرو يحمل الأحذية ويخفيها ، أو يمزق الأبسطة بأنيابه ، وهذا لا يخرج عما يعمله فى المستقبل بما يصل إليه من اللحم والعظام . وليس فى كل ما قلناه ما يوحى بأن القطيطة تعتقد أن ورقة الشجر فأر ، أو أنها أثناء لعبها تفكر فى الفيران على الإطلاق ، ولكنه

---

(١) Karl Groos — عالم ألمانى عنى بدراسة اللعب فى الحيوانات .

يعنى فقط أن مظاهر النشاط فى هذا اللعب تتخذ اتجاهات معينة تدخل فيما بعد فى أعمال الحياة الجدية ، وتكون وظيفتها وقت اللعب إعداد القطيطة لحياتها المستقبلة . فكأن القطيطة تتعلم من لعبها كيف تصبح قطة ناضجة .

غير أن العلاقة بين مظاهر النشاط فى لعب الأطفال و بين حياتهم فى المستقبل ليست على هذه الدرجة من الوضوح . ولا تصلح نظرية (كارل جروس) للتطبيق على الأطفال إلا بشكل عام . فلعب الطفل مران لجسمه ، وتدريب له على ضبط حركاته واستخدام حواسه ، فهو لذلك يساعده على تكوين جسم سليم يستطيع توجيهه وضبطه . أما اللعب العقلى الذى ناقشناه أثناء كلامنا عن أحلام اليقظة فإنه يُفضى إلى تنمية الخيال . وهو فى الوقت نفسه يستعين بالخيال والحكم والذكاء . ولهذا يمكننا أن نعتبر أن الطفل ينمى نفسه بوسائل ليس لها بحياة المستقبل ذلك الارتباط الوثيق الذى لمسناه واضحاً فى لعب القطيطة والجرو ، ولكنها مع ذلك تعده لشتى الأعمال التى يؤديها الرجل الناضج فى حياته المعقدة غير الطبيعية . فكل ماينمو عن طريق اللعب يصبح صالحاً للتطبيق فى ميدان العمل .

والفرق البارز بين اللعب والعمل هو أن الفرد يلعب من أجل اللذة التي يحصل عليها من وراء لعبه ، دون النظر إلى أية غاية أخرى قد يصل إليها . أما فى حالة العمل فإن الفرد يقوم به سعياً وراء غاية ينشد الوصول إليها . ولهذا نرى الفرد فى لعبه ينزع إلى تعقيد النشاط و إطالته أو تكراره . أما فى العمل فإنه يميل إلى تقصير مدته كى يصل إلى تحقيق الغاية منه بأسرع ما يمكن . ونحن نقصد بهذا طبعاً تلك الأنواع المتطرفة من اللعب والعمل ، لأننا كثيراً ما نجد اللعب ممتزجاً بالعمل فى ضروب شتى من النشاط فى الحياة العملية . وهذا يفسر استمتاع كثير من أصحاب الحرف بأداء عملهم ، وأسفهم عند انتهاء أعمالهم حتى ولو كان ما أنتجوه قد أرضاهم .

ونرى فى بعض أنواع لعب الأطفال صوراً من النمو تبدو متمشية مع النظرية التلخيصية . فالغلام الذى يرمى قطاً بحجر يقوم بعمل كان فى وقت من الأوقات من الأعمال الهامة بالنسبة إلى أجداده الذين كانوا يعيشون على قتل الحيوانات بمثل هذه الوسيلة . وصغار الأطفال الذين يجمعون أشياء مختلفة تتراوح بين الحصى الملون وطوابع البريد إنما يسترجعون بذلك حياة تلك الشعوب البدائية التى كانت تقتات بما تجمعه من مختلف الأشياء كالمحار والثمار والحشرات وجذور النبات .

فالنظرية التلخيصية تمثل الكائن الذى لم يكمل نموه كأنه يُجرى على نفسه تجارب فى عالم أكثر بساطة من عالم الكبار ، ويستخدم فيها رموزاً بدلا من الأشياء الحقيقية . وفى الوقت نفسه تغنيه عناية الأبوين عن السعى فى سبيل الغايات الحقيقية . فالقطيطة تستغل فى نشاطها ورقة الشجر التي يسهل إمساكها ، وهى لا تتساءل عما إذا كانت ستطعم من لعبها هذا أم لا . والطفل يأتى نفس ما تفعله القطيطة ، وذلك عند ما يحيا فى عالمه الخيالى الذى يحفل بالدُّمى ورفقاء الخيال . وهو يعد نفسه بذلك دون وعى ، للعالم الذى سوف يكون عليه أن يلائم بينه وبين نفسه فيما بعد . ومما يدل على أن ذلك اللعب يؤدى إلى الغرض المقصود منه أن الطفل ينصرف فى الوقت المناسب عن رفاق خياله ، ويأخذ فى الاهتمام برفقاء حقيقيين .

ويبدو أن الولد فى حوالى سن العاشرة يكون قد اكتشف أن ذلك النشاط الذى يشعر بأنه لذيذ فى ذاته يمكن أن يوجه بشكل يفضى إلى ما قد ينشده من نتائج . فهو يستطيع أن يعمل لنفسه نماذج من الطائرات ، والطيارات الورقية ، واللُّعب المختلفة ، أو أن يصنع أشياء أخرى قد يبيعها . وهذا نفسه ينطبق على البنات مع بعض الفروق ، فالحياكة والغزل وأشغال الإبرة ليست سارة فحسب ، بل ومفيدة أيضاً . وقد كان الناس منذ أقل من قرن يستخدمون عدداً كبيراً من البنات والصبية فى الصناعة . فكان ذكاء الولد ، أو الفتاة ، فى سن العاشرة يبلغ

فى النمو مبلغ ذكاء الراشد العادى تقريباً . كما ينمو شعوره بالمسئولية ، فيستمتع بما يقوم به من نشاط ، ويفخر بما تنتجه يداه من نافع الأشياء . ولم يكن أولئك الصغار يستخدمون دواماً فى أداء أعمال يميلون إليها ، أو فى صنع أشياء يعجبون بها . ولذلك لم يكن كثير من أولئك الأطفال الجياع تقريباً يجدون أية متعة فى الساعات الطويلة التى يقضونها فى مصانع نسج القطن أو مناجم الفحم . وهذا (شارلز ديكنز) مثلا لم يكن ليحس أية لذة فى لصق البطاقات على علب الطلاء . ولكن مما لا شك فيه أنه كان هناك أيضاً جانب كبير من الأعمال التى يجد الأطفال لذة فى القيام بها ، والتى كانت تساعد نموهم مساعدة نافعة ، وإن لم تكن مقصودة .

غير أن ذلك لا يعنى العودة إلى تلك الأيام الماضية ، أو النكوص إلى حالة ذلك المجتمع الذى نأمل أن يكون قد مضى إلى غير رجعة . ويبدو أن الطفل قد نال من وراء ما حدث من تطور بعض الغنم ، كما أنه قد أصاب بعض الخسارة . فهو من ناحية قد أصبح غير مرهق بالعمل ، أو عرضة للاستغلال غير المشروع ، ولكنه من ناحية أخرى قد حرم بعض الفرص التى تتيح له أن ينمّى نفسه طريق الوان من النشاط يشعر فيها باللذة التى يشعر بها فى لعبه ، كما يشعر بالمتعة التى يحصل عليها من الاضطلاع بالمسئوليات ومن إشباع نزعاته الابتكارية عن طريق إنتاج أشياء نافعة . فالطفل الذى يتعلم كيف يسلخ أرنبا ، وينظف جلده ، ويُعده ليصنع لنفسه منه زوجاً من قفازات الفرو التى يدفىء بها يديه أثناء الشتاء القارس ، لا يكون قد تعلم فقط طريقة استخدام بضع أدوات ، أو معالجة بعض المواد ، بل إنه يكون أيضاً قد كوّن اتجاها نحو نفسه ونحو جهوده ، وهو اتجاه يزداد قوة كلما لبس الولد قفازه . فهو إذن قد نمى احترامه لنفسه وثقته بها ، كما أنه قد قطع شوطاً كبيراً فى اكتساب نظرة الراشد إلى نفسه و إلى العالم . ولو أمكن ربط هذا النشاط ربطاً معقولا بالعمل المدرسى ، فإن الولد يصبح مزوداً

بمثيرات نافعة تدفعـــه إلى القيام بأنواع أخرى من النشاط ، واكتساب معرفة جديدة .

نستطيع إذن أن ننظر إلى تلك الفترة التى يكون الطفل فيها قادراً على اللعب ، وعلى أن ينمى عن طريق هذا اللعب إدراكه أن هذا النشاط يمكن استغلاله للوصول إلى غايات حقيقية ، وإنتاج أشياء مفيدة ، على أنها فترة واحدة من مراحل النمو ، تمتد على وجه التقريب من حوالى سن الثالثة إلى ما يقرب من سن الحادية عشرة . غير أن هناك بطبيعة الحال حالات شاذة يرجع بعضها إلى تأخر النمو ، والبعض إلى تأثير المدرسة أو البيت . ومهما كان الأمر فإن هذين الحدين ليسا أكثر من رقمين لهما مدلول إحصائى .

وقد ظهرت مرحلة هامة فى نمو البشر عندما بدأ الناس ينتظمون فى جماعات دائمة ثابتة نسبيا ، مما أتاح لهم صيد الحيوانات الكبيرة . وربما كان جمع الأشياء من الأعمال الفردية ، كما كانت الحال فى كثير من الأحيان . أو من الأعمال التى قد يشترك النساء فيها مع الأطفال ، أما صيد الحيوانات الكبيرة المفترسة فلم يكن ممكنا إلا بتعاون الرجال بعضهم مع بعض ، واستخدامهم الأسلحة ، وموافقتهم على الانضواء تحت لواء زعيم يدينون له جميعاً بالطاعة . ونجد درجة من النمو شبيهة بهذا عند الولد فى حوالى سن الحادية عشرة ، حيث يكون قد نمى نفسه من الناحيتين العقلية والجسمية عن طريق نشاطه فى اللعب ، وأصبح يشعر بالمسئولية التى لابد منها لكل من يقبل الخضوع لرياسة غيره ، كما أنه أضحى يستطيع استخدام الأدوات والأسلحة ، ويتقن بعض الفنون البسيطة . وتفضى به نزعاته الاجتماعية إلى أن يجد لذة فى صحبة غيره ، وأن يشعر بالتجاوب العاطفى معهم ، وأن يستمتع بالنشاط الجمعى الذى يهدف إلى تحقيق غايات مشتركة . فيصبح ميالا إلى الاشتراك فى الرحلات التى تنظمها فرق الكشافة ، وما يشبهها من الجماعات ، ويحب الانضمام إلى عضوية نوادى الصبيان ، والمساهمة فى الحياة الجماعية ، كما يقبل اللعب

كفرد فى فريق ضد فريق آخر . وتعتبر هذه المرحلة التى تستمر حتى سن السادسة عشرة من أهم مراحل النمو فى حياته .

وهذه المرحلة من مراحل النمو ، التى نطلق عليها اسم المراهقة ، قد خصصت لها كتب عدة . ويعتبر المجلدان الكبيران اللذان كتبهما (استانلى هول[1]) عنها ثمرة لإحدى المحاولات الأولى التي كانت تهدف إلى تجميع الحقائق المعروفة عن الشباب ، وربطها بالترقى الاجتماعى والدينى والأخلاقى للبشر عموما . ومن الواضح أن نظرة (هول) إلى الموضوع ، وطريقة معالجته له ، كانتا متأثرتين بالنظريات الاجتماعية والإنسانية السائدة فى عصره . ومن المؤلفات الحديثة فى هذا الموضوع كتاب « سيكولوجية المراهقة » للأستاذ « فاولر د . بروكس[2] » الذى يهدف إلى « وصف طبيعة المراهقة والنمو والترقى ، بغية تسهيل التنبؤ الصحيح بالسلوك ، وتوجيهه التوجيه الملائم ، وضبطه خلال السنوات الأخيرة من العقد الثانى من العمر » . وربما كانت معظم الكتب عن الشباب والمراهقة قد كتبت لهذا الغرض أى بقصد إرشاد المعلمين ، ورؤساء الأندية ، ومنظمى حركات الشباب ، إلى الطريقة المثلى فى معالجة شتي المواقف العملية التى تصادفهم .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن حلم اليقظة المألوف عند المراهق يكون مصطبغاً بالخيال العاطفى ، وأن جانباً على الأقل من نظرة الحالم إلى العالم عامة ، وإلى مشاكل حياته خاصة ، يكون كذلك أيضاً . ولهذا يبدو أن كثيراً ممن كتبوا عن المراهقة قد عالجوا موضوعها معالجة عاطفية أكثر منها واقعية ، لأنهم اعتمدوا فى كتابتهم على ذكرياتهم التى اتخذت لوناً مثالياً . فمما لاشك فيه أن وصف المراهق بأنه « شخص جديد » ، أو أنه قد مرّ « بميلاد جديد » يدل على نزعة خيالية عاطفية . والحقيقة أن المراهق ليس كذلك على الإطلاق ، فهو ليس أكثر من

(1) « Adolescence » — n ls. Stanley Hall.

(2) « The Psycgology of Adolescence, » by Fowler D. Brooks . (London : George G. Harrap d Company, Ltd. : n. d.) Preface, P. vii.

نتاج نموه السابق ، وسنواته التكوينية الأولى وماتلاها ، فهو شخص تام ، تعترضه مشاكل جديدة بالنسبة إليه ، نشأت عن نموه البدنى السريع ، وازدياد ترقيه العقلى والمطالب الجديدة التى يفرضها عليه المجتمع الذى شب فيه وكبر .

كذلك رأينا أن الأولاد ، والنبات ، فى سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة يكونون قد أصبحوا مستقرين نسبياً . فنجد فى المجتمعات التى تقل من حيث التعقيد عن مجتمعنا الحالى أن الغلام يستطيع أن يكفى نفسه بنفسه ، ففى وسعه أن يجمع مايقتات به من ساحل البحر أو الاشجار أو الأرض . كذلك يمكنه أن يضيف إلى غـذائه بعض الحيوانات التى يمسكها بالمصايد والفخاخ . أو يقتلها بالأحجار والعصى . ويكون فى مقدوره أن يصيد السمك من الجداول ، وأن يمارس بعض الحرف البسيطة التي تيسر له المأوى وأدوات الصيد والأسلحة ، وأن يقوم ببعض الزراعة . وبجانب ذلك يكون قد نما إلى الدرجة التى تجعله يعمل من أجل الآخرين ويشترك معهم فى صيد حيوانات أكبر من التى كان يقدر على صيدها بمفرده .

غير أن هذا الاستقرار يضطرب عند بدء المراهقة لتدخل عامل جديد هو نمو الجهاز التناسلى عند الولد والبنت على السواء . فالأعضاء الجنسية الرئيسية كانت موجودة منذ الولادة ولـكنها لم تكن تؤدى وظيفتها . غير أنها تكون الآن قد بدأت فى القيام بعملها بطريقتين : فهى غدد جنسية تفرز الحيوانات المنوية عند الذكور ، أو البويضات عند الإناث ، كما أنها غدد صماء تصب فى الدم هرمونات لها تأثير واضح في النمو الجسمى والعقلى . كذلك يكبر حجم أعضاء التناسل عند البنين والبنات . ونلحظ فى الذكور ضخامة الصوت وعمقه ، ونمو شعر اللحية والأبطين والعانة ، وزيادة الطول زيادة سريعة ، واشتداد قوة الأطراف والصورة التى تمثل المراهق هى صورة شخص لا يسيطر على حركاته سيطرة تامة ، أميل إلى النحافة منه إلى الامتلاء ، مضطرب فى أفعاله ، يعوز أعضاءه التناسب ، سريع الشعور بالحرج ، قوى الشعور بذاته .

أما فى الإناث فنلحظ بروز النهدين ، وتكون طبقات من الشحم تحت الجلد مما يعطى الجسم استدارته ونعومته « النسائية » ، وظهور شعر العانة والإبطين ، وتغير الصوت بالتدريج إلى صوت النساء ، ويشير ظهور هذه الخصائص الجنسية الثانوية إلى أن البنت قد أصبحت على وشك النضج الجنسى ، أى على وشك الصلاحية للزواج من رفيق من الجنس الآخر ، وإنسال الإطفال .

ومن دلائل البلوغ فى البنات ظهور دورة الحيض ، وفيها تغادر الجسم البويضة التى لم تلقح مصحوبة بمواد أخرى مشتقة من جدران الرحم . أما إذا تم تلقيح البويضة فإنها تظل متحدة بالرحم حيث تنمو إلى جنين . ولكنها إذا بقيت دون تلقيح فإن الأنسجة التى كانت قد أخذت فى النمو لاستقبالها تصبح غير ضرورية فتتمزق ، وتخرج من الجسم بقاياها مصحوبة بالدم ومعها البويضة المعطلة . وبذلك يكون الحيض الأول دليلا قاطعا على أن الغدد الجنسية عند الفتاة قد بدأت تفرز البويضات ، وأن الفتاة قد أدركت سن البلوغ .

أما فى حالة الولد فليس ثمة من سبيل إلى مثل هذا الدليل الحاسم عن وقت البلوغ . ويدل الاحتلام ، أو ظهور حيوانات منوية فى البول ، على أن الولد قد أصبح بالغاً ، ولكنه لا يحدد الوقت الذى حدث فيه ذلك . ويقول البعض بأن فى استطاعتنا أن نفترض بلوغ الغلام عندما نلحظ الظواهر الثلاثة الآتية معا وهى : كثافة شعر العانة والتوائه ، وتغير الصوت ، وظهور الشعر تحت الإبطين . ويرى (بروكس) أن الولد الأمريكى يصل إلى هذه المرحلة فى المتوسط بين الرابعة عشرة والنصف ، والخامسة عشرة على وجه التقريب . على حين وجد (جودين) أن هذا المتوسط عند الفرنسيين هو الخامسة عشرة والنصف تقريبا .

وتدل البحوث التى أجراها (اتكنسون) على البنات الأمريكيات (واقتبسها عنه بروكس فى كتابه) على أن الحيض الأول حدث لما يقرب من سبعة آلاف بنت عند سن تتراوح بين الثانية عشرة والسابعة عشرة ، فيكون المتوسط بالضبط

دون الرابعة عشرة . ولكن هذه الأعمار التى تتراوح بين حوالى الرابعة عشرة والنصف والخامسة عشرة للأولاد الأمريكيين ، والرابعة عشرة للبنات الأمريكيات ، ليست سوى أرقام احصائية ، فهى بذلك معايير يحتمل وجود انحرافات كثيرة عنها .

والمشكلة التى تواجه المراهق هى — إلى حد كبير — مشكلة التوافق بين اهتماماته الجديدة المرتبطة بنضجه الجنسى و بين الشخصية التى يكون قد كوّنها . وهى مشكلة يخفق الكثير من الناس فى حلها بأنفسهم ، فإنهم قد يستطيعون إدارة أعمالهم بأنفسهم ، ولكنهم يفشلون فيما يختص بمشاكلهم الغرامية ، كذلك قد ينجحون فى انتقاء مرءوسيهم ، ولكنهم يخفقون فى اختيار زوجاتهم . وقد ذكر « داود » فى الزبور أن من الأشياء التى لم يستطع فهمها « طريقة معاملة الرجل للفتاة » .

و يتأخر النضج الجنسى عند الكائنات البشرية . وهناك من الأدلة ما يثبت أن ذلك يرجع إلى الغدة التيموسية [١] ، فإن هذه الغدة تكون كبيرة أثناء الطفولة ، ولكنها تأخذ فى الضمور بالتدريج حتى تختفى تقريباً فى حوالى سن الرابعة عشر ، حيث لا يبقى منها بعد ذلك إلا أثر ضئيل عند الراشد العادى ، ومن المعتقد أن هذه الغدة ، أو إفرازها الداخلى ، يؤثر فى النمو الجنسى تأثير « الفرملة » ، ولها فوق هذا بعض التأثير فى النمو الجسمى . غير أن الغدة التيموسية قد تظل باقية عند بعض الأفراد ، وهم الذين لا يتم نضجهم الجنسى قط ، بل إنهم يظلون محتفظين بطابع الأطفال . فاذا كان هذا صحيحاً أمكننا أن ندرك أهمية الدور الذى تلعبه هذه الغدة ، إذ أنها بتأخيرها النضج الجنسى تتيح للفرد فرصة للنمو الجسمى والعقلى

---

(١) Thymips gland — هى إحدى غدد الطفولة . وتسمى أيضاً بالصعترية ، وموقعها فوق القلب . أما غدة الطفولة الثانية فهى الغدة الصنوبرية . وكلتا الغدتين تضمر عادة قبل البلوغ . ويقال إن عملهما مضاد لعمل الغدد التناسلية (المترجم) .

الذى يعينه على احتمال ما يتطابه الزواج من مسئوليات . ولا شك أن نظام الأسرة ، والمجتمع عموماً ، يتوقف على تلك المسئوليات والالتزامات نحو الزوج والنسل .

ومما هو جدير بالملاحظة أننا قد تكلمنا فى هذا الفصل عن النضج الجنسى ، لا عن بدء ظهور عنصر جنسى فى حياة الفرد كما كان يعتقد الكتاب السابقون . فالنضج الجنسى لا يعنى سوى أن الغرائز الجنسية قد اتجهت نحو شىء جديد محدود . وان هذا الاتجاه يصحبه تطور جسمى يولد استعداداً لمؤازرته . ويكون هذا الشىء الجديد رفيقاً من الجنس الآخر . كذلك يعين هنا النمو الجديد فى الجهاز التناسلى الفرد على التلقيح . بيد أن الغريزة الجنسية ذاتها كانت موجودة من قبل ولكنها كانت متجهة نحو الأم أولا ، ثم الذات ، ففرد من نفس الجنس ، وكل هذه أطوار لم تبلغ حد الاكتمال لأن النضج الجنسى لم يكن قد بلغ حداً يتيح لها ذلك .

ومن الواضح أن لفظ « الجنس » فى استعمالنا لا يقصد به المعنى الذى كان سائداً فيما مضى ، أو المعنى المألوف فى الكتابة الأدبية ، فقد كان لفظ « الجنس » يعنى العلاقة القائمة بين الراشدين من الرجال من ناحية ، والناضجات من النساء من ناحية أخرى . ولو أنه كان يمتد فى بعض الأحيان فيشمل العلاقات الشاذة مثل « الانحرافات الجنسية » التى تقوم بين فردين من جنس واحد ، أو العلاقات الجنسية المصحوبة بالعنف والقسوة . فكأن « الجنس » والأمور الجنسية ، تتضمن علاقة بين الكائنات الحية التامة النضج ، ولا تشمل الصغار إلا عندما يحاول بعض « الأشرار » منهم تقليد الكبار .

غير أن علماء النفس الذين حاولوا فهم طبيعة الغرائز الجنسية خلال الخمسين السنة الأخيرة قد استطاعوا أن يضاعفوا معلوماتنا عن هذا الموضوع . وإننا مدينون بالكثير مما نعرفه الآن إلى (سيجموند فرويد) الذى تمكن من تحديد الماهية الجوهرية لتلك الغريزة ، ووصف مظاهرها المختلفة فى حياة الفرد

منذ الطفولة المبكرة حتى سن الرشد . كذلك لاحظ (وطسون) ، الذى تختلف آراؤه عن آراء علماء التحليل النفسى ، أن الأطفال يستجيبون بشكل معين للتربيت على سطح الجلد . وإذا غضضنا النظر عن مصطلحات السلوكيين المتطرفين فإننا نستطيع أن نقول إن الأطفال يجدون لذة فى التربيت ، وإن حساسية جلدهم هى علة حصولهم على تلك اللذة . غير أن هناك ، كما أشار (هافلوك إليس) ، مناطق معينة من سطح الجسم ذات حساسية خاصة ، ومنها على وجه الخصوص تلك المناطق التى يتصل فيها سطح الجلد بالأغشية المخاطية الداخلية مثل الشفاه ، وسطح الأنف الداخلى ، والأعضاء التناسلية ، والشرج . فالطفل يجد لذلك لذة فى عملية المص (بغض النظر عن استقبال الطعام) ، ولمس الشفتين ، وحك الأنف ، والعبث بأعضاء التناسل ، والتبرز . وتلك اللذة ينبغى النظر إليها من هذه الزاوية على أنها جنسية ، وهى مرتبطة بزوال التوتر .

فالطفل الصغير يشعر بلذة صريحة من كل تلك الأشياء ، ولا يتخلص من هذه الوسائل السهلة التى تيسر له أن يشتق من نفسه مثل تلك اللذة إلا عن طريق الكبت ، وهو يظل مستبقياً بعضاً منها إلى وقت متأخر ، وهذا يفسر عناق المحبين وتقبيل بعضهم بعضا .

وعندما يبدأ الطفل فى اختيار الصحاب ورفقاء اللعب بعد ذلك يختارهم من نفس جنسه ، وتكون غرائزه الجنسية فى هذا الوقت كامنة ، واهتمامه بالبنات ضعيفاً أو معدوما . ولا يهتم الأطفال بالمناظر الغرامية فى أفلام السينما ، أو فى قصص الحب ، بل إنها تسئمهم ، ويصفونها بأنها سخيفة مثيرة للضجر . وإذا أراد المؤلف إظهار فتاة فى إحدى قصص المغامرات فإنه يصورها فتاة رياضية تجيد ركوب الخيل والقنص مثل البطل نفسه ، قادرة على الجلد والاحتمال مثله . غير أنها عرضة لارتكاب الأخطاء ، والوقوع فى المآزق التى يستطيع البطل إنقاذها

منها بتهارته و إقدامه . فهو فى علاقته بها ليس إلا صديقاً أو بديلا للأب ، على حين يكون دورها الإعجاب الشديد به .

فالغريزة الجنسية إذن لا تظهر لأول مرة فى حياة الفرد وقت البلوغ ، بل إنها تعبر عن نفسها قبل ذلك فى صور مختلفة . واهتمامات الطفولة تكبت فى اللاشعور كبتاً تاماً أو جزئياً ، فتظل تؤثر فى السلوك الشعورى بشكل غير مباشر ولكنه أكيد . وعندما يهتم المراهق بأفراد الجنس الآخر يظهر ذلك بشكل غامض غير محدود . فالشاب الذى يحس ميلا إلى إحدى الفتيات قد لا يعترف فى كثير من الأحيان بأنه قد مال إليها « لأنها فتاة » ، بل إنه قد يرجع ذلك الميل إلى وضاءة محياها ، أو أناقة زيها ، أو رشاقة مشيتها ، أو جمال صوتها ، أو حسن ذوقها ، أو إلى « عبارة فاهت بها » ، أما السبب الحقيقى فى جاذبيتها فإنه كامن فى ثنايا خبراته الماضية . وكثيراً ما يكون أول « حب » للأولاد والبنات على السواء نحو من هم أكبر منهم سناً من الأفراد ممن يذكرونهم بأحد الأبوين من الجنس الآخر . وقد يميل شاب إلى فتاة لأنها عرفت كيف تبدى إعجابها بذكائه ، أو تشيد بقوته البدنية ، أو بإتقانه الرقص ، أو بأناقة هندامه . فتكون عندئذ قائمة بدور « رفيق الخيال » الذى يبدى الإعجاب به ، أو بدور الجمهور المصفق الذى كان يتراءى له فى أحلام يقظته . فكأن هناك عناصر طفولة واضحة تدخل فى تكوين اتجاهه نحو البنات .

ويدفع نضج الجسم والغريزة بالشاب إلى الزواج ممن قد يقع اختياره عليها لتشاركه حياته . ولكن المسألة لا تتم بمثل هذه السهولة . صحيح أن كلا من الذكر والأنثى يعتبر فرداً قادراً على تقرير ما يريده ، ولكنه أيضاً قد شب فى أحضان أسرة ، ثم وسط جماعة أكبر من الأسرة ، فتكوّنت لديه بذلك أفكار معينة عن الصواب والخطأ ، وعن الخير والشر . وتعلم كيف ينبغى أن يكون

سلوكه إزاء قوانين الجماعة وعاداتها ، وكيف يهتم بنتائج هذا السلوك . فيصبح لزاماً عليه قبل أن يفكر فى العيش مع شريك حياته أن يكون قادراً على القيام بمطالب تلك الحياة المشتركة من الناحية الاقتصادية ، وأن يحصل على موافقة الأسرتين ، ويخضع لمقتضيات عرف الجماعة وقانونها . والقليلون هم الذين يستطيعون ذلك بمجرد تفكيرهم فى الزواج لأول مرة .

فلا يدهشنا إذن أن نجد أن المراهق إذ يقف على عتبة الرجولة ، يهتم بالأحزاب السياسية الإصلاحية أو الثورية ، وينادى بإلغاء كثير من الأشياء التى تحول دون إشباع الرغبات الغريزية . ويدبر الخطط لانقلابات اجتماعية تقضى على كثير من العقبات الاقتصادية . كذلك لا يدهشنا أن نجد أن الحرمان من تحقيق الرغبات يدفع حديثى السن إلى السعى وراء إشباعات بديلة يحصلون عليها من الرسم ، والموسيقى ، والشعر والقصص الخيالية . وقد يستمر هذا الاهتمام بالسياسة أو الفن عند ما يكتشف المراهق فى نفسه القدرة على النجاح فيهما .

أما فى المجتمعات البدائية فإن الأمر يكون أبسط من ذلك وأقل تعقيداً ، لأن الغلام ينال من التلقين والإعداد ما يكفى لتهيئته لحياة الراشد ، وعندئذ يكون حراً فى الزواج . وتوجد فى العادة نظم تحدد له اختيار رفيقة حياته من بين فتيات طائفة معينة . كذلك تحدد العادات له كيف يُرضى أهل الفتاة ، ويعوضهم عنها لأنهم هم الذين كانوا خلقاء إن يجنوا ثمار عملها . فكأن الفرد فى مثل ذلك المجتمع البدائى يخضع ، إلى حد ما لقيود تشبه القيود التى يفرضها علينا مجتمعنا الحديث ، ولكنها أقل منها عسراً ، لأن الفتى يستطيع الزواج بمجرد اعتباره بالغاً ، بينما يدرك الفتى أو الفتاة ، فى العصر الحديث أنه لابد من مرور أعوام طويلة قبل أن يتسنى له تحقيق أمله بالزواج ممن وقع عليها اختياره .

من هذا نستطيع أن نرى علاقة أحلام يقظة المراهق بظروف المراهقة . فبعض أحلام اليقظة تعبر عن تحقيق الظروف التى تتيح التغلب على ما يعترض سبيل إشباع رغبات الحالم من عقبات ، كما أن البعض الآخر يضع الحالم فى بيئة تتحقق فيها رغائبه ، رغم أن هذا التحقيق يتم فى صورة رمزية مقنعة بسبب الكبت . وتلك هى الصور العامة لأحلام اليقظة التى تحدث عادة فى هذه المرحلة ، وهى بطبيعة الحال عرضة لتغييرات كثيرة من حيث التفاصيل ، والمادة ، ومدى اصطباغها باللون الواقعى أو إسرافها فى الخيال .

obeikandl.com

الفصل الثامن

حلم اليقظة والأدب

قد يتوقع القارىء عند قراءة عنوان هذا الفصل أننا سنحاول تفسير جميع أنواع الأدب على أساس أحلام اليقظة وحدها ، أو القول بأن الأدب الخيالى جميعه ليس إلا صوراً لفظية لأحلام اليقظة ، ولا شيء أكثر من ذلك . ولكن التجاريب قد علمتنا أن نكون دوماً على حذر فيما يختص بالنظريات التي تحاول تفسير الأمور ، على ما بها من تعقيد ، بإرجاعها إلى سبب واحد ، وإنكار كل ما عداه . فالقصص البسيطة المألوفة التي ظهر منها حتى الآن عدد كبير ذاع وانتشر بين الأطفال والقراء العاديين ، والتى غالباً ما تدور حول فكرة واحدة بعينها فلا تتغير فيها سوى المناظر والشخصيات . إذا كانت تلك القصص تذكرنا بأحلام اليقظة عند الأطفال ، فإنها لا يمكن أن تكون مجرد سرد لتلك الأحلام ، ولا شيء أكثر من ذلك ، بل إننا لا شك واجدون فيها أموراً سيكولوجية أخرى تتصل بها أشد اتصال .

ويمكن أن نتخذ من موضوع الإنشاء التالى مقدمة لبحث هذا الأمر ، وهو موضوع كتبه غلام فى الثانية عشرة من عمره ، وهو تلميذ فى مدرسة ابتدائية بإحدى مدن إقليم صناعى . لقد كتب المعلم الجزء الآتى على السبورة ، وطلب إلى الأولاد أن ينقلوه فى كراساتهم ، وأن يتخذوا منه بداية لقصة مبتكرة .

« فى مساء السبت الماضى ، غادر والدا (توم) المنزل ، بعد أن وضعا طفليهما الصغيرين فى فراشهما : وتركا البيت فى رعاية (توم) . »

وهذا ما كتبه الغلام دون مساعدة أحد :

« بعد برهة وجيزة وصلت إلى أنف « توم » رائحة شيء يحترق . فاقترب من غرفة النوم حيث اكتشف أن الطفل الصغير قد عبث بالثقاب فأشعل النار فى المنزل .. عندئذ نزلت مسرعاً أنشد النجدة ، فقابلت رجلا أخبرته بما حدث ، فاندفع فى عجلة لإنقاذ الطفلين ، بينما انطلقت أنا فى طلب سيارة الحريق التى أقبلت بعد قليل ، و بدأت تطفى النيران . و بعد أن تم ذلك عاد والداى وأبصرا ما حدث . وعند ما أراد أبى الاطمئنان على الطفلين وجد أن الصغير قد أصيب بحروق بالغة نقل بسببها إلى المستشفى . أما الآخر فقد احترق ذراعه . وقد قال لى أبى إنه لن يغادر المنزل فى أمسيات السبت بعد ذلك . »

وقد ذكر الغلام أثناء مناقشته فى هذه القصة أنه لم يحدث له من قبل قط شيء شبيه بما كتبه ، كما أنه لا يتذكر أنه قد قرأ قصة من هذا النوع . غير أننا ينبغى أن نصدق قوله هذا دون تحفظ . فبيته قريب من إحدى محطات الحريق واهتمام الأولاد بمثل هـذا المكان أمر مألوف . كذلك كانت بضع حرائق قد شبت من قبل فى المناطق المجاورة لبيته يضاف إلى كل ذلك أنه لم يكن من المحتمل أنه لم يقرأ أو يسمع عن بعض حالات الإنقاذ من الحريق . فضلا عن أنه لا شك كان يعلم أن المصابين ينقلون إلى المستشفى على وجه السرعة . و بذلك تكون خبراته المباشرة وغير المباشرة قد زودته بالمادة التى استطاع أن يصوغ منها صورة جديدة تختلف عن كل ما صادفه من قبل حياته . فالقصة تشبه حلم اليقظة من هذه الناحية .

بيد أن هناك أموراً أخرى غير تلك . فإن الغلام ، بعد أن كتب جملتين ، توقف عن الكلام عن (توم) ، و بدأ يتحدث عن نفسه . فهو قد أصبح (توم) ونلمس فى هذا الاندماج فى شخصية البطل قدراً كبيراً من السذاجة .

وهنا تتخذ القصة على الفور صبغة من الجدة والصراحة أكثر وضوحاً من

قبل . إذ تصبح شخصياتها حية ، كما تزداد علاقة تلك الشخصيات بالكاتب وضوحاً كلما تقدمت القصة .

ولو نظرنا إلى القصة على أنها حلم يقظة فإنها سوف توحى إلينا بنتائج معينة عن الولد نفسه ، فإن الحادثة كلها تنتهى بنتيجة معينة هى وعد الأب بأنه لن يغادر البيت فى أمسيات السبت بعد ذلك . ولو ربطنا ذلك باعتماد الولد على مساعدة رجل لم يُسَمَّ فى الجزء الأول من القصة — حيث ينقذ الرجل الطفلين ، فيتيح للولد فرصة للاسراع فى طلب سيارة الحريق والحصول على مساعدة رجال المطافئ — فإننا سنجد أمامنا غلاماً يظهر فى صورة « البطل » ، بمعنى أنه استطاع أن يضمن مساعدة أناس أكثر منه قوة . فهو إذن ليس ممن يستطيعون مواجهة مشكلات الحياة فى ثقة واطمئنان ، بل ممن ينشدون العون والمساعدة دائما .

كذلك نلاحظ عداء نحو « الصغير » ، ودلائل على امتداد ذلك العداء إلى الأم . فهى لاتلعب أى دور فى القصة ، كما أن حلم اليقظة لايعبر عن أى رغبة فى إبقائها فى البيت ، بل إن تلك الرغبة تقتصر على الأب وحده . وينصب اللوم فى كل ماحدث على « الصغير » الذى ينال عقاباً صارماً ، ويغادر البيت إلى المستشفى أما الطفل الآخر فقد أصابته بعض الحروق أيضا ، ولكنها لم تكن فى خطورة إصابات أخيه ، ولذلك بقى فى المنزل . لهذا يبدو أن الحادث جميعه يهدف إلى إعادة الأب إلى جوار إبنه ، وهذا كما رأينا من دوافع أحلام اليقظة عند الاولاد فى مثل هذه السن .

ويجدر بنا أيضا أن نوجه بعض العناية إلى عناصر البطولة فى سرد حلم اليقظة فمن الواضح أن الولد قد حصل على مساعدة رجال المطافئ ، إذ هم الذين قادوا سيارة الحريق إلى المنزل ، وقاموا بإطفاء النيران . ولكننا مع ذلك لا نعثر على أية إشارة إليهم . فإن الغلام لم يزد على أن قال : « . . . انطلقت فى طلب سيارة الحريق التى أقبلت بعد قليل و بدأت تطفئ النار » فكأن الولد وسيارة الحريق

هما البطلان ، أما دور رجال المطافئ فقد قُمِع . ولقد كان من الممكن أن يقوم الولد فى حلم اليقظة بقيادة سيارة الحريق واستعمالها فى إطفاء النار ، ولكن لم يكن من المحتمل أن يكتب مثل هذه المبالغات فى موضوع إنشائى يقرؤه مدرسه وزملاؤه . فكأن هناك إذن مستويين من الرقابة يقومان بين الحلم والتعبير عنه ، إذ يوجد أولا « الكبت » الذى يحول دون وصول أشياء كثيرة إلى الشعور ، وثانياً « القمع » الذى يحدّ من التعبير عن الافكار الشعورية ، سواء أكان هذا التعبير بالقول أو بالكتابة .

فمن الواضح أن الأسرة قد انقسمت إلى قسمين : فالولدان الصغيران قد أصبحا محط رعاية الأم ، أو من يقوم مقامها ، بسبب الحادث ، وهذا يتيح الفرصة لأن يصادق الغلام أباه الذى لن يغادر المنزل فى المستقبل كى يستطيع أن يحمى البيت من عبث « الصغير » ، أو يساهم فى تلك الحماية على الأقل . وبذلك يحتمل جداً أن يكون أمامنا أحد أحلام اليقظة التى تدور حول شعور الأخ الأكبر بأنه قد أصبح مهملا لأن أبويه قد خصا بعنايتهما إخوته الصغار .

ولو نظرنا إلى الأمر من ناحية الأب لوجدنا أن ما عمله الولد لا يعتبر شيئاً يذكر ، لأن سرده إياه ليس أكثر من مجموعة من العبارات البسيطة المتعاقبة التى لا تكشف عن أى إلمام بالحيل الفنية التى يستطيع بها أن يبرز الأجزاء الهامة فى قصته بشكل يثير القارىء ، ويجذب انتباهه ، ويولد فيه الترقب واللهفة . وكل تلك أشياء يسهل على الكاتب أن يتعلمها ، شأن سائر الفنون الأخرى . وقد استطاع (ستيفنسون) إتقانها بالمثابرة المضنية على التقليد .

ولقد كتب الكثيرون عن موضوع استمتاع الأطفال بالأدب . ومن المتفق عليه عامة أن التصور يلعب دوراً هاماً فى تقدير الأدب وتذوقه . ولذلك يستعين المدرسون بالوصف الدقيق ، واللوحات والصور ، والرسوم التخطيطية ، محاولين أن يوضحوا بها للأطفال ما يريد المؤلف التعبير عنه ، حتى يستطيعوا أن يعيشوا بقدر

الإمكان فى جو ما يسمعونه أو يقرءونه . فلكى يتذوق الطفل الأدب ينبغى عليه أن يحيا مع (وردسورث) فى جو تلك الخبرات الخيالية التى يوحى إليه بها فى وصف أقليم البحيرة ؛ وأن يصحب (ماسفيلد) فى رحلاته على السفن التى يصفها ، كما يتأمل حقول الخريف النضرة مع (كيتس) ، أو يعيش بين سطور قصائد (سكوت) . وهذا هو ما نقصده بالتصور . وبعض الأطفال يمتازون على غيرهم بقدرتهم على أن يتصوروا أن موضوع تفكيرهم قد أصبح شيئاً حقيقياً . وقد يتجاوز تصورهم حدود ما يضعه الكاتب فى بعض الأحيان . فقد سمعتْ طفلة ترجمة لإحدى قصائد (آرثر والى) اليابانية البسيطة ، وعندئذ أخذت تصف القرية التى ورد ذكرها فى القصيدة وصفا احتوى على عناصر لم تكن فى القصيدة على الإطلاق .

ومثل هذا التصور ليس نتيجة لمجرد استقبال سلبى من ناحية الطفل لتفاصيل قد زوده بها المدرس أو المؤلف ، بل إنه يكون تصوراً ناشطاً إنشائياً . ومن الخطر أن يتجاهل هذه الحقيقة أولئك الذين يبالغون فى تأكيد أهمية التصور فى تذوق الأدب ، فيهملون كل ما عداه .

وقد وجهت الأستاذة (أوليف هويلر) منذ بضع سنوات نقداً إلى الفكرة القائلة بأن تذوق الأدب لا يزيد على التصور إلا قليلا . ونشر النقد على صورة دراسة سيكولوجية لهذا الموضوع فى مجلة علم النفس البريطانية[1] . ويتلخص رأى الأستاذة (هويلر) فى أن محاولة ربط تذوق الأدب بالتصور ليست خاطئة ، ولكنها تخلو من الدقة . ونادت بوجود عامل آخر أطلقت عليه إسم « البقاء[2] » الذى قالت بأنه لا يقل فى الأهمية عن التصور . وذكرت أن : « الاستمتاع الكامل بإحدى القصائد لا يكون ممكنا إلا إذا امتزجت الصور ، وما تحمله من

(1) Olive Wheeler : An Aanalysis of Literary Appreciation - The British Journal of Psychology, General Society, Vol. Pr. 111, January 1923.

(2) Duration.

معان ، بالانفعالات المصاحبة لها ، وتدخل بعضها فى بعض . وإن ما أسميه « البقاء » هو ما ينتج عن هذا الامتزاج من تدفق مستمر للفكر والوجدان ، أو حركة دائمة موصولة » .

وتقول الأستاذة (هويلر) إن أبحاثها تشير إلى أن محاولة تكوين الصور ، وإضفاء الوضوح والتفصيل عليها ، يعوق تذوق الأدب . وقد يصبح التذوق فى بعض الحالات سهلا بالاستعانة بالخبرات الماضية التى ألم الطفل لأول مرة عن طريقها بالأشياء التى يحاول المدرس أن يثير فيها خياله . فمجرد وجود الصور ، سواء أكانت من صنع الطفل ، أو المدرس ، أو كليهما ، لا يكفى للتذوق الكامل واستنتجت (هويلر) من ذلك أن « من المقطوع به أن فهم القصيدة ، والاستمتاع بأجوائها ، يتوقفان على الانتقال الوجدانى للحالة المزاجية ، التى كانت مسيطرة على حواس الشاعر وقت نظمه للقصيدة ، إلى القارىء » .

فمحور القول إذن هو أن التصور لا يعين على تذوق الأدب إلا إذا كان تلقائياً . ولن تؤدى محاولة إثارة التصور ، وجعله واضحاً محدود المعالم ، إلى هذا الغرض ، سواء أكان المثير خارجياً أم داخلياً . وإذا أضفنا التدفق المستمر للفكر والوجدان إلى التصور التلقائى ، مع وحدة المزاج والتركيب ، فإننا نصل إلى نفس العناصر التى لمسنا من قبل وجودها فى حلم اليقظة .

ولقد قال (شللى) أننا عند ما نشاهد مأساة — وهو يقصد المآسى اليونانية — فإننا نرى أنفسنا فى صور الشخصيات التى تظهر فيها ، وقد تجردنا من كل ما يربطنا بالزمان أو المكان . ويبدو أن هذا ينطبق على ما يمر بنا من خبرات عند قراءة سائر الكتب والقصص والقصائد ، إذ يتوقف تذوقنا إياها على مدى اندماجنا فى شخصيات أبطالها ، حيث نستطيع مشاركتهم آلامهم وأعمالهم وانتصاراتهم . ولو كان هذا صحيحاً لأصبح من الجلىّ أن التفاصيل التعبيرية فى التصور قد تعوق الاندماج اللازم . فقد نخفق فى تذوق أحد المؤلفات لأن بطلها

شخص يصعب أو يستحيل علينا أن نندمج فيه . وقد نستطيع أن نستمتع في يسر وسهولة بإحدى القصص التى لا تزيد على أن تكون صورة حديثة منمقة لقصة « سندرلا » المعروفة ، وذلك لأن أغلبنا ليس فى قرارة نفسه إلا « سندرلا » . كذلك قد نجد متعة فى تأملنا لشخصية « شيلوك » فى تاجر البندقية لشكسبير ، لأنها تعبر عن كثير مما قد كبتناه ، فرؤيتنا إياه ، و إصغاؤنا إلى صوته ، يجد صدى فى نفوسنا ، على الرغم من كراهيتنا للرجل ، وذلك لأنه يصور لنا جانباً لا شعوريا من أنفسنا قد كبحناه وأنكرنا وجوده . ولا يصعب علينا أن نندمج مع (وردزورث) فننطلق « منفردين مثل السحابة » ، لأننا كثيراً ما خبرنا شعور الوحدة ، وكثيراً ما أوحت إلينا أحلام يقظتنا أن انفرادنا بأنفسنا ليس راجعاً إلى قلة عدد من حولنا من الناس ، بل إلى اختلافنا عنهم مثل اختلاف السحابة البيضاء عن باقى القبة الزرقاء .

ومن أشهر قصص (أرثر ماكن) قصة (تل الأحلام)[1] التى تصور كيف استطاع طفل وحيد أن يشيد مدينة أحلام على الطراز الرومانى ، وذلك من المواد التى اقتبسها من الكتب ، ومن بقايا آثار رومانية شاهدها على أحد التلال بالقرب من منزله . ويرى (ماكن) أن الأدب هو نقل حالة الاستغراق إلى الغير ، و يتمثل ذلك فى القصة بتلك الحالة المزاجية التى استولت على الطفل عندما جلس بين أطلال المعسكر الرومانى ، متخيلا وجوداً كاملا كان هو مركزه . و إذا لم يكن فى مقدور كل شخص أن يقرأ « تل الأحلام » و يشاطر (ماكن) تلك الحالة الوجدانية التى يحاول نقلها إلينا ، فليس معنى ذلك أن الفشل فى تذوق القصة يرجع إلى الكاتب . أو إلى نقص فى الناحية الجمالية أو الإدراكية عند القارىء . فلقد قرأ الكتاب كثيرون ، ولم يحسوا بغير الإشفاق على ذلك الغلام الذى أفضت به وحدته الشديدة إلى أعتاب الخيال المفرط . وهم بلا شك قد خبروا الوحدة من

(1) Arthur Macken : « Hill of Dreams »

قبل ، غير أن استجابتهم لها فى القصة كانت مختلفة عن استجابة الطفل ، فلم يستطيعوا الاندماج فى دوره عندما تخيل نفسه جالساً فى أعلى المسرح الدائرى وقت الغسق ، وقد أخذ الممثلون يؤدون أمامه أدوارهم فى مسرحية Cupid and « Psyche » . كذلك لا يشك أحد فى أنه قد مرت بهم أحلام يقظة رأوا أنفسهم فيها فى صورة أبطال أو بطلات من طراز آخر ، فأصبحوا لا يستجيبون إلا للكتب التى تستعرض لهم حياة أشخاص يستطيعون الاندماج فيهم .

ويدعى (إدجار ألان پو) أن المقال الذى كتبه بعنوان « تأليف الغراب »[1] ليس إلا محاولة دقيقة لشرح كيفية تأليفه لقصة « الغراب » وان كنا لا نعرف على وجه التحديد مدى أمانته فى ذلك . ويذكر (پو) فى هذا المقال أن عملية التأليف جميعها قد تمت بنفس الطريقة التى تتبع فى حل مسألة حسابية . ولقد كان (پو) قوياً فى بيانه لدرجة أنه اقنع الكثيرين بصدق رأيه لأول وهلة. غير أننا نلاحظ أنه أورد مقدمات لم يتتبعها إلى نتائجها المنطقية . فقد قال مثلا إن الكآبة أكثر الانفعالات شاعرية ، و إن موت سيدة جميلة يعتبر من أقوى الموضوعات الشعرية فى العالم . ومهما تكن النتائج التى استخلصها (پو) من هذه المقدمات ، فإن المقدمات نفسها غير معقولة ، وهى ليست أكثر من مجرد آراء شخصية . فإننا لو تصفحنا مجموع قصص (پو) ووجدنا أنها تدور بصور مختلفة حول موت سيدات جميلات ، لأدركنا من غير شك أن المؤلف واقع تحت سيطرة فكرة معينة . ومن المحتمل جداً أننا إذا ربطنا قصصه ومقالاته بسائر الحقائق التى نعرفها عن حياته وأعماله ، فإننا نستطيع أن نصل إلى بعض المعلومات عن أحلام اليقظة التى كان كثير الاسترسال فيها منذ طفولته . فنحن نعلم القليل عن الأثر الذى تركه فى نفسه موت أمه ، تلك الممثلة الجميلة الشابة التى كانت تحبه أشد الحب ، والتى لفظت آخر أنفاسها أمامه وهو لم يتجاوز الثالثة من عمره . ولذلك فإنه ، حتى عندما يحاول

(1) Edgar Alan Poe : « Composition of the Raven » .

أن يكتب فى الفلسفة ، ينادى بنظرية عن الكون يقول فيها بوجود جزئيات تندفع كل منها نحو الأخرى لتتحد بها ، كما يندفع الطفل إلى لقاء أمه الحبيبة . كذلك نراه فى أول قصيدة طويلة له بعنوان « الأعراف » يقيم قصراً وعالماً حيث يكون مثل ذلك اللقاء ممكنا كما نجد أن الكآبة هى الحالة المزاجية التى تسود جو تلك الأحلام التى تمتزج فيها ذكريات الماضى البهيجة بإدراك مرورها وانقضائها ، ويختلط توقع السعادة المقبلة بالعلم بأنها لم تتحقق بعد . كذلك نلحظ أن موت السيدة الجميلة له أهمية خاصة لأنه يعتبر شرطاً ضرورياً للقاء الخالد بها . وهكذا يصبح الترقب العنيف للخلود مرتبطاً بالتفكير فى الموت .

ولقد أصاب (پو) فيما ذكره عن مدى ما يحتاج إليه الكاتب من تفكير حتى يستطيع أن يصور الفكرة المتسلطة عليه ، والتى تدفعه إلى الكتابة تصويراً دقيقاً . وقد تصبح المهارة الفنية بمرور الزمن عادة ، فتغدو الكتابة عندئذ عملا آلياً ، كما يخبرنا بذلك بعض المؤلفين ويصير المؤلف أشبه بآلة فى يد شخص آخر يسخرها كما يشاء .

ومنذ وقت قريب ذكر أحد كبار رجال التربية فى مصر ، فى معرض حديث له عن تلك الطبعات المختصرة المبسطة لقصص (سير والتر سكوت) ، التى تستخدمها المدارس المصرية فى تعليم اللغة الإنجليزية ، أنه قرأ بعضها ، فوجد أنها على الرغم من تلخيصها لموضوعات القصص تلخيصاً وافياً تنقصها تلك الروعة التى كان يحس بها عند قراءة كتب (سكوت) الأصلية منذ بضع سنوات . وقد يُملّ القارىء الحديث طول الأجزاء الوصفية ، ويضن بهذا الوقت الذى ينقضى سدى قبل بدء حوادث القصة ، ولكن يبدو أن (سكوت) كان مغرماً بتلك الأشياء التى أطال فى وصفها ، إذ كانت تعينه على تهيئة الجو الملائم لوقوع الحوادث التالية . وقد ذكر المتحدث أنه كان يجد متعة بالغة فى قراءة ذلك الوصف رغم طوله ، وإن استمتاعه بالحوادث بعد ذلك كان يتضاعف لهذا السبب .

ويمكننا أن نجد ما يشبه ذلك فى أحلام اليقظة التى كنا نتحدث عنها . فإذا قال أحد الأولاد : « كثيراً ما تراءى لى فى أحلام يقظتى أنى أقوم بعمل من أعمال البطولة ... » فإنه إنما يسرد علينا موجزاً للحلم ، لا الحلم نفسه . فنحن نعلم أن مثل هذا الولد كثيراً ما يستسلم لفترات طويلة من شرود الذهن تكون حافلة بالتفاصيل التى يهمل ذكرها ، مصحوبة بمشاعر لايحاول وصفها . ولو حاول أن يسجل حلم اليقظة كاملا بغيه نقل الخبرات التى مرت به جميعاً إلى قارىء يشاركه عواطفه ، لتفوق على (سكوت) فى الإطالة والإسهاب . كما أنه لو حاول أن يتشبه بالمحدثين الذين يفضلون الإيجاز على الإضافة ، لوجد نفسه مضطراً إلى البحث عن أسلوب فى الكتابة يحقق الغرض والاقتصاد معا . ولكن مثل هذا الأسلوب لن يصادف النجاح الذى كانت تحظى به الأساليب القديمة إلا بعد كثير من التعديل والإحكام .

وقد كان المربون فيما مضى ينظرون إلى أحلام اليقظة عند الصغار نظرة تنقصها روح الفهم والعطف ، وذلك لأنهم يختلفون عن المربى الحديث ، الذى يتميز بنظرته التطورية إلى نمو الطفل فى أنهم لم يدركوا أن أحلام اليقظة ليست عيباً ينبغى القضاء عليه ، بل نشاط عقلى لابد أن نتعهده بالعناية ، ونحسن استخدامه . ولسنا نرمى من وراء هذا القول إلى تشجيع الأطفال على الاستسلام الموصول لأحلام اليقظة ، بل إننا نعنى ضرورة الاعتراف بوجودها ، ومحاولة تحديد مكانها فى الحياة العقلية ، وفهم أغراضها ، ومعرفة وسائل استغلالها فى النهوض بنمو الطفل .

وهنا ينبغى أن نقرر صراحة أننا ما زلنا على جانب كبير من الجهل فى هذه الناحية ، فإننا كثيراً ما نصادف مشكلات لا نستطيع لها حلا . ولهذا يحسن أن نحاول توضيح طبيعة هذه المشكلات .

كتب كثير من النقاد الممتازين فى موضوع قراءة الأطفال . وقد نشر

(جورج أورويل)[1] ، منذ وقت ليس ببعيد ، دراسة مستفيضة لبعض الكتب التى وضعت خصيصاً للأطفال ، ونالت رواجاً فى أوساطهم . فكان أهم ما لاحظه (أورويل) فى تلك الكتب هو التفاهة والغباء ، مما كان يبدو جلياً فى « القصص المدرسية » بوجه خاص . كذلك وجد أن بعض القصص التى توالى ظهورها عدة سنوات متتالية ليست إلا تكراراً لمجموعة من الأفعال التى تنبىء عن حب الظهور مما يقوم بها تلاميذ يبدو أنهم ممن لا يطرأ عليهم أى تغيير أو تقدم فى السن .

ومثل هذه القصص تثير اهتمام الأولاد والبنات الذين لم يتجاوزوا الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرهم على وجه التقريب ، أى الذين يكونون فى مرحلة الانتقال التى يتم فيها عادةً مغادرة المدرسة الابتدائية إلى المدرسة الثانوية .

والمدرسة التى تصوّر فى هذه القصص تكون دوما مدرسة داخلية ، يشرف على إدارتها ناظر يحيط نفسه بسياج من العزلة والغموض ، فلا يتصل به الأولاد إلا فى المناسبات التى يرتكبون فيها أحد الذنوب التى تستوجب المؤاخذة . وهو فى العادة ذو أهمية كبيرة ، إذ يشار إليه غالباً باسم « الدكتور » ، وإن كنا لا نعرف الجامعة التى منحته ذلك اللقب ، أو السبب الذى منح من أجله .

أما المدرسون فيندر أن يكونوا من ذوى الشخصيات القوية ويبدو أن وظيفتهم تنحصر فى إلقاء دروس لا يصغى إليها أحد ، وتكليف التلاميذ واجبات لا يحسنون أداءها ، ومعاقبتهم على تقصيرهم ، أو إرسالهم إلى ناظر المدرسة لعقابهم وهم يعاملون عموماً على أنهم أشخاص قليلو الكفاية ، ظاهرو العداء ، يستطيع الأولاد مراوغتهم والسخرية منهم .

وتدور معظم القصة حول جماعة من الأولاد يكوّنون « عصابة » ، يرؤسها بطل تسجل القصة فعاله ، وتلتف حوله جماعة من تلاميذ فرقته فى مثل سنه .

---

(1) Oearge Orwell.

وتقوم الجماعة مجتمعة بالخروج على النظام ، ومشاكسة المعلمين ، وإقامة الولائم فى عنابر النوم ، ومضايقة أشقياء المدرسة .

وقبل أن يهتم قارئو هذه القصص بما إذا كان من المعقول أن توجد مدرسة بهذه الصورة . بل يكفيهم منها أنها مكان يناسب هذا النوع من أحلام اليقظة التى لا يلائمها أى مكان حقيقى . ولو أبدلنا بتلاميذ المدرسة صغار العمال فى مصنع أو منجم فإننا سنجد أيضاً أن ذلك المصنع أو المنجم يختلف عن المصانع العادية والمناجم المألوفة قدر اختلاف المدرسة فى القصة عن سائر المدارس الحقيقية . فكأن المدرسة أو المصنع أو المنجم ليست سوى مسرح لتمثيلية صبيانية ساذجة تدور حول البطل وعصبته . وفيها يرمز الناظر والمعلمون وأشقياء المدرسة إلى ما أصاب الولد من حرمان على يد أولئك الذين كانوا يحولون دون إشباعه لرغباته ، ويتفوقون عليه فى الناحية الجسمية . ولذلك يشير اتجاه الولد نحوهم إلى المراحل المختلفة التى مرّ بها اتجاهه نحو أبيه . فهو يحترم الناظر الذى يكون فى العادة رجلا متزناً . وقد يكون صارماً ، ولكنه على العموم رجل عادل ، يلذ له أن يذكر دائماً أنه كان فى يوم من الأيام صبياً مثل سائر الصبية . أما المدرسون فهم بين غليظ الطباع ، أو شارد الذهن . وهم قوم غير أكفاء ، تغرى رؤيتهم بسخرية التلاميذ منهم . أما فيما يختص بأشقياء المدرسة فإن البطل تتاح له فى النهاية فرصة إلهاب ظهورهم بالسياط جزاءً لهم على ما ارتكبوه من أعمال العنف والقسوة ضد الضعاف من الصغار .

وهكذا تخرج العصبة مجتمعة للصيد ، وتقيم الولائم ، ويتحد أفرادها للقضاء على أعدائهم ، ويكوّنون جماعة يميزها اسم خاص وشارات معينة . وفى هذا تتشابه « فتية سان فالنتين »و«فتيات سان بازيل»و« عصابة السهم الأحمر »[1]

---

(1) " Boys of St. Valentine's ", "Girls of St. Basil's" and "The Red Arrow Gang" وهى أسماء لقصص معروفة من قصص الصغار .

غير أن مسرح نشاط الجماعتين الأولى والثانية هو مدرسة خيالية ، على حين تتخذ الجماعة الثالثة مجتمعاً غير ممكن الوجود تقوم فيه بمغامراتها .

ولو كانت أحلام يقظة صغار السن لا تفضى إلى غير الاستمتاع بمثل هذا النوع من « الأدب » ، ولا تتجاوز هذا الحد ، فإننا لا شك نكون مصيبين فى يأسنا منها . ولكن أهذه هى النتيجة الوحيدة المحتملة ؟

إننا لا نعلم الكثير عن طفولة (كارليل) . ومن المحتمل أننا لن نعلم عنها قدراً يكفى لتحديد نوع « البطل » الذى كان يراوده كثيراً فى أحلام يقظته عند ما كان صغيراً . ولكن مما لا شك فيه أنه قد أدرك فى كبره أن دور البطل يتوقف إلى حد كبير على المجتمع الذى يعيش فيه ، وما يتيحه هذا المجتمع من فرص للتعبير عن أحلام اليقظة فى صورة نشاط حقيق . فالبطل قد يكون إلها ، أو نبياً ، أو ملكا ، أو دكتاتوراً ، أو علماً من أعلام الأدب . فنشأة كارليل الاجتماعية ، ومواهبه ، وظروفه ، أفضت به إلى أن يكون من رجال الأدب البارزين ، وأن يحيا حياة « البطولة » كواحد منهم . فأصبح بذلك يأتى كل ما يقوم به البطل فى القصة المدرسية من فعال ، ولكن فى مستوى مختلف . فنراه يسمو ببعض الأشياء إلى مرتبة التقديس ، ويهبط بأخرى إلى حضيض المهانة والازدراء . كما أخذ يفسر التاريخ على أنه قصة جماعة من « الأبطال » . وهذا الرأى ، على الرغم من أنه خاطىء بوجه عام ، فإن النظرة فيه تمتاز بفرديتها واختلافها عن غيرها ، كما أن الفكرة عن « البطل » و « الرجل العظيم » فكرة شخصية فردية ، مما لا يسعنا معه إلا أن نؤمن بأن هناك رجالا يستطيعون أن يجعلوا من الحوادث شيئاً عظيما رائعاً ، أكثر مما تستطيع الحوادث أن تخلق منهم رجالا عظماء .

ويستطيع كل من ألف مشاهدة لعب صغار الأطفال التمثيلى ، ورؤية رسومهم ، والاستماع إلى قصصهم ، أن يدرك ما للرى من أهمية قصوى

فى نظرهم . فملابس الرجال مثلا تكفى لأن تحول الطفل رجلا ناضجاً . وقد كانت الملابس منذ عدة قرون من الندورة بحيث أن الثوب الواحد كان يظل مستعملا طالما كان رتقه وإصلاحه ممكناً . كذلك كانت الملابس الأنيقة تخصص للمناسبات الهامة . كما كانت أسر مهرة الصناع المحترمين ترتدى أفخر ملابسها فى صلوات الآحاد ، وكان يندر أن تظهر تلك الثياب فى مناسبات أخرى ، باستثناء حفلات الزفاف والمآتم .

فما الذى جعل الملابس تترك أثراً عميقاً فى نفس (كارليل) منذ الأيام المبكرة فى حياته ؟ أهى رغبة فى التزيى بها لم يستطع إشباعها ؟ أم هو منظر تلك « الحلل الأنيقة » التى كان يرتديها أولئك الرجال والنساء الذين كان يبصرهم فى الكنيسة أيام الآحاد ، أو يشاهدهم وهم يسيرون على مهل فى الطرقات الممتدة من أكواخهم إلى الكنيسة ؟ أم إنه حسد مكبوت تولدت عنه نقمة شديدة على المختالين والمسرفين فى التأنق ممن كان يحس نحوهم بحسد تطور على مر الأيام إلى كراهية طاغية دفعته إلى تصويرهم فى شخصية (الفرد دورساى)[١] ؟ وما المراحل التى أفضت إلى تلك الفكرة التى أبرزها فى كتاب (سارتور نيسارتس)[٢] ، حيث قال بأن العالم المرئى جميعه ليس سوى رداء إلهى خفى مجهول ؟

ليس (كارليل) إلا واحداً من فئة كثيرة . ويبدو أنه يمثل الرجل الذى تعهد نمو أحلام يقظته ، فاستطاع أن يخلق منها شيئاً يسمو على مجرد حلم اليقظة . فما حلم اليقظة إلا نبتة ترعرعت وأصبحت شجرة سامقة مونعة ، رفعت (جاك) عن الأرض وأجلسته بين السحب العالية . وهذا لا يحدث لجميع الناس ، لأن بعضهم لا يتعدون حدود الطفولة ، بل يظل خيالهم ملازماً لتلك المرحلة ، فلا يبتغون من الأدب إلا أن يعيد عليهم عرض أحلام يقظتهم فى صور قد أصاب بعض

---

(١) Alfred D'oreay وكان مشهوراً بالأناقة .

(٢) Sartar Nesartus الفائقة فى العصر الفكتورى .

التغيير مكانها وزمانها ، دون أن يمس من جوهرها شيئاً . ولكن بعضاً آخر يسير نموهم فى طريقه الطبيعى ، فينتقلون إلى مستويات جديدة يتاح لهم فيها الشعور بقيم جديدة .

فكيف يحدث مثل هذا التحول ؟

لن يكون ذلك بالتعبير عن ازدراء صور الطفولة ، أو بالإصرار على دراسة الأعمال الناضجة للبالغين . فقد قال مدرس لغلام كان يتحدث إليه عن نوع القصص التى يحبها ، إن المؤلف الذى يشير إليه قد أبدع فعلا فى كتابة قصص كثيرة . وهنا قال الولد فى دهشة صادقة : « ولكنى لم أكن أعلم أن كتابته شائقة ، فقد كنت أعتقد دائماً أنه من الكتاب القدامى » . كذلك يرجع جانب كبير من كراهية كبار المؤلفين ، أو عدم الاكتراث بكتبهم ، إلى الطريقة التى كانت تفرض بها مؤلفاتهم على التلاميذ فى وقت لم يكونوا قد بلغو فيه مرحلة من النمو تتيح لهم أن يتذوقوا هذا اللون من الكتابة . كما يرجع إخفاقهم فى ذلك إلى بلادة فى ذهنهم ، وفجاجة فى ذوقهم . فإن كل ذلك يفضى حتما إلى أن يصبح مقت تلك الكتب ملازماً لهم ، كما أنه يعاود الظهور كلما وقع أحدها تحت أبصارهم .

فما الداعى إذن إلى إدخال دراسة الأدب فى مناهج المدارس الابتدائية والثانوية ؟ إن جانباً من الغاية المنشودة هو أن نيسر للتلاميذ فهم لغتهم القومية ، ومعرفة وسائل استخدامها ، كما أن جانباً آخر من هذه الغاية هو أن نقدم لهم صوراً من الإلهام والتفكير الرائع الذى امتاز به فريق من بنى جنسهم . غير أننا مع ذلك لا نقدم لهم تلك الأفكار لمجرد الأمل فى حفظهم للقوالب اللغوية التى صيغت فيها ، بل لنظفر منهم باستجابات تشير إلى أن الحالة الوجدانية التى مرت بالكاتب أثناء كتابته قد انتقلت إلى القارىء فأصبح يشاركه إياها ، مما جعل فى وسعه أن يتذوق ما فيها من جمال وصدق . وينبغى علينا ألا نتعجل هذه الاستجابات كثيراً .

فنحن لا شك نخطىء لو توقعنا أن روائع (الدكتور جونسون)[١] يمكن أن يسيغها خيال غلام لم يتجاوز بعد مرحلة النمو التى تجعله يضع (بافالو بيل) فيما يقرب من مرتبة الآلهة .

والملاءمة بين الأدب ومطالب الأطفال من أخطر العمليات وأعقدها ، لأن هذا يتطلب حذف أجزاء معينة ، والخطر فى أن نضحى بالطفل نفسه فى سبيل الأدب ، فالكثيرون من البريطانيين الذين يحفظون بعض القصص من مجموعة « أسفار جليفر »[٢] قد يدهشهم أن يعلموا أن تلك القصص بالذات ليست سوى صور بدائية غير مهذبة للحياة الإنجليزية فى عصر (الملكة آن) . ونحن أنفسنا نعلم كيف أن الكثيرين من مخرجى أفلام السينما قد اعتادوا أن يتناولوا الروائع الأدبية بالتغيير التام ، فلا يحتفظون منها إلا بعنوانها واسم مؤلفها . حتى يصبح ما يخرجونه لنا قصصاً جديدة لا تعدو مستوى أحلام اليقظة فى مرحلة المراهقة . وهذا هو نفس ما يحدث عند محاولة تبسيط الأدب العالى للأطفال ، مما يفضى عادة إلى تجنب الأدب بدلا من تدريسه .

فى أى المراحل إذن ، وبأى الوسائل ، نستطيع أن نضمن أن الأولاد قد بدءوا يدركون أن الكفاح ضد الفقر والجهل والمرض أمر مثير ، ذو قيمة ، ومفض كذلك إلى الإشباع مثل ذلك القتال الذى قرءوا عن نشوبه بين فتية سان ڤالنتين وأشقياء المدرسة ؟ وهل يساعدنا فى ذلك أن الولد فى هذه المرحلة من النمو قد أثارته هذه القصة عن القتال بحيث بدأ يشعر أثناء قراءتها أنه هو الذى يقوم بنفسه بعملية الجلد بالسياط ؟ إننا نجد بين هذا النوع من الكتب التى يلتهم الأطفال صفحاتها فى نهم ، وبين روائع الأدب الرفيع ، طائفة ثالثة من المؤلفات

---

(١) Dr Johnsou ناقد ألمعى وكاتب مشهور امتاز بعمق التفكير وبراعة الأسلوب . (المترجم)

(٢) Gulliver's Travels

مثل كتب (بول دى كروف) ، ومنها (صائدو الميكروب)[١] وغيرها تحتل مركزاً وسطاً يتيح لكبار الأولاد الذين نالوا قسطاً من التعليم أن يشتقوا منها لذة ومتعة . والحقيقة أن ذلك ليس مقصوراً على أولئك الأولاد وحدهم ، فإن الأرقام التى وردت فى أولى الصفحات فى طبعة ١٩٤١ من هذا الكتاب فى السلسلة المعروفة باسم « حياة ورسائل » التى تنشرها شركة (جوناثان كيب)[٢] تدل على أن هذا الكتاب قد نشر لأول مرة عام ١٩٢٧ ، ثم أعيد طبعه فى هذه السلسلة فى أعوام ١٩٣٠ ، ١٩٣٣ ، ١٩٣٦ ، ١٩٣٧ (مرتين) ، ١٩٤١ . فإن بطله ، وهو أحد رجال العلم ، لا يقل إثارة للاهتمام عن بطل القصة المدرسية الذى هزم أشقياء المدرسة .

وقد يحاول المدرس أن يتدخل بالتوجيه أو غيره فى المحاولات الأولى التى يقوم بها الطفل فى ميدان الأدب الساذج ، الأمر الذى يذكرنا بنفاد صبر الطفل عند ما يجد أن البذور التى وضعها فى الماء تصبح نباتاً مونعاً مزهراً فى مدى ليلة واحدة . ومن ذلك مثلا أن الأسطر التالية كتبها غلام فى السادسة من عمره ، بمجرد أن طلب إليه أن يكتب شيئاً شائقاً :

« ذهب رجل وسيدة إلى الكنيسة وتزوجا . ثم عادا إلى بيتهما ومعهما كعكة « الزفاف » ليأكلاها مع الشاى » .

وقد أحس الولد من النتيجة التى وصل إليها بلذة بالغة شاركه فيها سائر زملائه عندما قرىء ما كتبه بصوت مرتفع . وهذا يدل على أنه قد استطاع إنتاج قطعة أدبية بالنسبة إلى معايير سن السادسة . وقد يرى الكبار أن النظر إلى الغاية من الزواج على أنها مجرد الاشتراك فى تناول كعكة الزفاف ، يعتبر قصوراً فى التفكير ، كما أن الولد نفسه سوف يشاركهم هذا الرأى فيما بعد . غير أننا فى الحقيقة لا يهمنا

---

(١) Paul de kruif : « Microbe Hunters »

(٢) « Life and Letters » series of Messrs. Jonathan Cope .

كثيراً أن هذا الولد لم يكوّن لنفسه مثلا علياً عن الزواج وهو لم يتجاوز بعد سن السادسة .

فإذا حاول البعض تذكيره بأن قصته قصيرة فإنه سوف يعتبر ذلك عدم تشجيع له . ولذلك يصبح من الأجدى أن نقول له : « لقد راقتنى قصتك كثيراً ، و إنى أرغب فى الاستزادة منها . فأنت لم تذكر لنا كيف ذهب العروسان إلى الكنيسة . هل ذهبا معاً أم تقابلا هناك ؟ وهل انتقلا إليها سيراً على الأقدام أو فى سيارة ؟ وماذا كان نوع كعكة الزفاف ؟ » . . وهكذا . كذلك يمكننا أن نذكر الولد بأنه يحسن به أن يعرف الهجاء الصحيح لكلمة « زفاف »[1] مادام يريد وصفه . فتشجيعه بهذه الوسائل ، و إفهامه أن الهجاء وقواعد اللغة من العناصر الضرورية فى كتابة قصصه التى ستحظى بإعجاب زملائه ، سوف يضمن استمراره فى محاولة تنمية نفسه . وذلك لأن تعليمنا إياه الهجاء والقواعد بهذه الطريقة من شأنه أن يجعلهما مرتبطين بحاجات يشعر بها و إن إهمال الدرس العادى لهذه الحاجات وانفصاله عنها هو سبب فشله .

ولسنا نرمى من وراء هذا كله إلى حث المعلمين والآباء على التنقيب المقصود عن أحلام اليقظة عند تلاميذهم وأبنائهم ، أو بذل محاولات جدية إما لتشجيعهم على الاسترسال فيها أو الانصراف عنها ، لأن الحكمة تقضى دائماً فى مثل هذه الأمور باتخاذ موقف سلبى . وأسلم الوسائل لصرف الأطفال عن الاستسلام الموصول لحلم اليقظة هو أن نهيىء لهم الظروف الملائمة للتكيف للبيئة الخارجية ، وميسّر لهم الفرص للقيام بالنشاط الذى يتيح لرغباتهم الطبيعية أن تنال إشباعاً حقيقياً . كذلك يحسن أن نشجعهم على تسجيل رغباتهم دون كثير من التدخل والتوجيه من ناحيتنا . و ينبغى أن تنال المحاولات التى يبذلونها من التقدير ما يكفى لتشجيعهم

---

(١) الأصل فى الانجليزية أن الولد أخطأ فى هجاء هذه الكلمة إذ كتبها « weding » بدلا من « wedding » .

على الاستمرار والإجادة ، وألا يتجاوز التقدير هذا الحد . وليس من الحكمة إخراج تمثيليات الطفل على المسرح . أو الإسراف فى الثناء عليها فإن ذلك يفضى إلى أن يظل الطفل ملازما لذلك المستوى الذى يجد فيه هذا الإشباع ميسورا ، بحيث إذا لم يتكرر هذا الثناء المفرط بعد ذلك ، فإن الطفل لن يحاول كسبه بإتقان عمله ، بل إنه سوف يصبح مسرفا مختالا ، دائم الاصرار على مطالبة غيره بالإصغاء إليه ، و إطرائه بالشكل الذى يريده . صحيح إن الأطفال فى حاجة إلى قدر من الإطراء ، ولكن ينبغى أن يكون إطراؤنا لهم متسما بالدقة والحرص ، وأن يكون مجرد وسيلة لتشجيعهم على موالاة بذل الجهد والإتقان . وكثيراً ما يستمد الطفل مما يعمله بنفسه مادة يتعلم منها قواعد اللغة والهجاء والأسلوب الأدبى . وقد يحسن صنعا لو أنه قام بتحليل ما يكتب ، والبحث عن أساليب أخرى تفضل أسلوبه الراهن ، بدلامن اقتباس مقطوعات بديعة لشللى أوشكسبير واقتضابها .

و يمكن تقسيم الأفكار التى يتخذها الأطفال محوراً لقصصهم إلى أنواع استوحيناها من دراستنا السابقة لأحلام اليقظة فى مختلف مستويات النمو . ونجد فى كتاب « حديقة الطفل الشعرية » (لروبرت لويس ستيفنسون) كثيراً من مقطوعات الشعر التى تدور حول موضوعات فى المستوى الأنانى ، وهى مما يستطيع الأطفال فى حوالى سن السابعة الاستمتاع به إلى درجة فائقة . ومنها مثلا :

« عندما تضاء المصابيح فى المساء ، يجلس أبواى حول النار ، حيث يقرآن و يتحدثان و يغنيان . ولكنهما لا يلعبان بشىء » .

« وعندئذ أتسلل فى الظلام بجوار الحائط ، ومعى بندقيتى ، فأقتفى آثار الحيوانات فى الغاب ، خلف الأريكة » .

ومنها :

« من ذا الذى يستطيع أن يتسلق شجرة الكرز العالية سواى ؟ » .

ومنها أيضاً .

« آه . إني أنا ربان تلك السفينة الصغيرة الأنيقة التى تنساب على صفحة ماء البحيرة » .

ولقد كان الأولاد الذين أجرى عليهم (كولدول كوك) تجربته التعليمية فى مدرسة (پرس) [١] ، ثم كتب عنهم فى كتابه (طريق اللعب) [٢] يشعرون باهتمام بالغ بابتداع الجُزر ، والمجتمعات الخيالية ، وبما كان يصحب ذلك من نشاط . وحتى فى سن المراهقة فإن كتابة الأولاد والبنات تظل شبيهة بقصص المغامرات العاطفية المألوفة .

ولن تكون التلقائية ميسورة فى نشاط الأطفال إلا إذا راعينا منتهى الحرص والعناية فى معاملتنا إياهم . فقد حدث أن فتاة صغيرة ، كانت قد بدأت فى تعلم التعبير بالخطابة والكتابة ، كتبت موضوعاً إنشائياً قصيراً عن بيتها نال إطراء معلمتها . وعندما عادت البنت إلى منزلها أخبرت أبويها بما كتبت . ولكن أمها لم ترض عن صراحتها فى الكتابة . وأخبرتها بذلك . وعندئذ عارضت البنت رأى أمها بقولها : « ولكن كل ما ذكرته صحيح » . فقالت الأم « إن مثل هذه الأشياء ينبغى أن تظل فى طى الكتمان ، ولا تخرج عن دائرة العائلة ، حتى ولو كانت صحيحة » . فأجابت الابنة على الفور : « إذا لم يتسنَّ لى أن أكتب ما هو صحيح ، فلن أكتب شيئاً على الإطلاق . » [٣] . ونحن وإن كنا نقرّ الأم على ما ذهبت إليه ، إلا إننا نرى مع ذلك أنها لو كانت قد بدأت نصحها لإبنتها بإطراء ما كتبته ، فمما لا شك فيه أن نصيحتها كانت خليقة بأن تلقى قبولا حسنا عندها .

وقد يفضى التعليم نفسه إلى إعاقة التلقائية . ومن ذلك أن مدرسة كانت

---

(١) R. L. Stevenson : " A Child's Garden of Verse " .

(٢) The Persse School .

(٣) راجع الحالة الخامسة فى الفصل الثانى من كتاب « التحليل النفسى فى الفصل » للمؤلف .

قد تأثرت إلى حد كبير بما كان يقوم به تلاميذ (كولدول كوك) من نشاط تلقائي ، فابتاعت عدة نسخ من كتاب « طريق اللعب » ، وكلفت تلميذاتها بنقل ما فيه من رسوم . ولو كان الغرض من ذلك هو مجرد تدريبهن على رسم الصور ، لاستطعنا أن نعتبر طريقتها ناجحة ، ولكنها كانت فى الحقيقة ترمى إلى تنمية التلقائية عند التلميذات ، ولذلك لم يكن هناك أسوأ من مثل تلك الطريقة لتحقيق ذلك الغرض . وإن من حسن حظ الجيل الجديد أن الفكرة القديمة القائلة بأن التربية تنحصر فى مجرد إلقاء الدروس وتلقين المعلومات قد بدأت تختفى بالتدريج أمام فكرة توجيه النمو توجيهاً مقصوداً .

ونستطيع الآن أن نلخص المشكلة التربوية القائمة فى عبارات محدودة : هل فى الإمكان أن نستغلّ نشاط الأطفال التلقائى ، الذى تعبر عنه أحلام اليقظة ، وأن نوجّهه بحيث نصل به إلى مستويات عليا للتعبير تلائم النمو العقلى وتذوق الأدب ؟ لا شك أن ذلك القدر الكبير من النشاط الذى يجرى الآن فى المدارس يوحى بالرد إيجاباً على هذا السؤال . غير أننا لا زلنا أيضاً نلاحظ أن كثيراً من التعليم السائد يقوم على التلقين ضارباً صفحاً عن الاهتمام بقدرة الأطفال على التعبير التلقائى . كما يبدو أن عدداً كبيراً من الكتب المنتشرة فى المدارس ترمى إلى الحيلولة دون تذوق التلاميذ للأدب .

ويمكننا أن نوجز معظم ما قيل فى هذا الفصل بالإشارة مرة أخرى إلى موضوع سبق الكلام عنه ، وهو موضوع قصة سندرلا . فقد لقيت هذه القصة انتشاراً فى كثير من البلاد ، كما ذاعت بصور متنوعة منذ آلاف السنين . وهى إجمالا قصة شخص كان مهاناً من أسرته التى لم يستطع أفرادها تقديره حق قدره . غير أنه يتصل مصادفة بقوم آخرين يدركون حقيقته على الفور .

وقد ناقشنا مصدر هذه الفكرة عن الذات فى فصل سابق . وكل ما يهمنا الآن هو تكرار ظهور هذا الاتجاه الذى لوحظ انتشاره بين معظم الناس ، وكثرة

ظهوره فى أحلام يقظتهم . ولذلك يمكن القول بأن قصة سندرك ما هى إلا « حلم يقظة جمعى » ولا شك أن دراسة أفلام السينما المحبوبة ، والروايات الكثيرة التداول ، وقصص المغامرات العاطفية المألوفة ، تكفى لإقناع كل من قد يساوره الشك فى صحة هذا القول .

فذلك الغلام الصغير الذى كنا نرى صورته منذ بضع سنوات فى نوافذ بائعى الصور واللوحات ، وقد علت وجهه الكآبة وهو يقول : « ليس ثمة من يحبنى . سأذهب إلى الحديقة وآكل الديدان . » هذا الصغير قد توصل فى الحقيقة إلى نصف القصة بنفسه . ولن نستطيع ، بغير أن نلم بكثير من الحقائق عنه ، أن نصل إلى معرفة السبب الذى جعله يعتقد أن تغيير نوع الطعام سوف يصلح من أمره . أما الطفل الذى يُعقِّب على تأنيب طفيف وُجِّه إليه بقوله : « إنك قد أصبحتِ لا تحبيننى . سأفرّ منك لأبحث لى عن أم أخرى » فهو إنما يعبر عن القصة كلها . وهذا أيضاً قد يحدث للطفل فى مستوى آخر من مستويات النمو إذ نسمعه يقول : « أودّ لو أدركنى الموت فإنك عندئذ سوف ينتابك الأسى والجزع » .

فكأن كل مجموعة من الصور تمثل شخصاً غير محبوب ممن حوله ، ولكنه يستطيع اكتساب محبة قوم آخرين غيرهم ، إنما تعبر عن هذه الفكرة بدرجات متفاوتة من الدقة . وكلما ازداد سمو المكانة الاجتماعية والثقافة للجماعة الثانية عن الجماعة الأولى ازداد ما يناله من التبجيل ذلك « النبى » الذى لم يحظ من بنى وطنه بما يستحقه من التكريم . وقد يكون البطل طفلا ، أو شاعراً مغموراً ، أو غير ذلك من الصور التى لا حصر لها . كما أن تعبير الطفل عن الاعتقاد الذاتى قد يتم فى سن الثالثة ، وقد يستمر معه إلى سن متأخرة ، كما أنه قد يظهر إما فى صورة شائهة غير مهذبة ، أو فى صورة فنية ناضجة . وهكذا نستطيع أن نتوقع أن تظفر بالتقدير على الفور أية قصيدة تستعين بالصور على إبراز تلك الفكرة ، مثل

تلك المقطوعات الشعرية التى ينظمها الطفل من تلقاء نفسه .

وما دام موضوع القصيدة التى نجد فى قراءتها لذة ومتعة هو نفس موضوع أحلام يقظتنا ، فلا بد أن يكون تذوقنا لهـا راجعاً إلى أن ناظمها قد عبر عن أفكارنا بشكل أكثر دقة ورونقاً مما نستطيعه نحن . ولو أنا اخفقنا فى تقدير ما نظمه فإن ذلك يعنى أننا نشعر أن فى وسعنا أن نتفوق عليه فى إجادة التعبير ، وهذا يجعلنا نتحول عن القصيدة إلى حلم اليقظة . ذلك هو الأساس الذى نتوقع أن يقوم عليه تقدير الطفل ، إذ يجد الطفل أمامه شيئاً قد فكر فيه وأحس به ، غير أن القالب التعبيرى الذى صُبَّ فيه أكثر إحكاماً مما فى مقدوره . فمن الضرورى إذن أن يكون الشعر الذى نختاره له قريباً من مستوى تعبيره ، لأننا وإن كنا نبغى التأثير فيه ، إلا أننا لا نرمى إلى إظهار تفوقنا الساحق عليه .

وقد أدت أحلام اليقظة بطريقة الاستخبار فى إحدى المناطق الفقيرة إلى نتيجة أدهشت ناظرة المدرسة التى أجريت فيها التجربة ، إذ قالت إنها لم تكن لتتصور أن الأطفال يستطيعون التفكير فى كل تلك الأشياء العديدة ، أو التعبير عن أنفسهم بمثل هذه السهولة التلقائية . وقد لوحظ أن التعبير فى معظم الأحيان كان بدائياً ساذجاً ولعل سبب ذلك هو اعتياد الأطفال ذلك كذلك حدث ما كان متوقعاً من أطراد فى صور التعبير ، وذلك لأن الأطفال كانوا متجانسين إلى حد كبير من حيث مرحلة النمو ، ونوع الحياة التى يعيشونها ، وألوان الحرمان التى كانوا معرضين لها . ومع ذلك فقد كان تعدد الصور مثيراً للدهشة ، فقد استعان الأطفال بالكتب والمسرح والسينما والصور ليتزودوا منها بالمادة اللازمة لتكوين أحلام يقظتهم . فكان فى وسع المدرس الماهر المهتم أن يستغل كل تلك المواد استغلالا كبيراً لمصلحة أولئك الأطفال .

لقد كان من أيسر الأمور أن نكتب عن موضوع هـذا الفصل كتاباً كاملاً ، أكبر بكثير من هذا الكتاب ، غير أنى رأيت من الحكمة ألا أحاول

ذلك ، وفضلت أن أتركه فى صورته الحالية ليكون بمثابة دعوة موجهة إلى كل قارىء يهمه هذا البحث فيحاول التوسع فيه بنفسه مستعيناً بكل ما هو ميسور له من مادة . ولا شك أن قولنا بإمكان استغلال الخيال فى مساعدة الطفل على النمو ، وإعانته على الانتقال إلى مستويات سلوكية وفكرية سامية بالاعتماد على تلك المستويات التى يكون قد وصل إليها بالفعل ، لا يقصد به أكثر من مجرد الإشارة إلى ما يعرفه الكثيرون من الزعماء والقادة . فالمسيح مثلا لم يحدث الصيادين على شاطىء البحيرة كما يحدثهم سائر الناس ، ولم يقل لهم : « دعوا تلك الأعمال المادية التى تقومون بها فى سبيل الأجر . خلفوها وراء ظهوركم ، ودعونى أرشدكم إلى مهنة أسمى » ، بل إنه أخذ يحدثهم بعبارات ألفوها فى حياتهم اليومية ، فقال لهم : « اتبعونى وأنا كفيل بأن أجعل منكم صائدى رجال » . وهكذا يستطاع بنفس الطريقة التى أمكن بها قبول حرفة الصيد وتعديلها ، أن نقبل حلم اليقظة ، ونتعهد نموه ، حتى نصل به إلى ذلك المستوى الرفيع الذى بلغه أعلام الفن والأدب .

الفصل التاسع

حلم اليقظة والفن

أصبحت أعمال الأطفال الفنية محط الاهتمام والعناية فى السنوات الأخيرة .

وقد أثار معرض رسوم تلاميذ الأستاذ (سيزك) بفينا[1] اهتماماً شديداً . ومنذ ذلك الحين كتب زميله الأستاذ (ڤيولا) عدة مقالات فى هذا الموضوع ، كما نشر كتابا بعنوان «فن الطفل[2]»

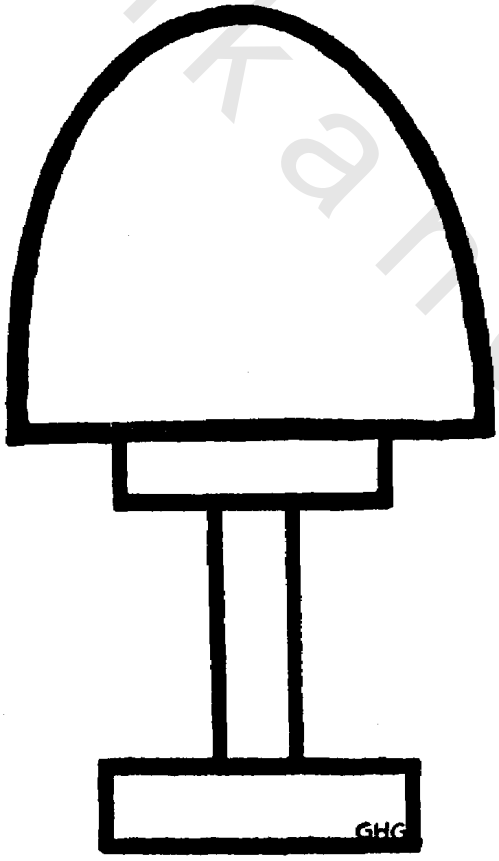

(شكل ١)

ويمكن دراسة الفن عند الأطفال من عدة نواح ، غير أن الناحية التى تهمنا هنا هى علاقته بحلم اليقظة ، من حيث أنه وسيلة للتعبير التصويرى عنه ، واتحادهما فى المصدر .

ويبين (شكل ١) رسماً

(1) Professor Cizek of Vienna

(2) W. Viola: "The Child's Art" (Univ of London Press : London: 2ud. Edition, 1948)

وقد زار الأستاذ ڤيولا مصر فى العام الماضى وألقى عدة محاضرات قيمة عن الفن عند الأطفال .

قام به طفل صغير كان قد نقل لتوه من قسم الصغار إلى قسم البنين بإحدى المدارس الريفية . وقد رسم الولد هذا الشكل عندما طلب المدرس إلى تلاميذه أن يرسم كل منهم ما يريد .

وقد روعى منتهى الحرص فى صياغة الأسئلة التى ألقيت على الولد بشأن ما رسمه ، حتى لا يكون فيها ما يوحى إليه بنوع الإجابة . ولم يكن ذلك بالأمر العسير فى البداية ، لأن محدثه لم تكن لديه أية فكرة عما يقصد الولد تمثيله بما رسمه . ولو قيل للولد مثلا : « ما هذا ؟ » لأدرك أن رسمه لم يعبر عما كان يريد التعبير عنه ، مما يولّد عنده شعوراً بالمهانة ، وتكون النتيجة إما أن ينتابه الحنق فيرفض الكلام إطلاقاً ، أو أنه يخشى أن يكون قد جعل من نفسه مثاراً للسخرية ، فيندفع فى إيضاح قد يثير الضحك بالفعل .

لذلك كانت أول عبارة وجهت إليه هى : « رسم جميل ! هلا حدثتنى عنه قليلا ؟ » وقد أجاب الطفل من فوره : « إنه منارة » ، ثم انطلق يتكلم بحرية . وقد ذكر فى معرض حديثه أنه لم تسبق له رؤية منارة من قبل . كما قال ، رداً على سؤال آخر ، إنه لم ير صورة لإحدى المنائر أيضاً . وكان ذلك مما يصعب تصديقه ، فقد كان يعيش فى مدينة صغيرة ينتشر فيها بيع نوع من الثقاب المعروف باسم « ثقاب المنارة » ، إذ كان يباع فى علب يعلو غطاءها رسم منارة . غير أنه يبدو أن الطفل لم يستحسن هذا الرسم لسبب من الأسباب ، ولذلك فإنه نسيه عندما اعتزم رسم المنارة ، ولم يرسم سوى المنارة التى يريدها .

والجزء الذى يشبه القبة فى أعلى الشكل يمثل الضوء ، وهو أقوى ضوء يعرفه الطفل ، مدفأة متأججة النيران . أما باقى الرسم فهو القاعدة . وذلك هو كل ما تعنيه المنارة فى نظره . فهى ضوء قوى محمول على قاعدة . أما كل ما عدا ذلك فلا يهمه ، إذ لم يبذل أى محاولة لتمثيل البحر ، أو الصخرة التى تقوم عليها المنارة .

ولا شك أن الولد كان يعرف شيئاً عن فوائد المنارات ، فقد قال إن المنارة

تجعل رجال البحر فى أمان ، فهم يدركون عند رؤيتها أنهم قد أصبحوا فى مأمن من الأخطار .

فالطفل قد رسم شيئاً يرمز إلى الأمن ، ويبدو أن شيئاً ما فى حياته قد علمه أن الضوء معناه الأمن ، فغالى فى رسم أقوى ضوء يعرفه ، وأقامه على قاعدة . فكان الشكل الناتج أقرب إلى المصباح منه إلى المنارة . وكأنه قد ابتدع لنفسه رمزاً يدل على الأمن الشديد .

كان من السهل التأكد من أن هذا الطفل يمقت الظلام مقتاً شديداً . وذلك من الأمور المألوفة التى يعتقد كثير من الناس أنها طبيعية . غير أن التجارب التى أجريت على الأطفال توحى بأنهم لا يخافون الظلام بطبيعتهم . ولكنهم قد يعتادون ذلك بسبب ظروف حياتهم . ولما كانت مناقشة الطريقة فى نمو هذا الخوف ، أو مدلول الأسباب التى يعلله الطفل بها ، قد تخرجنا عن دائرة بحثنا ، فيكفى أن نؤكد أن ذلك الطفل عندما أحس بحاجته إلى الأمن خلق لنفسه رمزاً ينبىء عنه ، فاستطاع بذلك أن يحصل من فنه على تعويض عن شعوره بالخوف وعدم الاطمئنان .

ومما يجدر بالذكر أن الأطفال فى رسومهم يسرفون فى إبراز الأجزاء التى تثير اهتمامهم وذلك بوسيلتين : الأولى مضاعفة الحجم ، والثانية التكرار . فالطفل الذى يهتم بالطيور قد يرسم طائراً واحداً ضخما جداً بالنسبة إلى سائر الأشياء المحيطة به ، أو قد يرسم السماء حافلة بالطيور . كذلك نلاحظ أن الطفل عندما يرسم قاطرة مثلا يعنى بجعل صفارتها أكبر كثيراً مما هى عليه فى الحقيقة ، أو يرسم ثلاثاً أو أربع صفارات كبيرة للقاطرة الواحدة . وقد يهمل الطفل فى رسم الدراجة مقعدها ، أو مسند القدمين ، أو السلسلة ، ولكنه يندر أن ينسى الأجراس ، بل إنه ليفصل أجزاءها تفصيلا دقيقاً ، ويسرف فى مضاعفة حجمها .

فالمقياس فى رسم الطفل هو إذن مقياس الاهتمام ، لا مقياس الأبعاد الطولية .

وتلك هى نفس الاتجاهات المميزة لكثير من رسوم الرجل البدائى . فنرى مثلا فى التماثيل المعروفة باسم « تماثيل جريمالدى » أو فى « تمثال ويلندورف » وهى التى نقل (باركن) صورها فى كتابه : « فن ما قبل التاريخ » غلواً فى تكبير حجم الثديين . كما نلاحظ مضاعفة عددها فى تمثال « ديانا الأفسوسية » إذ نرى صفوفاً من الأثدية تغطى معظم جذع التمثال . ونجد فى إحدى اللوحات المنقوشة فى مجموعة (پت — ريفرز) بأكسفورد أن الشفتين تشبهان قوسين ضخمين ، وأن اهتمام الفنان بهما كان سبباً فى تكرارهما بحيث أننا نرى مكان الفم صفاً أفقياً من تلك الأقواس .

ويبدو أن الأطفال عند بدء استعمالهم للقلم الرصاص ، أو الفرشاة ، لا يهدفون إلى تصوير ما يرسمونه تصويراً واقعياً ، أو أنهم لا يقصدون التصوير على الإطلاق . فالطفل يمسك القلم بيده ويحرك سنه على الورق حركات قوية ، وعندئذ يرى أمامه شيئاً قد خلقه بنفسه ، فيسر لذلك ، ويكرره ، ثم يعيد تكراره حتى ينتابه الكلل ، أو ينشغل عنه بشىء آخر ، أو تنفد ذخيرته من الورق . فكأن رسمه فى هذه المرحلة ليس أكثر من لعب إنشائى .

ومن العسير علينا أن نحدد مرحلة النمو التى يبدأ الطفل فيها يكتشف بنفسه أن ما يرسمه قريب الشبه بما فى متناول خبرته من أشياء . وترجع صعوبة هذا التحديد إلى أن قليلا من الأطفال هم الذين تتاح لهم الفرصة لأن يقوموا بهذا الاكتشاف بأنفسهم . فالطفل إذ يُسَر لنتاج جهوده يعرض ما خطه بقلمه من خطوط طائشة لا غرض منها على الكبار حرصاً على أن يشاركوه ابتهاجه ، أو رغبة فى أن يحظى بإعجابهم . ولكنهم يسألونه : « ما هذا الرسم ؟ أهو أب أو أم ؟ » ، فيجيب الطفل : « إنه أب » وذلك لميله إلى مسايرة ما أدرك أنهم قد توقعوه . وهكذا يأخذ فى إطلاق أسماء على محاولاته الأولى فى الرسم ، وكثيراً ما يقول أبواه عنه بعد ذلك : « إنه يرسم دائماً أشياء مختلفة . فهو يرسم أباه وأمه

وسائر الأطفال ، ولـكنه يجعلهم جميعاً متشابهين » .

وقد حدث أن طفلة صغيرة فى الثالثة من عمرها ، كانت قد مرت بمثل هذه التجربة ، أعطيت قلماً وقطعة من الورق وقيل لها : « أريد أن ترسمى لى بعض الأشياء . سأقول لك ما هى . إرسمى أباك » فرسمت البنت على الفور ما نراه فى (شكل ٢) . وعندئذ أخذ منها هذا الرسم حتى لا تراه ، وأعطيت قطعة أخرى من الورق لترسم عليها أمها ، فرسمت شكلا آخر يشبه الأول تماما . وعندما طلب إليها بعد ذلك أن ترسم بعض الأشياء المألوفة كانت تكرر

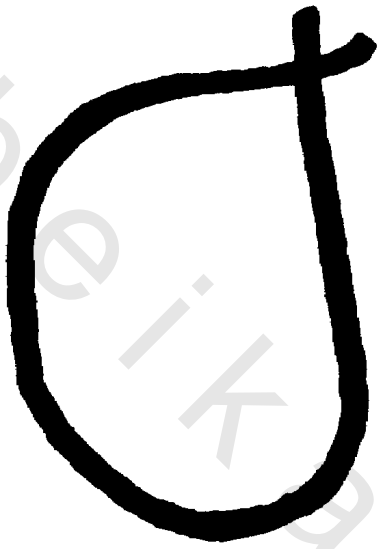

(شكل ٢)

نفس الشكل دائماً . وهنا قيل لها : « ارسمى نفسك فى حوض الاستحمام » ، فرسمت الشكل نفسه أيضاً .

— ولـكنك لا تظهرين فى الرسم أنت والحوض . أهذا هو الحوض ؟

— أجل إنه الحوض .

— إذن فارسمى نفسك داخله .

فكررت الفتاة رسم الشكل السابق مصغراً بجانب الحوض . وكان ذلك مثيراً للاهتمام بطبيعة الحال لأن البنت قد تجاهلت فى رسمها جميع العلاقات المكانية والتمثيل الصحيح معاً .

وقد نصادف فى إحدى مجلدات « سبنسروجيلن »[1] التى تبحث فى حياة سكان استراليا الأصليين رسماً وطنياً لثلاث برقوقات قد رسمت على صورة أشكال بيضية بعضها داخل بعض . فالطفلة التى كان ينبغى أن تكون داخل الحوض

(1) Spencer and Gillen.

قد رسمت نفسها بجانبه ، وكذلك البرقوقات التى كان يجب أن تكون متجاورة رسمت داخل بعضها . فكأن الطفل والبدائى يتساويان إذن من حيث مرحلة النمو ، والقدرة على تمثيل العلاقات المكانية .

ليست هذه المسألة فى الحقيقة بسيطة كما قد تبدو . وليس من المستطاع أن نبت فيها برأى قاطع إلا بعد البحث الطويل . فمن مألوف عادات البدائيين مثلا عمل رسوم تتصل بشعائرهم وحفلاتهم ، سواء على الأرض أو على الأشياء المقدسة (شورنجا) . فنراهم يمثلون الرجال والنساء والآبار والحيوان والشجر جميعاً بدوائر متحدة المركز ومتشابهة تماماً ، بحيث لا يكون فى وسع سواهم أن يدرك لها معنى . ومع ذلك فإن أولئك البدائيين أنفسهم كانوا يستطيعون عمل رسوم أخرى بدائية كذلك ، ولكنها واقعية . وتسير الرسوم الخاصة بحفلاتهم وفق نمط واحد توارثوه جيلا بعد جيل عن أجدادهم منذ « الشيرنجا » (أى فجر الخليقة). ويقوم الكهول بتفسير معنى تلك الرسوم للناشئين الذين يكون عليهم تأدية هذا العمل بدورهم عند ما تتقدم بهم السن ويصبحون من كبار رجال القبيلة . ولعل توارث هذه الرسوم قد حفظ لنا خصائص تلك المرحلة التى كان الناس يقومون فيها برسم صور مختلفة دون أن يدركوا أنها قد تمثل أشياء معينة ، وتلك هى المرحلة التى وصلت إليها الطفلة التى تكلمنا عنها .

كذلك اعتاد ولد فى سن الثالثة أن يطلب من أبيه وأصدقائه أن يرسموا له قطارات . وفى ذات يوم أراد أحدهم أن يجرى عليه تجربة ، فرسم له عدداً من أجزاء القطار منفصلا بعضها عن بعض ، كما رسم بدلا من باقى الأجزاء أشكالا هندسية مختلفة ليس لها بها أى ارتباط ، فمثل لبعض العجلات بمثلثات وللبعض الآخر بمربعات . فكان الرسم فى مجموعه شبيهاً (بشكل ٣) .

إن مثل هذه الأشكال قد تظهر من وقت لآخر فى بعض المجلات الدورية التى تظهر للتعبير عن نزعات إحدى « المدارس » الفنية الجديدة ، ثم لا تلبث أن تختفى

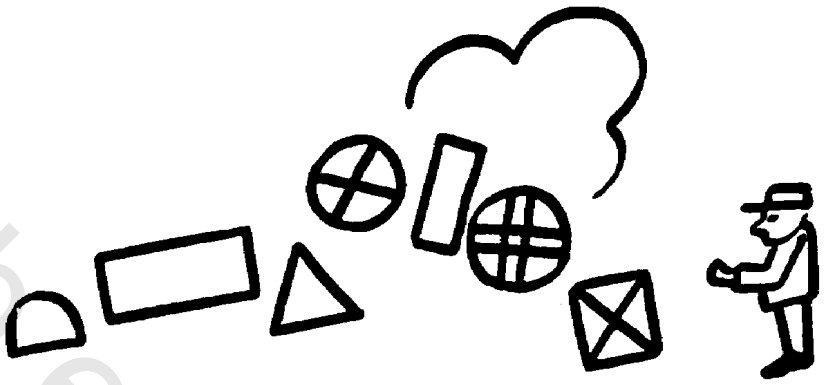

(شكل ٣)

وقد تلقى هذه الرسوم استحساناً وقبولا من بعض الناس . بيد أن الولد لم يرض عنها قط ، بل إنه انفجر باكيا بمجرد انتهاء الرسم ، وصاح قائلا : « إن أبى لا يرسم لى القطار بهذه الطريقة » . ولم يذكر أن الرسم لا يشبه القطار . فكأنه قد ألف أسلوباً معينا لرسم القطار ، فأصبح يرفض كل ما عداه . أى أن رسوم أبيه التى لم تكن هى الأخرى تشبه القطارات قد أصبحت بمثابة العقيدة الراسخة .

وقد يكون من المفيد أن نبحث عما إذا كان الطفل يحتمل أن يرضى عن تلك الرسوم ، ويرفض غيرها من الرسوم الواقعية ، إذا كان لم ير للقطارات صورة غير تلك الصور الشبيهة بالشكل (٣) . قد يستطيع الرسام الماهر أن يرسم الأشياء الطبيعية بدقة تقرب من دقة آلة التصوير ، بحيث تخدع الناظر إليها وتجعله يعتقد أنه أمام شىء حقيقى وليس مجرد صورة له . ويقال إن (أبيليس)[١] كان يخدع الطيور بصور الكروم التى رسمها ، ولكن (باراسيوس)[٢] تمكن من أن يخدع (أبيليس) نفسه بصورة قناع ظن الفنان العظيم أنه حقيقى . ويستطيع كل من زار (متحف ڤيرتز)[٣] فى بروكسل أن يذكر مدى ما حفلت به كثير من الصور من خداع النظر .

---

(١) Apelles فنان يونانى شهير . ذاع صيته فى عصر الاسكندر الأكبر الذى كان يعتز كثيراً بصداقته . (المترجم) .

(٢) Parrhasius رسام يونانى معروف .

(٣) The Wiertz Museum متحف خاص بآثار (ڤيرتز) الفنية .

لم يكن الولد الذى نتكلم عنه يريد صوراً للقطارات قريبة الشبه بالحقيقة بدرجة كبيرة . فقد كان يقف بجانب والده وهو يرسم ، ويقول له : « أكثر من الدخان . أريد دخاناً كثيراً يتصاعد من المدخنة . » كذلك كان يطلب أن يكون حجم الصفارة مفرطاً فى الكبر ، وأن يكون القطار طويلا جداً . فهو لم يكن يبغى إذن صورة محسّة للقطار نفسه ، بل كان ينشد تصوير رغباته التى تدور حول القطار . فلا يدهشنا إذن أن تكون أعمال الفنانين البدائيين فى بعض الأحيان مسرفة فى الغرابة لما فيها من خصائص معينة تضفى عليها الحياة ، وإن لم تكن شبيهة بالأشياء الحية بالمعنى التصويرى . فالرسم فى الواقع لا يمثل شيئاً معيناً قدر ما يمثل آمالا ورغبات ندركها لأنها آمالنا ورغباتنا . وهذا هو ما نراه فى صورة غابة من رسم (روسو دوانييه)[1] ، ولكننا لا نلحظه فى صورة أخرى قد تفوقها فى درجة الواقعية .

وثمة بنت صغيرة أخرى لم تتجاوز الرابعة من عمرها تقريباً ، ولها ولع برسم صغار البنات . فقد كانت هى الأخرى ترسم القطارات . وكانت رسومها تمتاز بقدر كبير من الواقعية لا يتناسب مع سنها . ولعل ذلك يرجع إلى أن أمها كانت تجيد الرسم ، فكانت تصحح أخطاءها ، وترسم لها أحياناً . وقد رسمت البنت ذات مرة قطاراً له ثلاث صفارات يتصاعد البخار منها جميعاً دليلا على أنها صالحة للعمل . وألحقت بالقاطرة عدداً من العربات واضحة النوافذ . وقد ظهر خلال إحدى تلك النوافذ شخص جالس — وكان امرأة . وعندما سئلت البنت عن تلك المسافرة أجابت بأنها جدتها التى تقيم مع الأسرة . فالجدة إذن على سفر . ويعلم كل من كان على صلة وثيقة بالأسرة أن رحيل الجدة كان من الرغبات التى لم ينلها النكبت التام ، وإن كان يعتبر من الأمور التي لا يليق التحدث عنها .

---

(١) Rousseau Douanier رسام فرنسى نبغ فى الرسم دون أن يتعلمه ، وتمتاز لوحاته بالبساطة والبدائية التى تجعلها شبيهة برسوم الأطفال (المترجم) .

كذلك كانت رسوم البنات الصغيرات واقعية إلى درجة ما . وكانت البنت توجه عناية خاصة إلى الوجه والشعر ، كما كانت النسب فى رسم الجذع والأطراف معقولة . ولكن رسم الأيدى كان غير مرضى . وتذكر البنت فى صراحة أن معظم رسومها إنما تمثلها هى ، وإن كانت تظهر أحياناً فى رفقة طفلة أخرى أصغر منها تشبهها تماماً ، ويقصد بها أن تكون أختها . وفى أحد الأيام تناول زائر كراسة الرسم منها ورسم فيها بسرعة رأس طفل وكتفيه . نظرت البنت إلى الرسم وقالت : « لا أحب هذه البنت الصغيرة . سأمحوها » ، ثم أتبعت قولها بالفعل ، ومحت كل أثر لرسم الزائر . ولسنا نعلم على وجه التحقيق ما إذا كانت قد محت الرسم لأنها أدركت أنه أكثر إتقاناً من رسمها ، أو لأن الطفلة كانت أجمل من الصورة التى رسمتها لنفسها . ومهما يكن من أمر فإن من الجلى أنها أحست بالغيرة ، فكانت استجابتها المباشرة إزالة مصدرها . ولعل مما هو جدير بالاهتمام أن نلاحظ أنها لم تقل : « إنى لا أحب هذا الرسم » ، بل قالت : « لا أحب هذه البنت الصغيرة . »

ورسم ولد فى سن الثالثة أيضاً مجموعة من الصور بقصد إهدائها إلى رجل اعتاد أن يتحفه ببعض الهدايا البسيطة من حين لآخر ، وأن يظهر له اهتمامه به بوسائل أخرى مختلفة . وقد كتب الولد اسمه أسفل الورقة بحروف كبيرة . وكانت الصورة تمثل برج حمام عادى ، وزهرة النرجس ، وزهرة الثلج ، وهذه لم تكن فى الحقيقة من نسخ مكررة لرسوم نقلها من السبورة فى المدرسة .

وقد ظهر فى الرسوم عدد من العلامات التى فسرها الولد على أنها طيور . ودل البحث على أنه كان قد أبصر شقيقه يرسم الطيور بهذه الطريقة ، وقد أخبره هذا الشقيق بأن مدرسه يرسمها كذلك . وعند ما سئل الولد أن يرسم طائراً واحداً رسمه كما فى (شكل ٤) .

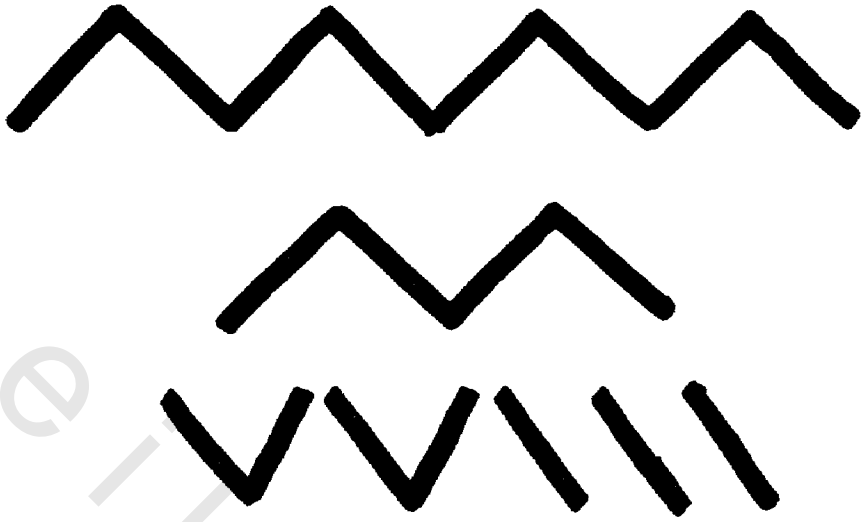

(شـكل ٤)

فمجموعة الرسوم التى كان يظن أنها لامعنى لها ، أو أنها مجرد علامات زخرفية ، بدأت تتخذ معنى معيناً ، أو عدة معان . إذ أصبحت تدل على أن الطفل لم يكن يستطيع أن يرسم الطيور بسهولة فحسب ، بل كان قادراً أيضاً على منافسة شقيقه فى ذلك . وهناك دلائل أخرى تشير إلى أن معين اهتمامه كان آخذاً فى النضوب باستمراره فى الرسم . فالعناية ظاهرة فى الصـف الأعلى للأقواس ، وفى رسم العلامتين المقلوبتين تحته . ثم نرى بعد ذلك إهمالا فى رسم حرفى الـ ٧ . ويعقب ذلك ثلاثة خطوط مفردة .

ومما لا شـك فيه أن الطفل كان فخوراً بعمله ، فقد حظى بكثير من الثناء

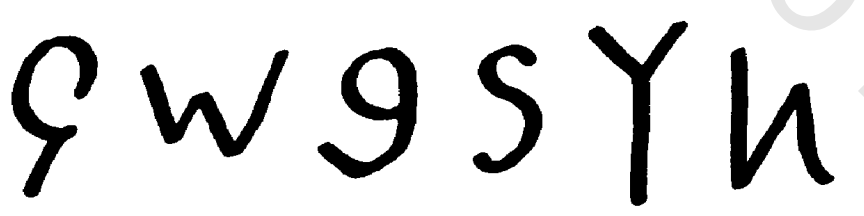

(شـكل ٥)

عليه فى المدرسة . كذلك استطاع نقل الرسـوم التى أبصر شقيقه الذى يكبره بعامين يرسمها فى البيت . فأطرت أمه عمله ، وذكرت له أنه يفوق أخاه فى إتقان

الرسم . فمن المحتمل إذن أنه إنما يرسم لا لشعوره بضرورة التعبير عن شيء داخلي يدفعه إلى ذلك ، ولكن ابتغاء الحصول على ثناء الغير . وعند ما أهدى رسومه إلى صديقه الكبير طلب إليه أن يعلقها على الحائط حيث كان يعلق رسومه الخاصة . فهو إذ أحس بتفوقه على زملائه وعلى أخيه أصبح الآن يريد على الأقل أن يقف على قدم المساواة مع شخص كبير . فأخذ يرسم لا من أجل الرسم ذاته ، بل في سبيل ما قد يتيحه له رسمه من نتائج ، أي أن الرسم لم يكن غاية في ذاته وإنما وسيلة إلى غايات أخرى . وهذا يفسر لنا انحطاط المستوى الفني في رسمه كلما استمر في تكرار علامة الطائر ، وذلك لأنه لم يكن يحس متعة في العمل نفسه ، وإنما كان يشعر بحرص على الثواب المرموق . وبذلك فقد التلقائية التي تعتبر أهم العناصر في فن الطفل .

ولسنا نريد أن يؤخذ قولنا هذا على أنه يعني أن الولد لم يفد شيئاً من عمله في المدرسة ، فإنه قد تعلم بلا شك قدراً من ضبط النفس ، كما اكتسب قسطاً من المهارة ، كذلك تعلم أن ينقل الرسوم والأشكال البسيطة بدرجة لا بأس بها من الدقة والإتقان ، ولكنه قد دفع لذلك ثمناً غالياً ، إذ ضحى في سبيل ذلك بما يصحب التعبير التلقائي من إشباع ، وبما يفضي إليه ذلك الإشباع من نمو نفسي . وتتأيد هذه النتيجة إذا لاحظنا أنه كتب اسمه بحروف كبيرة في أسفل الورقة ، (شكل ٥) .

وقد اكتشف (السير سيريل بيرت) أن رسوم الأطفال في سن السادسة والسابعة تمثل في ٨٠٪ من الحالات أشخاصاً آدميين . وكان لهذا الكشف فائدة كبرى ، عند مقارنته بآراء (باركن) عن رسوم البدائيين . فإن الرسوم التي وجدت على جدران الكهوف في أسبانيا وجنوب فرنسا ، وكذلك النقوش المحفورة على الأسلحة التي تم العثور عليها في جهات أخرى ، قليلا ما كانت تمثل مخلوقات بشرية . وفي إحدى الرسوم التي جمعت بين الحيوان والإنسان ، كان

الحذق والمهارة متجليين فى رسم الحيوان ، بينما لم يتجاوز رسم الوجه الآدمى طور عبث الصغار . وقد قال باركن عن هذه الرسوم أنها « توضح الفرق بين قدرة فنانى العصر الحجرى على رسم الحيوان ، وقدرتهم على رسم الإنسان » . غير أن محور بحثنا هذا أشد ارتباطا بالاهتمام بانتاج الصور ، منه بمجرد القدرة على هذا الإنتاج . فالرجال الذين نقشوا تلك الصور كانوا شديدى الاهتمام بالحيوانات الكبيرة المفترسة باعتبارها مورد غذائهم ، فكانت حياتهم متوقفة على معرفتهم بأنواعها وعاداتها . وكان عليهم أن يلموا بطرق خداعها وقتلها . وبذلك اتخذت آمالهم ومخاوفهم من الحيوان محوراً تدور حوله ، فكانوا يقضون أوقات الفراغ التى تتاح لهم بين حملات الصيد فى تدبير الخطط ، وإعداد الأسلحة للحملات المقبلة . أما فى مجتمعنا الحالى فإن الشخص الكبير هو الذى يعتبر فى نظر الطفل أكثر أهمية من أى حيوان آخر من حيث هو مصدر للاشباع . وعلى هذا النحو نرى أن اهتمام البدائى بالحيوان يستثير جميع قدراته الممكنة ، وكذلك اهتمام الطفل بالراشد يدفعه إلى توجيه جميع قدراته إلى تصويره .

فكأن الطفل فى رسومه وأحلام يقظته — مهما بلغت درجة غرابتها وطرافتها — إنما يهتم برغباته وإشباعها ، بحيث أن كل ما ينتجه فى هذه الناحية يعتبر إلى حدما نظاماً من الأشياء حبيباً إلى نفسه . وهو يدرك ذلك هَوْنا مّا فى بعض الأحيان ، فقد طلب أحد المدرسين إلى تلاميذه أن يرسموا أى شىء يريدون . وعندئذ بدأ ولد فى العاشرة من عمره يرسم الصحراء ، فرسم بعض أشجار النخيل ، ونفراً من الناس والحيوان . ثم أخذ يلون الجزء الأمامى من الصورة بلون أحمر فاقع . وقد ذكر فيما بعد أنه لم ير الصحراء من قبل ولكنه كان يعلم أنها تتكون من الرمال . وعندما سئل عما إذا كان قد شاهد رملا أحمر اللون أجاب من فوره : « إنى أعلم أن الرمل ليس بهذا اللون ، ولكنى

أفضل اللون الأحمر على سواه » . فكأنه على ما يبدو يحاول أن يصلح العالم الذى يعرفه .

وفى حالة أخرى مماثلة ، بدا السبب جلياً كذلك ، فإن فتاة تبلغ من العمر الثانية عشرة من عمرها ، وتقيم فى إحدى ضواحى لندن ، اعتادت أن تقضى جانباً كبيراً من وقت فراغها بمنزلها فى رسم السفن . وكان رسمها للسفينة ذاتها عادياً ، ولكن الألوان كانت غير مألوفة إذ كانت تختلف عن ألوان السفن الحقيقية ، فقد كانت تلون هيكل السفينة باللون الأزرق . ولم تكن تتمسك فى ذلك بخطة ثابتة للتلوين ، بل إن كل صورة كانت مختلفة عن الأخرى فى ذلك ، وإن تشابهت جميعاً من حيث الرسم الإجمالى . وقد كانت البنت فى ذلك الوقت فريسة لحالات متكررة من الجثام[1] ، إذ كثيراً ما كان يتراءى لها فى المنام أنها فى حالة غرق . فكانت الفتاة تكره البحر دون مبرر ظاهر . ويبدو أن الاختناق ، أو الغرق ، كان يعنى بالنسبة إليها وقوعها تحت سيطرة شىء ضخم تحس إزاءه بالضعف والخذلان ، ويلعب دوراً بارزاً فى رؤاها ، وأحلام يقظتها ، واتجاهها فى الحياة . وكانت ترى فى بعض أحلام الغرق هذه سفينة عليها شخص لا تعرفه ، ورغم صراخها فى طلب النجدة فإن ذلك الشخص لم يكن يعيرها أى اهتمام . وقد ذكر والد الفتاة عندما لجأ إلى مدرستها يلتمس

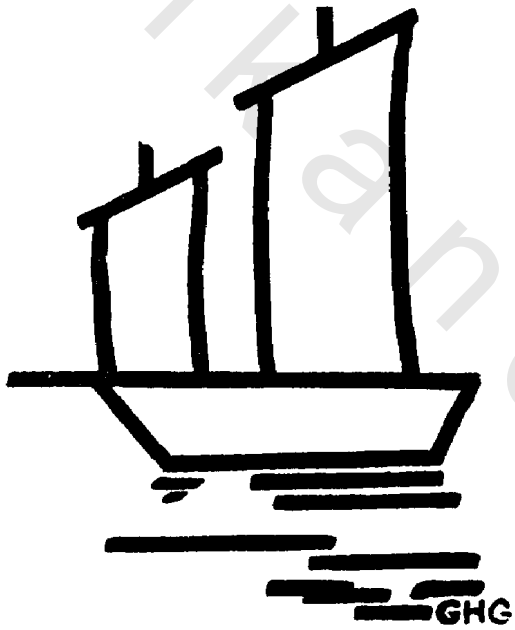

(شكل ٦)

(١) Nightmare وهو الكابوس .

منها المشورة والنصح أن ابنته كانت قد أخذت فى ذلك الوقت تلقى على أمها أسئلة بدت محرجة فى نظرها ، لأن نشأة الأم وثقافتها لم تكونا لتؤهلاها لأن تمد ابنتها بالرأى السديد والمشورة النافعة فى هذه الناحية ، ولذلك فإنها لم ترفض الإجابة عن أسئلتها فحسب ، بل حظرت عليها أيضاً أن تلقيها على مسامعها مرة أخرى . وكان الأب يرى ألا يتولى هو أمر إجابة ابنته عن أسئلتها ، ولذلك طلب إلى زوجه أن تأخذ ذلك على عاتقها فرفضت . وعندما سألته المدرِّسة عن السبب الذى حدا به إلى عدم معالجة الأمر بنفسه أجاب : « وكيف أستطيع ذلك ؟ ماذا تكون نظرتها إلى أمها و إلىّ لو أنى أفضيت إليها ببعض المعلومات الجنسية ؟ » .

كل ذلك يزودنا بدليل يهدينا إلى معنى السفينة العابرة ، والشخص الذى لم يستجب لاستغاثة الفتاة أثناء صراعها مع ذلك الشىء الذى يكاد يكتم أنفاسها . ولو أنا تأملنا فى رسم الفتاة للسفينة لوجدنا أنها تجعلها دائماً جذابة ، بدلا من أن تلونها بالألوان العادية . وهذا يشير إلى أكثر من معنى . فليس من الضرورى أن تكون أسئلتها منبئة عن جهلها ، بل يحتمل جداً أنها تنبىء عن أنها قد علمت شيئاً تريد التأكد من صحته أو زيفه . فكثيراً ما تكون المعلومات الجنسية التى يتناقلها الأحداث فى هذه السن بعضهم عن بعض مثيرة للاهتمام والاشمئزاز معاً . ولذلك يحتمل أن تكون الفتاة قد حاولت فى رسمها أن تصبغ « الحقائق » بلون عاطفى جذاب ، أو أن تتخذ من الألوان وسيلة لجعل أمها أقل تعنتاً ، وأكثر ميلا إلى معونتها ، ولإحلال شىء ممتع سار مكان سفينة الجثام (الكابوس). ويدل التفاوت بين السفينة الحقيقية والسفينة المرسومة على عنف الصراع القائم فى نفس الفتاة .

ويشبه الاتجاه الذى يتخذه الأطفال إزاء رسومهم نظرة البدائى إلى الرموز والصور . فعندما يخبر الطفل أحد الكبار بأنه سيرسمه فإنه يفضى إليه بهذا النبأ على صورة توحى بأنه يعتقد أنه يؤدى له خدمة جليلة برسمه إياه . وتكون لهجته عموماً مشوبة بالعزم والتأكيد . وإذا نظرنا إلى رسمه فإننا نجده فى العادة نوعاً

من « الكاريكاتير » إذ يسرف فى إبراز بعض التقاطيع التى تثير اهتمامه . وهذا أمر سبق أن لاحظناه فى رسوم الأطفال بصفة عامة .

وعندما يكرر الطفل رسم رسمه نفسه بصورة واحدة لاتتغير مبرزاً التقاطيع التى تهمه ، فإنه قد يرمى من وراء ذلك إلى التعبير عن اهتمامه بها بشكل تغلب عليه المغالاة ، كما لو كان يرغب فى زيادة عددها عنده . و يبدو أن هناك اعتقاداً قد لايتسنى له التعبير عنه فى صورة لفظية ، وهو اعتقاده بأنه يستطيع برسمه أن يؤثر فى نفسه وفى نموه ، وأنه قد يتمكن عن طريق هذا الرسم من الحيلولة دون تغير تلك الصفات التى يعجب بها أو زوالها .

وقد أمكن ملاحظة بعض هذه الخصائص فى عدد من رسوم تلاميذ مدارس منطقة محرم بك بمدينة الاسكندرية ، فقد رسم أحد الأولاد شيئاً ضخماً مخيفاً رابضاً على الأرض ، ينبىء مظهره عن البطش والتهديد ، و يشبه حيواناً مفترساً متحفزاً للانقضاض على فريسته . وعندما سئل الولد عنه أجاب : « إنه أمى » . وقد نمى إلى علم المدرس من مصادر أخرى أن أم الولد كانت كثيراً ماتقسو عليه وتضربه . فكان الولد يرهبها و يخشى جانبها . وكثيراً مايرسم الأطفال مايخيفهم من الحيوانات أو الناس ، فيبالغون فى إبراز الخصائص المخيفة فيها . ومن ذلك أن ولداً آخر فى نفس الفصل رسم حيوانين مفترسين كبيرين يجوبان غابة وقف على صخرة مرتفعة فيها بطل صغير ممسكا ببندقيته فى يده ، متأهباً لإطلاق النار عليهما وقد ذكر الولد أن الوحشين هما أبوه وأمه ، أما الصائد الصغير فهو نفسه .

و يتطلب التأويل الكامل لهذه الرسوم بحثاً عميقاً ، و إلماماً تاماً بحالات راسميها ، ودراسة مستفيضة لعدد كبير منها . ونستطيع أن نقول مبدئياً أن تلك الرسوم تصدر عن أكثر من دافع واحد . فرسم الأبوين بذلك الشكل العدوانى إنما هو عقاب لهما على قسوتهما . و يوحى الرسم الثانى بأن الولد يؤمن بضرورة جعل العقاب صارما . والشكل المخيف فى كلتا الحالتين شىء صنعه الطفل بنفسه ، فلا

ينبغى عليه إذن أن يخشاه ، فصانع الأصنام لايحتمل أن يحس بتلك الرهبة التى تنتاب أولئك الذين يسجدون لتماثيله ! ولذلك فإن من الممكن أن يستطيع الطفل التغلب على مخاوفه عن طريق فنه ، لأنه يسيطر عليها فى نفس الوقت الذى يسيطر فيه على الأشياء التى كانت سبباً فيها . كذلك يستطيع برسمه إياها أن يعبر عن بغضه لها بشكل مباشر ، وعن تفوقه عليها بشكل غير مباشر . يضاف إلى ذلك أنه بتكرار رسم الشىء الذى يخافه يتمكن من تدريب نفسه على احتماله وفهمه ، وأن ينمى نحوه استجابات ملائمة ، مثله فى ذلك مثل الجنود الذين يألفون بمرور الوقت مواجهة المواقف التى أفزعتهم وشلت حركتهم عندما صادفتهم لأول مرة .

ومن الجلى أن الطفل يخلط بين الشىء الحقيقى وصورته . وهذا أمر نلاحظه أيضاً فى الشخص البدائى ، وقد يظل ملازماً للكثيرين منا بدرجات متفاوتة . فكثير من الناس ما زالوا يعتقدون أن سقوط صورة شخص على الأرض يعقبه موت صاحبها . وقد يتخذ هذا الاعتقاد صورة الإيمان بأن سقوط أية صورة معلقة نذير بقرب موت رب الدار . ومن الخرافات الشائعة فى شتى أنحاء المعمورة ذلك الاعتقاد بوجود نوع من القوى السحرية فى تماثيل الشمع التى تصنع على هيئة من يراد القضاء عليهم أو إنزال الأذى بهم . وقد نسج (روزيتى) قصة « الأخت هيلين » حول هذه الفكرة . وقد يوحى اعتياد الناس رد الصور إلى أصحابها عند فسخ الخطوبة بأنهم يعتقدون أن إهداء الصورة يقصد به أصلا أن صاحبها قد وهب نفسه لرفيقه . وقد كان سكان حوض البحر الأبيض المتوسط قديماً يمقتون فكرة رسم الصور الشخصية ، ولم يختف هذا البغض الغريب إلا تدريجاً و ببطء شديد فيما بعد . وقد حدث منذ عدة سنوات أن فتاة يونانية مثقفة تقيم فى مصر رفضت التقاط صورة لها بحجة أنها تخشى أن تفقد تلك الصورة فى يوم من الأيام ، فتقع فى يد شخص يستطيع عندئذ أن يتخذ منها وسيلة للتسلط عليها . وهناك ديانات تحرم التصوير ، بينما تسرف ديانات

أخرى فى تشجيع استخدامه . وكلا النوعين يبرر مذهبه فى ذلك بأسباب أخرى لا تمت بصلة إلى مسألة الخلط بين الحقيقة والصورة . وربما كان نجاح بعض القصص من نوع قصة « الصورة المستديرة » (لإدجار ألان بو) ، وقصة « صورة دوريان جراى » (لأوسكار وايلد) ، راجعاً إلى أنها تثير فى القارىء معتقدات راسخة فى أعماق نفسه ، مما قد لا يؤمن به إيماناً شعورياً صريحاً .

وقد يبدو لأول وهلة أن فن الكبار يختلف تمام الاختلاف عن رسوم الأطفال ، فإن معظم الناس يهتمون بالتطابق بين الصورة والأصل بقدر المستطاع . فحكمهم على نجاح رسم شجرة مثلا يتوقف على مقدار ما بين الرسم والشجرة الحقيقية من تشابه . ولكن أليس مثلهم فى هذا مثل ذلك الولد الذى كان يريد دائماً أن تكون القطارات المرسومة شبيهة إلى أقصى حد بصورة القطار التى رسمها له أبوه ؟ أى أنهم لا يهتمون فى الواقع بأن تكون الصور شبيهة بالأشياء الحقيقية بقدر اهتمامهم بأن تجىء شبيهة بما اعتادوه وألفوا رؤيته ولعل آلة التصوير الشمسى قد استطاعت أن تظهر لنا العالم فى صورة تختلف عن تلك التى كان يراه عليها أجدادنا ممن كانت تنقصهم هذه الأداة الآلية للتصوير . ولذلك فإن الفنان الذى يغفل المقاييس المألوفة يظل معرضاً نفسه للسخرية اللاذعة والنقد المرير حتى يستطيع أن يعلم جيله كيف ينظر إلى الأشياء بمنظار جديد .

وليس فى وسع آلة التصوير أن تختار من بين ما تسقط عليه عدستها أشياء ذات مدلول خاص ، أو أن تبالغ فى إبراز نواح معينة تهمها . ولكن الفنان يستطيع ذلك ، فهو قادر على الاختيار والإسراف والترتيب ، ولكنه لا يكون مدفوعاً إلى ذلك بعامل التلقائية الساذجة التى يمتاز بها الطفل ، بل بدافع من الرغبة فى مراعاة القواعد المألوفة . فنراه يقرب الأشياء البعيدة لتتضح وتبرز ، أو يزيد فى إضاءة أجزاء معينة حتى تظهر فى جلاء . كذلك يستطيع انتقاء موضوعات لوحاته ، وهو فى كل ذلك يستخدم القواعد المتبعة ويستغل مهاراته المكتسبة ،

كى يصل إلى ما يحاول الطفل الوصول إليه على طريقته الخاصة .

ويبدو أن ميدان الاختيار محدود ، فإن الفنان المولع برسم صورة جدول رقراق متدفق ، ينساب بين المروج الخضراء التى تحتضن على البعد كنيسة تعلوها القباب البيضاء ، إنما يسترشد فى عمله الفنى بما للجدول والمروج والكنيسة من مدلولات خاصة فى نظره . فإن مرأى تلك الأشياء يثير فى نفسه شتى الأحاسيس والمشاعر . وقد لا يستطيع الفنان أن يقدم لنا تفسيراً مقنعاً للسبب الذى حدا به إلى نقل هذا الشعور إلى غيره ، ولكنه يستطيع أن يتخذ من فنه وسيلة إلى ذلك . فالفنان إذ يختار موضوع لوحاته ، ويسرف فى إبراز أجزاء معينة بتغيير أوضاع عناصرها ، أو بالاستعانة بالأضواء والظلال والألوان ، إنما يكون مدفوعاً إلى ذلك بدوافع داخلية عميقة ، وبمجموعة من الرغبات والاهتمامات يعبر عنها بالرسم . وهذا يعلل لنا اهتمام بعض الفنانين برسم الكنائس بوجه خاص ، واهتمام البعض الآخر منهم برسم الخراف أو الخيل أو ما شابه ذلك . غير أن الأمر فى جميع هذه الحالات واحد لا يتغير ، فإن تلك الأشياء على اختلافها تكون ذات أهمية خاصة فى نظر المصور . وقد نصادف فى بعض الأحيان تلميحاً إلى ذلك فى عنوان الصورة ، ومن ذلك مثلا إطلاق اسم « سلطان الغاب » على رسم وعل ، أو « سيدة الأدغال » على صورة إحدى أشجار البتولا الفضية .

وكثيراً ما تعيننا استجابات المتفرجين على ربط الفن بأحلام اليقظة . فنحن نجد مثلا أن الاقبال متزايد على الصور التى تمثل قصة معينة . والسبب فى ذلك أن مثل هذه الصور تساعد الناظر إليها على الاندماج فى شخصيات الأفراد الذين يظهرون فيها ، مثل اندماجهم فى شخصيات القصص . غير أن هناك كثيراً من الناس يلذ لهم أن يجمعوا أنواعاً أخرى من الصور مثل المناظر الطبيعية البرية والبحرية على وجه الخصوص . وكثيراً ما نسمعهم يعلقون عليها بقولهم : « إنى أتخيل نفسى مرتقياً هذا الجبل ! » أو غير ذلك من العبارات التى لا تخرج عن هذا المعنى . فكأن الصور فى مثل هذه الحالات تهيىء المسرح لحلم اليقظة .

وقد ذكر (لورنس بنيون) فى كتابه « هرب التنين »[1] أن التعليمات التى كان يتلقاها الرسام الصينى المبتدىء تتلخص فى ألا يحاول النقل عن الطبيعة مباشرة ، وأن ينفق وقته فى تأمل المناظر التى تهز أوتار نفسه ، فيكدس صورها فى مخيلته ، ثم يحاول بعد ذلك أن يستدعيها على الورق ، وكان يشجع على رسمها من زوايا تختلف عن الزوايا التى بدت له منها فى الحقيقة . ولذلك كان من العسير أن يأتى الرسم مطابقاً لما رآه الفنان بعينيه ، بل إنه يصبح تركيباً جديداً لصور ذات مدلول خاص ، وهو بهذا يكون شبيها بحلم اليقظة . ومن ذلك أيضاً أن (رسكن) ينصح الفنان الناشىء فى كتابه « قوانين فيسولى »[2] بأن الأحلام لا الحقائق ، هى الجدير بتأمله .

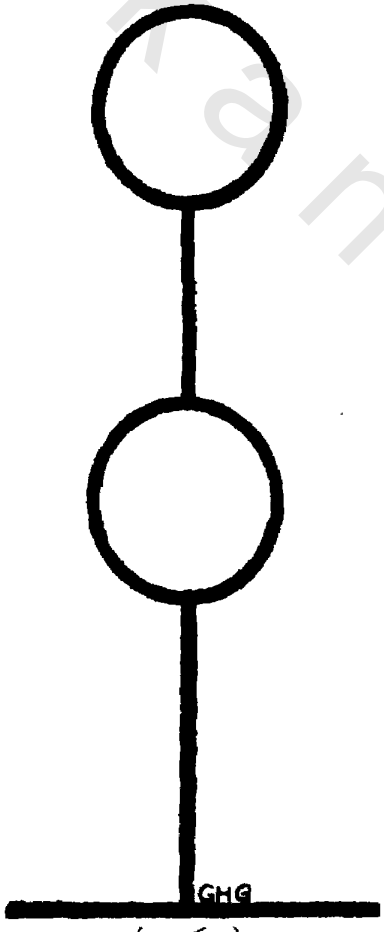

(شكل ٧)

ومما هو جدير بالعناية أن الطفل عند ما يهتم بعنصر معين من عناصر أحد الموضوعات فإنه يتجاهل كل ما عداه . وقد صادفتنا مرحلة شبيهة بهذه فى رسم المنارة التى لم ير الولد فيها أكثر من ضوء ساطع قائم على قاعدة . وثمة ولد آخر رسم الشكل المنقول هنا ، وفسره بأنه الشمس تلقى بضوئها على شجرة ، مما جعل الشجرة تنمو وتينع . فالشجرة دائرة خضراء قائمة على خط رأسى بنى اللون . أما الشمس فقرص أصغر يصله بالشجرة خط واحد أصغر ولما لم يكن الطفل مهتما بأشعة الشمس التى تسقط على غير الشجرة من أشياء فإنه أغفل رسمها . فكأنه برسمه هذه الشجرة البسيطة

(1) Laurence Binyon : " The Flight of the Dragon. "
(2) Ruskin : " The Laws of Fiesoli ".

يريد أن يؤكد أن الأشياء تكبر عن طريق أشياء أخرى خارجة عنها . ويحتمل أن يكون ذلك كله مرتبطاً برغبة الطفل فى المساعدة كى يصبح كبيراً .

وليس من السهل أن نرى فى مثل هذه الصورة أكثر من مجرد شكل هندسى إلا بعد الخبرة الطويلة بمثل هذه الأساليب الغريبة فى الرسم . والحقيقة أن الولد لا يختلف كثيراً فى هذه الناحية عن البدائيين السذج فى عصور التاريخ السحيقة ، فإن أولئك أيضاً كانوا يحاولون فى رسومهم أن يبرزوا ما يحظى باهتمامهم عن طريق إغفال كثير من التفاصيل غير ذات الأهمية الكبيرة فى نظرهم . وربما كان ذلك رغبة منهم فى اقتصاد الوقت والجهد ، أو بغية توفير المواد الأولية . وقد أوضح (هادون) من علماء الإنسانيات ، فى كتاب « الفن البدائى »[1] أن رسوم البدائيين التى تشبه فى ظاهرها الأشكال الهندسية كانت تصور الإنسان والحيوان أكثر مما تصور النبات . كذلك نقل (السير جون كولير) فى كتاب « التمهيد لدراسة الفن »[2] صورة لوحة مجموعة « بت — ريفرز » فى متحف جامعة أكسفورد يظهر فيها كيفية التبسيط التدريجى فى رسم الوجه الإنسانى على حافة مجداف ، إذ نلاحظ اختفاء التقاطيع واحدة تلو الأخرى ، حتى لا يبقى فى النهاية سوى العينين .

وقد يدعو ذلك إلى التساؤل عن السبب فى شدة الاهتمام بالعيون بهذه الصورة . ولعل السبب فى هذه الحالة التى أمامنا أن المجداف جزء من الزورق الذى لا يستطيع أن يتجنب مواطن الخطر إلا باليقظة والانتباه . وربما كان ذلك هو نفس السبب فى نحت صور الطيور على مقدم الزوارق ، والإسراف فى إبراز العيون بشكل يؤدى فى النهاية إلى جعل رأس الطائر مجرد منقار وزوج من الأعين الكبيرة المحملقة . وكثيراً ما ينقش الملاحون فى مصر ومالطة عيوناً كبيرة على الجزء الأمامى من مراكبهم بقصد حمايتها ، إذ يسود بينهم الاعتقاد

(1) Haddon : " Primitive Art ".
(2) Rir John Collier : " Primer of Art ".

بأن العيون المنقوشة تؤدى وظيفة العيون الحقيقية الحيـة فتستطيع أن تتبين الأخطار التى قد تتعرض لها السفائن فتتجنبها .

و يندر أن يغفل الأطفال رسم العيون دون غيرها من معالم الوجه البشرى . وغالباً ما يجعلونها أكبر حجما مما ينبغى . كذلك نراهم يعنون بإظهار زوج من الأعين فى الرسم الجانبى للوجه بدلا من عين واحدة . وتظهر هذه النزعة إلى المغالاة فى حجم العيون فى نقوش قبائل (الموارى) التى ترى صـورة لإحداها فى (شكل ٨) فالرأس لا تزيد على مجرد تجويف تظهر فيه العينان على شكل مجموعتين من الدوائر متحدة المركز ، وهى دوائر كبيرة لدرجة أنها تكاد تغطى نصف الوجـه . وتظهر العيون كذلك بشكل واضح فى أقنعة الزنوج التى يستخدمونها فى أغراض السحر وحفلات الرقص غير أن الإسراف فى الرسم قد ينصب على أعضاء أخرى من الجسم . فـكثيراً ما نرى فى نقوش قبائل (الموارى) أن نهود النساء ترسم على شكل دوائر كثيرة تتخذ من حلمة الثدى مركزاً لها ، وقد نرى مجموعة أخرى من الدوائر مركزها سرة البطن . ونلاحظ مثل هذه المبالغة فى رسم العيون على الأوانى الخزفية فى بيرو .

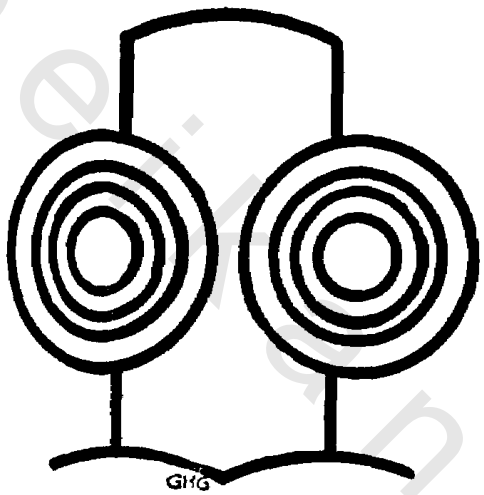

(شكل ٨)

وقد يرجع جانب من اهتمام الأطفال الإنجليز بالعيون إلى أنهم يدركون أن عيون أبويهم هى التى تكتشف أخطاءهم ، فهى بذلك مصدر ما ينالهم من تأنيب أو عقاب . وقد حدث أن سيدة راشدة عللت فزعها من العناكب بأن العناكب تستطيع الرؤية فى الظلام ، وهـذا شبيه بتعليل الأطفال لمثل تلك المخاوف .

وقد حاولت السيدة ربط هذا الخوف بقصة سمعتها فى الثالثة من عمرها أثناء إحدى الدروس الدينية التى كانت تتلقاها حينئذ . وملخص القصة أن رجلا سجن فى زنزانة ضيقة مظلمة رسمت على سقفها بالألوان المضيئة عين كبيرة ، فكان الرجل يشعر دائماً بأن جميع حركاته مراقبة . وقد قيل للطفلة وقتئذ أن تلك العين تشبه عين الله التى تبصر كل الحركات والسكنات آناء الليل وأطراف النهار ، فولد ذلك عندها خوفاً من الحيوانات عموماً ، ومن القطط والعناكب بوجه خاص . ومثل هذا الخوف يعبر بطبيعة الحال عن الرغبة فى إتيان أمور يود المرء لو أنها خفيت على عين الإله . ومن ذلك أيضاً أن ولداً صغيراً توسل إلى أخيه . الذى كان يلعب فى الشارع فى أحد أيام الآحاد . أن يدخل الدار خوفاً عليه من أن يبصر به المسيح ويعاقبه على اللعب فى الطريق العام . كذلك لوحظ أثناء إحدى التجارب التى أجريت على عدد من الأطفال بقصد معرفة اتجاههم إزاء الأجانب أن الكثيرين منهم عبروا فيما كتبوه عن كراهيتهم للصينيين بسبب عيونهم ، وقد اتضح من التفاصيل المختلفة التى وردت فى كتابتهم أنهم كانو يشعرون بأن عيون الصينيين مخيفة ، فهى دائماً نصف مقفلة ، ولكنها شديدة اليقظة ، كما لو كانت تحاول أن تخترق بنظراتها حجب أسرار الغير ، دون أن تنم عما يعتمل فى أعماق صدور أصحابها . فكانت تبدو لهم دائماً معادية . ولعلها كانت تذكرهم بتلك النظرات القاسية التى كانت تسدد إليهم عندما يرتاب أحد فى صدق أقوالهم .

وتعتبر مرحلة الصبا الآنانية ومرحلة المراهقة ذات الخيال العاطفى من أشد مراحل النمو غنى بالإنتاج الفنى . ولعل ذلك يرجع إلى أن الفن تعبير شخصى يتطلب مجهوداً فردياً لا جمعياً . ومن الحقائق التى لاحظها (سير سيريل برت) أن القدرة الفنية عند الأطفال تأخذ فى الاضمحلال كلما ازداد اهتمامهم بنواحى النشاط الجمعى . ومن المحتمل جدا أن فناني العصر (الباليوليتى) كانوا أفرادا متفرقين ، لا مدرسة متماسكة ، فإنه على الرغم من أن الجماعة وقتئذ كانت تهتم

بالصور ، وتستخدمها فى إعداد التعاويذ السحرية التى تعين على النجاح فى الصيد فإن تلك الصور لم تكن من إنتاج الجماعة نفسها . إن هذا الرأى ليس أكثر من حدس ، وإن كان تضاؤل الإنتاج الفنى عند الأطفال بالصورة التى ذكرناها حقيقة لا تنكر . وقد سبق لنا أن لاحظنا ما يطرأ على أحلام اليقظة من تغيير فى هذه المرحلة ، إذ تصبح التمثيل أكثر ملاءمة من الرسم لتصوير أحلام اليقظة ، على الرغم من احتفاظ تلك الأحلام بما تثيره من اهتمام ، وبما تحفل به من صور ، وبما تتميز به من وحدة وتماسك . وكل ذلك لم يخرج بعد عن كونه دليلا طيباً يتطلب لتأييده بحثاً متواصلا ودراسة شاملة مستفيضة .

إننا لم نكتب هذا الفصل اعتقاداً منا بأن دراسة أحلام اليقظة سوف « تفسر » لنا الفن ، بل كتبناه ونحن ندرك تماماً غير ذلك ، لأن مهمة « تفسير » الفن تخرج عن دائرة علم النفس . أن عالم النفس يقبل « الخبرة الجمالية » على أنها جزء من مادة بحثه يخضعها للدراسة بطرقه العلمية ، فيحللها قدر استطاعته ، ويحاول أن يكشف عن مدى ارتباط بعض عناصرها ببعض ، وبعناصر سائر الخبرات الأخرى .

ويتجلى كثير من خصائص العمل الفنى فى حلم اليقظة فإن تأمله يفضى إلى نوع من « الخبرة الجمالية » ، حتى ولو لم يكن النوع السامى . فالغلام الذى يقرأ قصة شبيهة بحلم اليقظة يمر « بخبرة جمالية » تختلف عن تلك التى يمر بها الراشد أثناء استغراقه فى الاستمتاع بعمل فنى يستطيع تذوقه وتقديره . وربما كان الفارق بين الخبرتين فارقاً فى الدرجة لا فى النوع .

وقد رددنا كثيراً من قبل أن أحلام اليقظة يتم تركيبها لا شعورياً ، وإن كان هذا لا يمنع أن ينالها التعديل والتنميق بشكل شعورى . ومن المحتمل جداً أن الإنتاج الفنى ، فى دائرة الأدب والنقش على الأقل ، يتم تنسيقه على أساس من أحلام اليقظة . كذلك يحتمل أن يكون ما نستمتع به من خبرة جمالية

راجعاً إلى أن ذلك الإنتاج الفنى قد انطبق على أحلام يقظتنا — وإن كان يسمو عليها فى بعض الأحيان — بحيث يندمج إحدهما فى الآخر ويتحدان ، كما تنساب مياه الجداول إلى البحر وتتلاشى فيه .

وعلى هذا ربطنا « الخبرة الجمالية » بأحلام اليقظة ، ثم بالنزعات الغريزية فى الطبيعة البشرية ، فالقينا على تلك الخبرة من الضوء أقل مما نلقيه على هذه النزعات . ويتضح ذلك بوجه خاص عندما نؤكد احتمال استخدام — أو بعبارة أصح « إطلاق » — ذلك النوع من النشاط الذى ينظر إليه الكثيرون على أنه ، فى أحسن صوره ، مصدر للتسلية ، وفى أسوأ صوره عديم الجدوى قليل النفع . وقد يكون التسامى بأبصارنا إلى أعلام الفنانين فى علياء سماواتهم التى قد تبدو لنا عسيرة المنال ، مصدر إلهام لنا أو سبباً لسريان البرودة فى أوصالنا فى بعض الأحيان ، غير أن إيماننا بالطفولة والتربية من شأنه إن يشجعنا على الوصول إلى تلك المراتب السامية ، وبالرغم من إدراكنا لطول الطريق وبعد الشقة فإن أقدام الأطفال الصغيرة اللينة قد وطئت بالفعل بداية هذا الطريق الطويل ، ولعلها واصلة بالكثيرين منهم يوماً ما إلى أبعد من تلك الحدود التى لا نسمح لهم بتجاوزها فى الوقت الحاضر .

الفصل العاشر

حلم اليقظة و دين الطفل

لابد لنا فى معرض الكلام عن علاقة حلم اليقظة بالدين أن نؤكد بعض ما قلناه فى الفصل السابق عن علاقة حلم اليقظة بالفن . إن البحث فى ماهية الدين وحقيقة الظواهر الدينية من الأمور التى لاتدخل فى نطاق علم النفس ، فإن كل ماتفعله سيكولوجية الدين هو أن تأخذ « الخبرة الدينية » على أنها جزء من مادة دراستها ، فتتناولها بالبحث شأنها فى هذا شأن سائر الخبرات الأخرى وتطبق عليها نفس طرق البحث التى تعالج بها تلك الخبرات جميعاً . ولذلك يبدو للكثيرين من القراء أن هذا الفصل لايبحث إطلاقا فى الدين .

وليس من السهل أن نقرر ما إذا كان الأطفال يستطيعون تكوين أفكار يمكن أن تعتبر دينية بغير الاتصال بالعالم الخارجى ، لأن الأطفال جميعاً ، سواء فى العالم الإسلامى أو العالم المسيحى ، يقعون تحت تأثيرات مختلفة منذ وقت مبكر من حياتهم ، إذ يحدثهم ذووهم ومعارفهم عن الله بطرق بسيطة متنوعة ، كما أنهم يلقنونهم المبادئ الأولية للعبادات التى يتقربون بها إلى خالقهم . وليس من العسير أن يصدق الأطفال كل مايقال لهم بسهولة . ويحتمل أن يكون ذلك راجعاً إلى أنهم قد كوّنوا عن أبويهم معتقدات شبيهة بهذه المعتقدات الدينية ، ولذلك كثيراً ما يسرع الطفل إلى الإيمان بأن الله كبير ، ولكنه ليس أكبر من أبيه ، حتى ولو أكد الأب لطفله أن الله أكبر . فالوالدان فى نظر الطفل ، قادران على القيام بكل عمل مهما جلّ ، والإحاطة بكل شىء علما ، والتواجد فى كل مكان ، كما أنهما معصومان فى نظره من الخطأ . والطفل قاصر عن التفكير فى عدم قدرة أبويه

عن تنفيذ مطلب من مطالبه . فهما يمدانه بالغذاء ، ويقدمان له مايشتهى ، أو يصنعان له مايريد . وقد يحدث ذلك بشكل يكتنفه الغموض والإبهام فى بعض الأحيان ، حتي لقد يبدو له أنهما يملكان من المال كنزا لاينضب له معين . ولكن يأتى على الطفل وقت يدرك فيه أنه قد خدع نفسه ، فيرى فى أبيه شخصاً عادياً قد لايفوق غيره فى العلم إلا قليلا ، بل إنه قد يكون دون بعض الناس فى هذه الناحية . وهكذا يفضى به اتساع دائرة خبرته ، واطراد نموه وما يصحب ذلك من ازدياد فى مطالبه وحاجاته إلى الكشف له عن خطأ معتقداته الأولى عن أبويه ، وضرورة تصحيح هذا الخطأ .

وكل ذلك على أكبر جانب من الأهمية بالنسبة للطفل الذى ما كان يعتمد فى أمنه على أبويه وحدهما ، فأصبح يرى أن قدراتهما ليست شاملة بالقدر الذى كان قد توهمه فى بادىء الأمر . وعندئذ يحس ضرورة وضعهما تحت الاختبار لمعرفة حدود قدرتهما حتى يستطيع تحديد مدى ثقته بهما واعتماده عليهما . وقد أشار الأستاذ بوفيه وغيره من علماء النفس إلى أن فضول الأطفال العجيب الذى يتكشف فى هذا السيل المتدفق من الأسئلة التى يوجهونها إلى أبويهم ليس مرجعه فى كثير من الأحيان إلى رغبة جدية فى معرفة أمور يجهلونها ، بل إلى محاولة الكشف عن مدى معرفة الأبوين لهذه الأمور . وهذا هو مايفعله كثير من الراشدين مع الأشخاص الذين يريدون وضع ثقتهم فيهم . فإذا ما اتضح لهم قصورهم فى ناحية من النواحى فإنهم عندئذ يعنون بالتدقيق فى اختبارهم ، وهذا يؤدى إلى الغلو فى أهمية مئات التفاصيل التى لم تكن تسترعى الانتباه من قبل . فإن اكتشاف نقطة ضعف واحدة فى شىء كنا نؤمن بصحته من قبل يثير فينا الريبة والشكوك ، وهكذا يكون ظهور نقطة الضعف هذه سبباً فى استقصاء كثير غيرها .

وليس من السهل على الأطفال أن يخلفوا وراء ظهورهم إيمانهم بما لآبائهم

من قوى هائلة . فإذا أخبرهم أحد والديهم بأنه يجهل الموضوع الذى يسألونه عنه فإن ذلك يثير فى نفوسهم الشك فى أنه إنما يتعمد الكتمان ، و يستولى عليهم الاعتقاد بأنهم لابد واصلون إلى ماخفى أمره عليهم بموالاة الاستفسار والإلحاح فى السؤال . فالطفل قد يسأل أباه أن يشترى له لعبة أبصرها فى نافذة أحد المتاجر ، فإذا رفض الأب شراءها بحجة ارتفاع ثمنها فإن ذلك لن يزيد الطفل إلا إصراراً على الحصول عليها ، لأنه غالباً مايشعر أن أبويه يستطيعان إنفاق المال فى يسر وسهولة ، ولكنهما لا يرغبان ذلك لسبب لايدركه ، ولذلك نراه يقابل امتناع أبيه بالاستياء الذى لا يلبث أن يتحول إلى لين أملا فى إذعان أبيه لرغبته . ومن أمثلة ذلك أن طفلة فى الرابعة من عمرها اعتادت أن تطلب إلى أبيها ، أو أخيها ، أو عمها الذى كان يسرف فى تدليلها ، أن يشترى لها لعباً غالية الثمن ، وعندما يخبرها أحدهم أنه لايستطيع ذلك فإنها كانت تعبر عن ارتيابها فى صدقه بقولها : « إنك لتملك مالا كثيراً » ، ثم تتألق الدموع فى مقلتيها لبضع دقائق . ولكنها بمجرد ابتعادها عن المتجر الذى تباع فيه اللعب يعاودها هدوءها ومرحها ، فتستأنف ثرثرتها كما لو أن شيئاً لم يحدث على الإطلاق .

وقد كان سلوكها حيال اللُعب يشير بجلاء إلى أنها لم تكن جادة فى رغبتها للحصول عليها ، فإنها لم تكن تلعب بها إلا نادراً ، و إنما كانت تحفظها فى دولابها حتى إذا ما أنبها أحد على خطأ ارتكبته ، أخرجت لعبها من الدولاب ، وأخذت تتحدث عنها إلى نفسها أو إلى رفيقة خيالية . فكأنها كانت تتخذ من لعبها عزاء لها عما نالها من إذلال . وهذا يذكرنا بقصة (تريمالكيو) أثناء وليمته الشهيرة عندما استدعى رئيس خدمه وأمره أن يقرأ على أسماع ضيوفه قائمة بممتلكاته بغية تذكيرهم بأهمية مضيفهم .

وكما يختبر الأطفال مدى علم أبويهم ، فإنهم أيضاً — على ما يبدو — يحاولون اختبار مدى خدمتهم على منحهم كل ما يريدون . وما يظهر عليهم من استياء

عند رفض إجابة مطالبهم ليس مجرد شعور عدائى نحوهما بسبب هـذا الرفض فحسب ، بل إنه كذلك من نوع الشعور الذى يصحب تبدد وهم من الأوهام ، فقد اتضح لهم أن الأب الذى كانوا يرون فيه رمزاً للعلم والمعرفة ليس إلا شخصاً محدود العلم ، عرضة للخطأ ، شأن باقى الناس . كما ظهر لهم أن الأب الذى يظنونه قادراً على منحهم كل شىء قد أصبح لا يجود عليهم إلا بالقليل الذى يملكه ، بينما يملك سواه من الناس سائر الأشياء التى يريدونها ، والتى لا يملك هو من المال ما يكفى لشرائها .

فاعتقاد الطفل أن لأبويه تلك الصفات الممتازة هو الذى جعله يتوهم الأمن فى وجوده بينهم ، فلهما قدرة شاملة ، ومعرفة واسعة ، وسخاء بالغ ، وهما معصومان من الوقوع فى الخطأ ، يحبان طفلهما حباً جمًّا . ولا يستخدمان كل هذه المزايا إلا فيما يعود عليه بالخير والنفع ، وهما بذلك مصدر الأمن الكامل له . ولكن بمجرد اختفاء هذه الصفات ، وإدراك الطفل ذلك ، يتبدد ذلك الأمن هباءً . ويرى أن ما يدفع الأبوين إلى بذل ما يستطيعان فى سبيله ليس إلا الحب والطفل لا يقنع بالحب وحده .

على أنه قد يصبح هذا الحب بدوره أيضاً من الأمور المشكوك فيها ، إذ بمجرد مولد طفل آخر يرى الطفل الأول أن ما كان يعتقد أنه من حقه وحده قد أسبغ على الوليد الجديد . ولذلك لا يدهشنا أن يتولد عنده شعور بالخوف والقلق بسبب شعوره أنه بات تحت رحمة قوم أشد منه قوة — وإن لم تكن قوتهم شاملة — وأنه أصبح غير محبوب منهم . وهنا يصبح كل ما ينشده هو استعادة ذلك الحب الذى فقده من غير سبب ظاهر يدعو إلى فقده إياه ، أو انتقاله إلى غيره . ويزداد الأمر تعقيداً بإخفاقه فى استعادة حب أبويه عن طريق ذلك السلوك المضطرب المعقد الذى يمتزج فيه العداء بالاستياء والغيرة بالضعف ، ويلاحظ الأبوان أن ولدهما قد انقلب مشاكساً صعب المراس ، فتأخذهما الحيرة

لهذا التغير المفاجىء الذى اعتراه .

والصفات التى كان الطفل يعتقد فى طفولته المبكرة بوجودها فى والديه هى نفس الصفات التى تنسبها معظم الديانات إلى الكائن الأعلى ، إذ نلاحظ فى بعض الأديان تأكيد وجود نفس الطيبة والمعرفة والحكمة والسلطان ، ولكن ذلك يكون بصورة أكثر تحديداً ، فقد يكون أحد الآلهة ذا سلطان واسع فى حدود مملكته الخاصة ، ولكنه لا حول له ولا قوة فيما وراء ذلك . والطفل لا يجد صعوبة فى الإيمان بوجود كائن يملك قدرة شاملة ، ومعرفة واسعة ، وحكمة عظيمة ، ويستطيع أن يسرف فى البذل والحب . فإن تلك الصفات جميعاً صفات كان يؤمن بوجودها فى أبويه من قبل .

ولا تثير الأدعية والصلوات البسيطة أية مشكلة فى نظر الطفل فى هذه السن المبكرة ، بل إنه بمجرد تصديقه لأقوال أبويه عن وجود الله وعظمته وقدرته على منحه كل ما يطلبه منه يأخذ فى التحدث إلى هذا الإله أكثر مما يتحدث إلى رفقاء خياله .

وتشترك الأديان جميعاً فى فكرة وجود قوى عظيمة تفوق حدود الطاقات البشرية ، تكمن خارج الإنسان ، ويمكن الاستعانة بها فيما يجلب إليه النفع أو الضر على السواء . وقد يفكر الناس فى تلك القوى كما لو كانت متجسمة فى كائن واحد ، أو عدد من الكائنات المستقلة بعضها عن بعض . كما أنهم قد يصنعون لها النماذج والصور ، أو يطلقون عليها الأسماء ، ويقيمون لها الشعائر والطقوس التى قد يلبسون فيها أردية خاصة يعتقدون أنها تجعلهم شبيهين بها . وكثيراً ما يكون من أصعب الأمور على الباحث أن يحدد عقيدة الفرد على وجه التحقيق بسبب الخلط الشديد بين الحقيقة و بين الصور والأسماء مما يجعله يتساءل : هل المعبود الحقيقى هو الوثن أو شىء آخر يمثله ؟ وهل للإله قدرات معينة تظهر عند ذكر اسمه ، أم أن تلك القدرات تكمن فى الاسم ذاته ؟ إننا نجد تناقضا كبيراً

بين مختلف آراء الأفراد فى هذه النقطة وسواها مما يجعل القطع برأى حاسم فيها محوطاً بالشك والغموض . وقد يكون من الهين أن نعرف من الزعماء الرسميين لإحدى الجماعات نوع الدين الذى يعتنقه أفراد تلك الجماعة . بيد أننا لو سألنا أولئك الأفراد متفرقين لجاءت إجاباتهم مختلفة كثيراً عن هذا المقياس الرسمى .

وأيا كانت الصورة التى تتخذها « القوة » ، أو الصورة التى يعتقد أنها تكمن فيها ، فإن لتلك القوة مظاهر عديدة ، منها ما يعود بالخير واليمن والبركات ، ومنها ما يفضى إلى الشر والأذى . فالطفل الصغير يعلم أن أباه يقدر على إيذائه لأنه قوى ، كما يعلم أن فى مقدوره مديد المعونة إليه لنفس السبب . كذلك يتعلم بالتدريج أن بعض فعاله تسر أباه وتجعله يتحفه بالعطايا والهبات ، بينما يستثير البعض الآخر غضبه و يستوجب عقابه وحرمانه . وكثيراً ما تكون الفكرة التى يضطر الطفل إلى تكوينها عن « الطيب » و « الخبيث » مختلفة عن تلك التى تتوقف على ميله و بغضه ورغبته فى الإشباع النفسى . ولذلك يصبح من السهل عليه أن يضم إلى إيمانه بالله اعتقاداً بوجود طائفة من الأعمال هى عند الله طيبة مرضية فيثبت عليها ، وأخرى رديئة مستهجنة تستوجب المؤاخذة والعقاب .

فليس من الغريب إذن أن ينمو فى عقل الطفل مذهب دينى منمق عن طريق ما يصله من معلومات خارجية ، ومحاولاته المختلفة لتفسير تلك المعلومات على أساس خبرته حيال أبويه ، فينمو عنده اتجاه معين إزاء كائن خفى قوى لا يستطيع أن يدركه إدراكا مباشرا بحواسه ، ولكنه يستطيع الاتصال به بسلوكه وأعماله .

فكأن خبرة الطفل قد دلته على أن مساعدة الأب له وعناية الأم به تتوقفان على شروط معينة . فإذا قال : « أرجو أن تحملينى فإنى متعب » فإنه يكون قد اتخذ من ضعفه ذريعة لالتماس المساعدة . كذلك إذا أراد الاعتذار عن أمر أغضب والديه فإنه يقول : « لم يكن فى وسعى أن أتجنب ما فعلت » ، أو :

« لم أكن أعلم أنكما لا ترضيان عما فعلت » ، فهو يعلم أن ضعفه وجهله وتصور إدراكه كلها أمور ذات تأثير خاص فى والديه . ويعلم كذلك أن ما يخصانه به من العناية مقصور عليه وحده دون غيره من الأطفال الذين لا يحتلون نفس المركز الذى يشغله بالنسبة إليهما . فهو يفهم « الحب » على هذه الصورة البدائية ، وإن لم يستطع تعريفه .

قالت طفلة لأمها ذات مرة : « إنك تحبيننى . أليس كذلك ؟ » ، وعند ما أكدت لها أمها حبها إياها استطردت الطفلة قائلة : « إذن ستشترين لى دمية كبيرة » . قد تكون هذه الصورة فى ظاهرها طريقة مادية ساذجة للتعبير عما تريده الطفلة ، ولكن يحتمل أن تكون الفكرة الكامنة وراءها أكثر عمقاً وأقل بساطة ، فإن حب الأبوين يظهر للطفلة فى صورة إعطائها مختلف الأشياء ، ومساعدتها والحدب عليها . فإذا ما أرادت أن تنسب صدور مثل هذا الحب الله فإنها تستطيع أن تفكر فيه على أنه إله رحيم رءوف . ولو قيل لها إن كل ما فى الوجود من أشياء ، وكل ما تحمله الأشجار من فواكه وثمار وأزهار ، وكذلك الرمال والبحار ، والطعام الذى تأكله واللبن الذى تشربه ، وحتى أبويها نفسهما ، كل ذلك جميعاً من هبات الله ، فإنها يمكنها عندئذ أن تجد فى كل هذا سبباً لحبها إياه وإيمانها به .

ولو أنا وعينا هذه النقطة حقاً لاستطعنا أن نفهم سبب تأكيد كثير من أهل الدين أهمية الأسرة الطيبة فى نمو الطفل ، فإن هؤلاء يرون أن اتجاهات الطفل التى يحتمل أن تتطور فيما بعد إلى اتجاهات دينية لا يمكن أن تنمو إلا فى محيط مثل هذه الأسرة . فالعلاقة التى تقوم بين الطفل وأبوين مؤمنين تقيين ، وبينه وبين إخوته وأخواته هى التى تعينه على الوصول إلى المرحلة التى يستطيع فيها فهم العلاقة التى تؤكد الأديان قيامها بين الناس والكائن الأعلى . وهذا يحدث عند ما تتجاوز العلاقة دائرة الأسرة إلى كائن مقدس يشبه الأبوين الصالحين

من حيث الرحمة والشفقة . وهكذا يصبح فى وسع الطفل أن يفكر فى إلهه يمنحه الهبات والعون والأمن بسبب ما يكنه له من عطف ومحبة .

غير أننا نستطيع فى بعض الأحيان أن نلحظ نمو اتجاه آخر له دلالته ومغزاه . فإذا كانت « الطيبة » التى يصر الأبوان على أن يتحلى الطفل بهـا من نوع الاستجابة لرغباتهما والخضوع لمشيئتهما ، فإن الطفل عندئذ يعتقد بأنهما ملزمان بإثابته على ذلك . فالطفل الذى يقول : « لقد كنت طيباً اليوم ، فهل لى إذن أن أفعل هذا أو ذاك من الأشياء ؟ » ، أو الذى يطلب شيئاً جزاءً له على حسن سلوكه ، إنما يحاول فى الحقيقة أن يقسر أباه على إجابته إلى ما يريد . ومثل هذا السلوك الذى يختلف كثيراً عن الدين يشبه الإيمان بالسحر ، و إمكان استغلاله فى قضاء المصالح والأغراض بواسطة أشخاص لهم دراية بالأساليب التى يستطيعون بها إجبار تلك القوى الخارجية على ذلك . فعند ما يقوم طبيب القبيلة أو ساحرها بتمثيل العاصفة ، أو عند ما يشرف على قيام رجال القبيلة بتمثيل قصة الصيد وموت الفريسة ، فإن الناس يعتقدون أن الكائن العظيم الذى هو مصدر كل شىء لابد مرسل إليهم المطر المدرار ، أو ما يكفى حاجتهم من الحيوان والطير . فإذا لم تمطر السماء ، أو إذا قلّ الصيد ، فإنهم يبتدعون لذلك أسباباً مختلفة ، كالادعاء بأن واحداً من أفراد القبيلة قد أثار غضب القوة العظيمة ساعة إقامة الطقوس ، فلم تستجب لرغائبهم ، أو أن خطأً ما لا بد قد وقع فى إقامة الشعائر . وما أسهل تأييد مثل تلك الشكوك والترهات !

و بالمثل يمكن أن نشتم رائحة مثل هذا السحر فى محاولة الطفل قسر والديه على تلبية رغباته مما يجعل من المتعذر وضع حد فاصل بين السحر والدين فى هذه المرحلة . فالطفل الذى يقول : « إنى متعب ، فأرجو أن تحمليني » قد يكون مدفوعاً إلى ذلك القول باعتقاده أن ضعفه يلزم أمه بإجابة مطلبه ، وأنه بتعبيره عن ضعفه وقلة حيلته يضطرها إلى النزول على إرادته ، فإذا خضعت الأم بالفعل لمشيئة

طفلها فإنه عندئذ يستخدم عبارة «إني متعب» كما يستخدم البدائى رقاه وأدعيته . و إذا كانت فكرة القسر بعيدة عن ذهن الطفل فإن العبارة تصبح أقرب شبها بالصلاة ، إذ يتوقع الطفل أن تفضى صلاته ودعواته إلى تنفيذ مطالبه ، فإذا لم يتم له ما أراد فلن يعنى ذلك أنه قد فقد الحب ، بل يعنى أن القدرة السماوية قد أرتأت أن الخير فى ألا يجاب الطفل إلى ما أراد . وما دامت علاقة الطفل بأبويه قائمة على هذا الأساس ، أى أن إيمانه لن يتزعزع فى حبهما له ، على الرغم مما قد يعترضه من شكوك أحياناً ، فإن رفضهما إجابته إلى رغباته لن يسبب له قلقاً جدياً .

و إذا أمكن إعداد الطفل عن طريق خبراته المبكرة فى محيط أسرته لأن يؤمن بوجود قوة أعظم من قوته ، يستمتع بها أشخاص يستطيع أن يتحدث إليهم و يطلب مساعدتهم وحمايتهم ، أشخاص يستحسنون فعالا معينة و يستهجنون أخرى ، وهم على أهبة الاستعداد للثواب والعقاب ، وقد منحوه من قبل هبات كثيرة تحتمل المضاعفة ، إذا أمكن إعداد الطفل مثل هذا الاعداد فإننا لن نكون مبالغين إذا قلنا أن نموه الدينى يكون قد بدأ فعلا ، لأنه يكون قد تمكن من فهم طبيعة العبادة والصلاة بدرجة تلائم سنه ، واستطاع أن يدرك وجود نوع من « الخير » الذى لا يشترط أن يكون مرتبطاً بتحقيق إحدى رغباته . وتقضى الحكمة بأن نقنع بهذا القدر من النمو فى هذه المرحلة ، فلا نحاول أن نكيف نمو الطفل بصب أفكاره فى قوالب مذهبية معقدة .

ما علاقة ذلك كله بأحلام اليقظة ؟ قد رأينا من قبل أن أحلام اليقظة عند الطفل الصغير تعبر عن رغباته فى استعادة ما قد فقده بتقدمه فى السن ، إذ يكون قد بدأ يحس ظهور أخطار فى عالمه الساذج الصغير الذى كان يعتقد أنه خلو منها ، وأخذ يخشى أن يفقد حب أبويه له ، كما أصبح يدرك أن والديه ليسا على تلك الدرجة من الكمال الذى كان يتوهمه . وأحلام يقظته إنما تعبر عن الرغبة فى استعادة كل ذلك ، أو أنها ، فى لغة الشعر ، تعبير عن الرغبة فى استعادة فردوسه

المفقود ، و بلغة علم الحياة تصوير لاشتهاء مايستمتع به وهو فى رحم أمه من أمن وراحة و إشباع . وعلى هذا نرى أن كلا من حلم اليقظة والدين يعبر عن الرغبة فى حالة كمال لانتاح للفرد السوى فى حياته العادية . وحلم اليقظة يسعى إلى تحقيق هذه الرغبة بالعودة إلى الماضى ، بينما يسعى الدين إلى نفس الغاية بالنظر إلى المستقبل

وقد أشرنا أيضاً إلى نوع آخر من أحلام اليقظة يحدث فى مرحلة متأخرة من مراحل النمو ، وهو الحلم الذى يرى الحالم نفسه فيه على صورة بطل . و إنا لنجد فى مختلف الديانات ما يشبه ذلك فإن لكل منها أبطالها من أنبياء وقديسين وشهداء ومبشرين ومعلمين . وكلهم أناس كان بنو قومهم يزدرونهم و يمتهنون قدرهم ، إلى أن استطاعوا بجلائل أعمالهم أن ينتزعوا منهم التقدير والإعجاب .

ومن السهل إثارة اهتمام الأطفال بأعمال أولئك الأبطال ، إذ تراهم يستمعون أو يقرءون بشغف و إعجاب قصص يوسف ونوح وداود وغيرهم من الأنبياء . وهى قصص تشبه إلى حد كبير مغامرات الأبطال الذين يتراءون لهم فى أحلام يقظتهم فالأطفال يعجبون بالأبطال أنفسهم و يميلون إلى محاكاتهم ، كما يسهل عليهم الاندماج فى شخصياتهم فيتخيلون أنفسهم فى صورة أحد أولئك الأبطال الذين خلد التاريخ ذكرهم . ولكن فى هذا كله صور جديدة لأحلام اليقظة ، ولذلك لن نجد فيها عنصراً دينياً . إذ طالما كان البطل يقاتل و يحارب فى سبيل المغامرة والإعجاب وحدهما فانه لاشك يكون بطلا أنانياً ، لا بطلا دينياً . ولن تتخذ البطولة صبغتها الدينية حتى يكون صراع البطل فى سبيل نصرة فكرة سامية . فليس من المهم من الناحية الدينية أن يقوم البطل بخارق الأعمال ، و إنما المهم أن ينصب نفسه خادماً لتلك القوة التى تتجاوز الحدود البشرية ، ومنفذاً لإرادتها . ولاشك أن من العسير على الطفل أن يفهم قيام صراع فى نفس البطل ضد شىء داخلى يحول دون وصوله إلى الكمال الذى ينشده الرجل التقى الورع ، أو أن يقبل فكرة استخدام البطل درعا من التقوى وسيفا من الصلاح والإيمان . ولذلك لاينبغى

لنا أن نتوقع من طفل فى العاشرة من عمره أن يدرك بسهولة أن انتصار البطل فى كفاحه ، وما استقبل به من هتاف وإكبار ، ليست جميعاً سوى أمور رمزية لاتفسر بمعناها الحرفى . إننا جميعاً نسعى وراء ألوان شتى من الإشباع المادى ، ولعلنا لانختلف فى ذلك كثيراً عن طفل العاشرة . فليس من المعقول إذن أن ننتظر من مثل هذا الطفل أن يدرك أن بعض أنواع الإشباع ليست إلا مجرد ظلال للحقيقة .

غير أن من الممكن أن نتخذ من تقدير الصغار الساذج للبطولة خطوة أولى تنتقل بهم منها إلى تقدير البطولة فى أسمى معانيها . فإن هذا الانتقال يكون مستطاعا إذا ما استخدمنا الحكمة فى استغلال مراحل النمو الأولى لهذا الغرض ، فلا نتطلب من الصغار أن يقفزوا دفعة واحدة من مستوى آمالهم الطفلية الساذجة إلى مستوى الزعماء الدينيين ، بل ينبغى أن يكون ارتقاء هذا الطريق ارتقاء تدريجياً . فالحنين الذى يحس به طفل فى الثالثة نحو طفولته المفقودة ، ثم الرغبة فى القيام بالأعمال النبيلة التى تتيح الحصول على إعجاب الآخرين ، والميل إلى التضحية بالكثير فى سبيل الغير ، كل أولئك يشير إلى رغبات تنبع فى النفس فى مراحل مختلفة من النمو. والتربية هى توجيه نمو الطفل نحو غايات سامية . فينبغى أن تهدف التربية الدينية إلى توجيه آمال الطفل وأمانيه توجيهاً رشيداً يقصد منه الوصول به إلى أسمى مراتب النمو الدينى الذى يستطيعه .

وقد لايتم النمو الدينى دائما فى يسر وهوادة . فقد يبتهل الصغار إلى ربهم أن يبعث إليهم ببعض الدمى ، أو يهيىء لهم مكانا يضعونها فيه ، أو يعينهم على ابتكار وسائل للعب بها عند وصولها إلى أيديهم . وقد يقدمون له صلواتهم كى يرزقهم أخا أو أختا ، وكثيراً ماينتابهم الضجر إذا مر الوقت دون أن تتحقق آمالهم . وهم يستمسكون بالمعنى الحرفى للدعاء ، فيلجأون إلى الله طمعاً فى تغيير الجو العاصف حتى يستطيعوا قضاء يوم ممتع على ساحل البحر أو فى أحضان الريف . وهم لايدركون أن توقف المطر عن الهطول قد يفضى إلى كارثة فى المناطق الزراعية .

ومن أمثلة ذلك أن طفلا فى حوالى الرابعة من عمره أخذ وعـــداً من أمه بأنها ستصحبه معها فى زيارة لعمته التى يحبها إذا ما كان الطقس جميلا ، فكان يبتهل إلى الله أن يأتى يوم الرحلة مشرقا صافياً . وعندما حل يوم الزيارة كان المطر يهطل بغزارة ، ولـكن الولد أصر على أن يرتدى هو وأمه ثياب الخروج . وقد توقف المطر عن السقوط عندما اقترب موعد قيام القطار مما أتاح لهما فرصة الذهاب إلى المحطة حيث استقلا القطار . وعندئذ عاود المطر السقوط طيلة الرحلة ، بيد أنه توقف قبل وصولها إلى الجهة التى يقصدانها بلحظات معدودات . وظل الجو صافياً بقية اليوم . كل هذه المصادفات المتلاحقة تركت فى نفس الطفل أثراً عميقاً ، فكان يسرف فى الحديث عنها . وقد أيد أبواه وأصدقاؤهما إيمان الطفل بأن كل ماحدث كان نتيجة لصلواته . ولذلك يحتمل جداً أن تكون مثل هـذه الخبرة الوحيدة قد أفضت إلى شعوره بأنه موضع عناية الله ورعايته وأنه قد تقبل صلواته واستجاب لدعائه . كما يحتمل أن تكون قد أدت إلى شعوره بأنه يستطيع أن يؤثر فى مجرى الحوادث بدعائه وابتهاله ، وإلى الاعتقاد بأن تلك العناية الإلهية ترجع إلى فضيلة فى نفسه . وهذا النوع من الغرور من الأمور التى تلاحظ كثيراً عند الـكبار . فقد حدث بعد مرور بضع سنوات من الحادثة التى أشرنا إليها أن دعا ذلك الولد ربه يوما أن يعينه على النجاح فى امتحان كان قد توانى واهمل الاستعداد له ، ولـكنه رسب رسوبا شنيعاً . ومن السهل أن نتنبأ بأثر ذلك فى نفسه ، فإن رسوبه زعزع إيمانه بشكل عنيف لدرجة أنه عبر عن ذلك بقوله : « لقد صليت من أجل النجاح ولـكنى فشلت . فلن أصلى قط بعد اليوم » .

وهذا من نوع الاستياء الذى نلاحظه على الطفل عندما تضع أمه وليدا ، إذ يتحول حب الأبوين إلى القادم الجديد . فهو إذن رد فعل طفلى يشـير — من الناحية الدينية — إلى أن ذلك التلميذ الذى تقدم للامتحان لم يـكن قد تجاوز فى نموه طور الطفل الذى كان يصلى من أجل تحسن حالة الطقس ، فإن معالجة

الأبوين للحادث المبكر الذى ذكرناه لم تفض إلى أى تقدم فى نموه ، بل إنها « ثبتت » هذا النمو عند مرحلة طفلية . ولا شك أن الأبوين لو عالجا الموقف بحكمة و بعد نظر لكان من الممكن أن يحصلا على نتيجة أفضل .

ومما يجدر بالذكر أن كثيراً من أساليب التفكير البدائية فى الله تسير على عكس الطريقة التى يفكر بها الطفل فى أبيه . فالأب والأم لا يملكان الصفات التى أشرنا إليها فحسب ، ولكنهما أيضاً قادران — فى نظر الطفل — على أن أن يفعلا كل ما يريدان . فهما قد يصران على أن يتناول طفلهما عشاء خفيفاً وأن يذهب إلى فراشه مبكرا ، ولكنهما غير مقيدين بمثل هذه القواعد . فلهما « كامل الحرية » لأنهما لا يدينان لأحد بالطاعة وليس لأحد سلطان عليهما بل يعملان وفق مشيئتهما . ولذلك لا يستطيع الطفل أن يصدق عجز أمه عن إتيان أمر من الأمور لأنه يؤمن إيماناً راسخاً بأن أبويه يتمتعان بحرية مطلقة فى العمل والعطاء والبذل والمنع .

و ينبغى التمييز بين حظوة الطفل ومجرد تعلقه بأبويه ، على الرغم من صعوبة وضع حد فاصل دقيق بين الأمرين ، وخاصة أنهما كثيراً ما يمتزجان فى عمل واحد . فكثيراً ما تتخذ الحظوة شكل العطايا والهبات . والمعلمة التى تقبل هدية من الزهر كدليل على محبة طفل لها لن يدهشها — إذا كانت خبيرة بطبائع الأطفال — أن يعقب الإهداء طلب الطفل شيئاً معيناً مما لا يمنح عادة لزملائه وزميلاته ، أو انحراف فى السلوك يدفع إليه اعتقاد الطفل بأنه قد اشترى رضى معلمته مقدماً . وكثيراً ما يحدث أن يحاول أحد الأطفال ، عندما يقع فى بعض المتاعب ، أن يسترد مركزه الممتاز عند معلمته أو معلمه بتقديم الهدايا البسيطة ، أو بالإسراف فى تحسين سلوكه والمغالاة فى الانتباه إلى الدرس . و بعض الأطفال يستخدمون الهدايا لا من أجل التأثير فى المدرس بل فى سبيل الظهور أمام زملائهم بأنهم يتميزون عليهم بما لهم من صلة وثيقة بمدرسيهم ، وما يجمعهم و إياهم من تعاطف ومودة ،

أى بأنهم المختصون عندهم بالحظوة . وهذا لا يختلف كثيراً عن حالة الطفل الذى كان يعتقد أنه يستطيع الحصول على جو صاف كلما حلا له أن يصلى من أجله لأنه يرى أنه ممن اصطفتهم القدرة الإلهية وخصتهم بالحظوة والرعاية .

ويقصد بالحظوة أن تكون وسيلة لتجنب الغضب ، أو اكتساب الرضا ، أو لكلا الأمرين جميعاً . ولكن الطفل الذى يفقد الحظوة ، أو يثير الغضب بأفعاله ، قد يحاول التغلب على ذلك بالتمرد بدلا من التوسل والخضوع . وسنورد هنا حالة مفصلة تمثل ذلك ، وهى خلاصة دراسة لحالة ولد معين يبلغ من العمر ثلاث سنين .

كان هذا الولد معروفاً لدى أمه ومدرسته بأنه مشاكس جداً ، فقد كان يجد تسلية كبيرة فى الخروج على طاعة الكبار عند ما يحاولون السيطرة عليه والتحكم فى أعماله . وكان يبهجه أن يقوم بفعل كل ما يحظر عليه فعله من أمور ، ويسر كثيراً لنجاح حيله الصبيانيه فى التغلب على وسائل الاحتياط والمنع التى كانت توضع فى سبيله . وكثيراً ما كان يباهى أمام أمه بما كان يثيره فى الفصل من متاعب ، إذ يقول مثلا : « لقد كنت شديد المشاكسة هذا الصباح ، فقد أخرجتنى المعلمة أمام تلاميذ الفرقة ، ولكنى استطعت أن أعبث بها ، وأن أجعل رفاقى يضحكون . وعندئذ ضحكت هى الأخرى وتركتنى أعود إلى مكانى قائلة إنى من أشد الأطفال الذين صادفتهم « شقاوة » .

لا يهمنا كثيراً أن نعرف إذا كان الطفل قد التزم جادة الصدق تماماً فى روايته ، فإنها صحيحة فى مجملها . ولكن يهمنا أن نعرف أن هذا الاتجاه من جانب الطفل حيال المعلمة والمدرسة خليق أن يحدد اتجاه نموه فى المستقبل . صحيح أنه قد أغفل بعض التفصيلات فى روايته فلم يذكر لنا مثلا نوع المعاكسات التى قام بها ، ولكنه عرض على أبصارنا صورة واضحة المعالم لطفل صغير يتحدى شخصاً كبيراً فيجرده من بعض مظاهر قوته ويكتسب بذلك استحسان

المتفرجين . فهو يباهى بأن يكون «أشد الأطفال الذين صادفتهم المدرسة شقاوة» ، ويفضل ذلك على أن يكون مجرد طفل عادى حسن السلوك مثل باقى الأطفال . فمثله فى ذلك مثل شيطان (ملتون) الذى يفضل أن يحكم فى جهنم على أن يكون خادماً فى الجنة . وتلك هى « الخرافة » التى نسجها حول نفسه حيث يظهر فى صورة (أجاكس) وهو يتحدى الآلهة ، وقد حلت فى جسده روح « لا تخضع لسيطرة أحد » .

ولكن المعلمة لجأت إلى وسائلها الخاصة ، فأخذت تتحدث إليه ، أثناء درس الخط ، عن جهنم التى سوف يكتوى بلظاها كل الأطفال المشاكسين . وهذا وإن كان لا يثير مخاوف الطفل العادى ، إلا أن هذا الولد الذى كان يباهى بمعاكساته ويدبر غيرها تأثر بما قالته المعلمة بشكل خاص . فهو يريد أن يعاود مشاكسته ليستمتع بما تتيحه له من مكانة ممتازة فى نظر أقرانه ، وهكذا يظل على إيمانه « بالخرافة » التى نسجها عن نفسه ، بيد أنه يحس فى الوقت نفسه أنه يضحى فى سبيل ذلك بالكثير ، لأنه أصبح لا يستطيع التفكير فى المشاكسة التي ألفها دون أن تتراقص أمام عينيه نيران جهنم التي تملأ قلبه رعباً وفزعا . ويتكرر هذا على مسمعه فى أيام الآحاد حيث يستمع فى دروس الدين إلى أحاديث العذاب الذى ينتظر الأولاد « الأشقياء » . صحيح أن دروس الآحاد لا تدور كلها حول موضوع النار فى الآخرة ، ولكن هذه النقطة فيها بالذات هى التى تترك فى نفس الولد أثراً بالغاً لأنها تتصل مباشرة بحالته الخاصة .

وبذلك يكون بين أيدينا طفل أصبحت نفسه ميداناً لصراع عقلى . فهو يبتغى أن يحتفظ بكل الميزات التى يتيحها له سلوكه الردىء ، وبه أيضاً رغبة مكينة فى تجنب عذاب النار . ومثل هذا الصراع حقيق بأن يتجلى فى سلوكه ورؤاه .

كان الولد معتاداً أن يلبس دثارا صوفياً قرمزى اللون عند ذهابه إلى المدرسة ، وكان فخوراً بهذا الدثار . وكم كانت دهشة أهله عندما فوجئوا ذات يوم برفضه

أن يرتديه كعادته . وعندما ألحوا عليه بالسؤال أخذ يبكى ثم كشف لهم عن السبب إذ قال : « إن المعلمة أبدت إعجابها الشديد به لأنه زاهى اللون ، قانى الحمرة — مثل النار . . . » .

كذلك حدث فى عدة ليال متعاقبة من ليالى الأحد أن الولد كان يستيقظ من نومه فى حالة رعب شديد ، فكان يصرخ قائلا : « يا أمى ! اخرجينى من النار » ، وكان لا يستطيع أن يذكر الكثير من تفاصيل حلمه فإنها كانت — كما هو الشأن فى مثل هذه الحالات — تنسى أسرع من الرؤى العادية . فلم يكن يتذكر منها أكثر من أنه قد أساء السلوك ، وأن شخصاً ما قد قذف به إلى النار . فكان يستغيث بأمه لتنقذه منها .

فالحلم إذن يصور الصراع القائم فى نفس الطفل . وهو يحقق رغبة الولد فى أن يسىء السلوك ، وأن يكون أشد « شقاوة » من ذى قبل . وقد توصلنا إلى هذا الاستنتاج على أساس أن معاكساته السابقة لم تكن تفضى إلى غير التهديد والوعيد ، أما فى الحلم فهى تؤدى إلى العقاب نفسه . ولما كان الولد يرهب العقاب ويخشاه فإنه يستيقظ قبل انتهاء الحلم فكأنه قد توصل بذلك إلى طريقه تجنبه العقاب هى استغاثته بأمه وإنقاذها إياه .

والشبه قوى بين هذا الحلم وبين حادثة ذكر (رايدر هجارد) فى قصة « نارا الزنبقة » أنها وقعت (لدنجان) ملك الزولو . كان (دينجان) حاكما شريراً مرذول الخصال . وقد ألف أحد المبشرين الذين كانوا يعملون فى تلك البلاد وقتئذ أن يحذر الملك مغبة آثامه ، وسوء مصيره فى الآخرة ، حيث تكون النار مثوى كل من ينغمس فى الرذيلة مثله . وقد كان لإصرار المبشر على دعوته وجده فيها أثر عميق فى نفس الملك الذى ألفى نفسه أمام نفس المشكلة التى كانت تقلق بال الولد وتقض عليه مضجعه . فهو لم يكن ميالا إلى تغيير أسلوب حياته ، ولكنه فى الوقت نفسه كان يخشى أن يحرق فى نار جهنم .

وفى ذات يوم أرسل الملك فى طلب المبشر : فلما ذهب إليه وجده راكعاً فى الكوخ الملكى بالقرب من كومة ضخمة من الخشب أعدت للحرق . وقد طلب الملك إلى المبشر أن يجلس بجانبه ، وأمر الخدم أن يشعلوا النار فى كومة الخشب . وعندما بدأت النار تشتد و يتوهج لهيبها قال الملك : « هل تشبه النار التى حدثتنى عنها هذه النار ؟ » فأجاب المبشر بأنها أشد حرارة وأقوى سعيراً . وعندئذ أمر الملك بإلقاء مزيد من الخشب فى النار ثم أعاد نفس السؤال ، ولكن إجابة المبشر لم تتغير . وتكرر هذا الأمر مدة من الزمن حتى بدأ الشك يساور المبشر فى أن الملك إنما يقصد الهزل والدعابة ، فتوقف عن الإجابة على أسئلته . وهنا كانت شدة النار قد بلغت أقصاها مما اضطر الملك والمبشر إلى الابتعاد بمقعديهما عن هذا الجحيم المستعر .

عندئذ أصدر الملك أمره إلى الجند المصطفين حوله بأن يتقدموا إلى النار فيطفئوها بأقدامهم كى يطفئوها . فالتهمت النار أول من حاولوا ذلك ، وتبعهم آخرون وآخرون حتى أصبحت النار فى النهاية كومة من الرماد المتوهج . وهنا التفت الملك نحو المبشر قائلا : « ها قد أبصرت بعينى رأسك ما سوف أفعله إذا ما بعث بى إلهك إلى النار العظيمة التى حدثتنى عنها ، إذ سوف أدعو جنودى وآمرهم بإطفائها على هذه الصورة » .

إن مما لا شك فيه أن وجه الشبه بين حالتى الولد والملك شديد الوضوح ، إذ يظهر فى كلتيهما ، تعبير صريح عن الاعتقاد بأن أولئك الذين يطيعون الشخص و يحبونه سوف يحولون بينه و بين كل ما يهدد سلامته وأمنه . فالطفل يعتقد أن أمه تستطيع أن توفر له الأمن والحماية ، والملك المتبربر يؤمن بقدرة جيشه على ذلك . وفى كلتا الحالتين تسبق ذلك مقدمات معينة ، فأم الطفل قد قامت بالفعل بحمايته من أذى معلمته ، كما أن جيش الملك قد قام أيضاً بدفع عدوان جيرانه على مملكته .

ومما هو جدير بالذكر أيضاً أن الولد أصبح فى المدة الأخيرة يرفض أداء الصلاة . وقد يكون الدافع له إلى ذلك أن الصلاة تعنى ابتهاله إلى الله أن يهديه سواء السبيل ، ويجعل منه « ولداً صالحاً » ، ولما كان الولد يؤمن بأن صلاته ذات أثر فعال فإنه قد أصبح غير ميال إلى النطق بهذا الدعاء خوفاً من استجابته . ولكنه يريد فى نفس الوقت أن يتجنب لقاء الله ولذلك فإنه يتجاهل وجوده إطلاقاً . وهذا بالنسبة لطفل صغير يعنى القضاء عليه تماماً . فعندما كان يبصر أخاه الأكبر جاثياً يصلى على ركبتيه ، فإنه كان يقول له دون أن يبارح فراشه : « أتنوى أن تناجى الله ؟ لا تفعل ذلك . إنه رجل ردىء ، فهو يبعث بالأولاد إلى النار . » وعندما يتجاهل أخوه نصيحته ويستمر فى صلاته فإنه يقول : « ما دمت مصراً على الابتهال إليه فلن أصغى إلى ما تقول . إنك لو ناجيته لأدركك الموت ، فإنه هو الذى يميت الناس . فأنصح لك ألا تكلمه . » ثم يجذب الغطاء فوق رأسه حتى لا تصل صلاة أخيه إلى مسمعه .

وإذا أنعمنا النظر فى أفعال الطفل ورؤاه وأقواله وجدناه يؤمن بشىء شبيه بالآتى : إنه يستطيع الاحتفاظ بمكانته فى نظر نفسه ، ونظر رفاقه ، إذا ما استمر فى أعمال « الشقاوة » ضد معلميه ومن يشبههم من الناس . وإذا أثارت فعاله غضب الله فإن فى مقدوره التهرب منه بتجاهل وجوده ورفض الابتهال إليه . وإذا ما بلغت الأمور أسوأها فإن فى وسع أمه أن تيسر له الطمأنينة والأمن — فهو إذن قد دبر خطة تمكنه من أن يحقق رغباته ، ويتجنب نتائجها فى نفس الوقت . وهو قد قلب بذلك كل القيم الدينية رأساً على عقب . فإن الله تعالى — وهو الخير كله — قد أصبح فى نظر الطفل « رجلا رديئاً » لأنه يعاقب على « الشقاوة » . ورب معترض يقول أن هذه كلها أمور ليست أكثر من ظواهر صبيانية ، وأن الزمن كفيل بإصلاحها ، ولكنا نستطيع الرد على ذلك بقولنا إن الحالات التى تمت دراستها فى العيادات السيكولوجية تناقض هذا الرأى .

فالصراع المستعر فى ذهن الطفل قد تم حله بصورة غير مرضية . وما دامت أنواع الصراع المبكرة ، وما تعالج به من حلول مؤقتة ، تنقلب إلى نماذج تتشكل وفقها كل المواقف التى تأتى بعد ذلك ، فإننا لا نستطيع أن نفترض أن أى صراع يحدث بعد ذلك قد يكون أقل شدة وخطراً ، أو أكثر سهولة فى الحل والعلاج . فليس فى الإمكان إذن أن نتجاهل ما لحوادث السنين التكوينية الأولى من دلالات عميقة فى حياة الفرد .

لقد أسهبنا فى سرد تفاصيل هذه الحالة بالذات لأنها كاملة على غير المألوف . وهى لذلك لا تدلنا على مصدر الصراع فحسب ، بل وترشدنا أيضاً إلى الدور الذى تقوم به الرؤى والسلوك والتفسيرات التى يحاولها الطفل . وإن الإلمام التام بمثل هذه الحالات الكاملة هو وحده الذى يمكننا من إدراك دلالة العناصر المكونة لها . فلو أنا لم نعلم مثلا أكثر من أن الطفل رفض فجأة أن يرتدى دثاره الأحمر ، لحاولنا الاكتفاء بتفسير ذلك بافتراض ظهور كراهية مفاجئة ضد ذلك الدثار ، دون أن نفكر فى ضرورة استقصاء حقيقة الأمر . وربما ادعينا أن الدثار يجعله محطاً للأنظار ، أو أنه سمع بعض الناس يسخرون منه . ويحاول كل من يريد تفسير سلوك الأطفال بهذه الصورة أن يبرر رأيه بقوله : « إن تلك هى الأسباب التى تحملنى على أن أفعل نفس ما فعله الطفل إذا ما أحاطت بى نفس الظروف ». ولكننا إن لم نعرف على وجه التحديد ماهية تلك الأسباب ، وأنها بالفعل تدفع الطفل إلى ما فعله فإننا إنما نبنى آراءنا على افتراض أن عقلية الطفل لا تختلف عن عقلية الراشد وهو افتراض لا تؤيده الحقائق .

إننا لم نذكر حتى الآن شيئاً عن علاقة أحلام اليقظة الجمعية بالدين ، وهذا فى الحقيقة أمر على أكبر جانب من الأهمية . فاعتناق فكرة واحدة عن الله من شأنها أن تربط الناس بعضهم ببعض برباط وثيق محكم ، وتجعل منهم هيئة دينية متماسكة ، أو أسرة روحية ذات عقيدة متحدة وكثير من شعائر العبادة

تؤكد هذا العنصر فى الحياة الدينية . فصلاة الجماعة ، والصوم الجمعى والأعياد العامة ، كلها مظاهر حياة دينية واحدة .

وكما أن هناك مرحلة نمو للخيال العاطفى تظهر فى أفق حياة كل فرد عندما يحس بالجمال ، ويستجيب للشكل واللون والصوت ، كذلك تمر فى تاريخ كل دين عظيم فترات يولع الناس فيها بالتعبير عن شعورهم الدينى فى صور جمالية . فنرى المهندسين والمصورين والنحاتين والخزافين والنجارين والحدادين وتجار الجواهر والنساجين وغيرهم من أرباب الحرف والصناعات المختلفة ينتجون روائع فنونهم فى خدمة الدين ، بحيث أصبح الناس فى الممالك الإسلامية والمسيحية على السواء يستطيعون المفاخرة بما عندهم من مبان دينية رائعة ، وينظرون إليها على أنها مظاهر للنبوغ الهندسى ، ودلائل على تفوق صناعهم وفنانيهم . كذلك نرى غير أولئك من يكرس مواهبه الأدبية والفنية فى نشر مذهبه الدينى ، وإضفاء قوة التأثير والروعة والجمال على العبادات العامة وقد يحاول كذلك الفلاسفة أن يميزوا بين « الجميل » و « الحقيق » ، أى بين الخبرة « الجمالية » والخبرة « الأخلاقية » أو « العقلية » ، ولكن من المحتمل أن تكون الخبرة الدينية هى التى تقوم بربط سائر الخبرات بعضها ببعض ، فتجعل منها وحدة سامية .

لسنا إذن نرمى إلى الإقلال من أهمية الدين أو الفن عندما نقول إن حلم اليقظة يعد الطفل لكل من الخبرة الجمالية والخبرة الدينية على السواء . فأحلام يقظة الطفل التى تدورحول نفسه تعده الايمان بشخص يشبهه ولكنه يسموعليه ، شخص سام يمثل ذاته التى لم ينلها التغير والتحول ، ويتحلى بكل الفضائل التى كان يجدها فى أبويه فى أيام حياته الأولى . وبذلك يدرك هذا الكائن العظيم إدراكا تاما عندما يبلغ نموه الدرجة التى تتيح له ذلك لأنه يكون قد أدركه من قبل بصورة طفلية ساذجة . فكأن مايدركه الطفل صغيرا ليس هو الحقيقة التى سوف يصل إلى معرفتها عندما يكبر ، بل إنه القالب الذى سوف يدرك تلك

الحقيقة فيه ، لذلك لاينبغى لنا إطلاقا أن نتوقع أن نرى في أحلام يقظة الصغار تلك « الخبرة الدينية » التى يمر بها الكبار ، كما لاينبغى أن نتوقع أن نكتشف روعة الصورة الفنية الكاملة من مجرد الخطوط المبدئية التى يخطها الفنان بقلم الفحم الأسود على قطعة جديدة من قماش الرسم ، أو عظمة التمثال الكامل بمجرد أن يبدأ النحات فى خدش الرخام الأصم بإزميله . فالتطور والترقى آتيان لاريب فيهما ، وهما إن سارا فى بطء وتدرج لايظهران عفواً على غير نظام بل يرتبطان أوثق ارتباط بالخطوات التى تسبقهما . فإن الأفراد يسيرون فى نموهم وفق خطوط تتحدد إلى درجة كبيرة بالقوالب التى وضعت فى سنواتهم التكوينية الأولى . ومن اليسير أن نتبين نوع هذه القوالب فى أحلام اليقظة الساذجة .

الفصل الحادى عشر

خاتمة

حاولنا فى الفصول السابقة أن نربط أحلام اليقظة عند صغار الأطفال بمراحل النمو النفسى التى تتميز كل منها عن الأخرى تميزاً واضحاً ، بحيث تفصل بينها فترات انتقال واضحة ، والخاصية الرئيسية فى كل مرحلة من تلك المراحل هى وجود نوع سائد من الاهتمام ، وظهور إحدى الغرائز الرئيسية التى عددها مكدوجل ، ففى فترة الطفولة المبكرة تتحكم غرائز التغذية فى السلوك ، وفى الطفولة المتأخرة تظهر غريزة السيطرة بشكل جلى واضح . أما فى الصبا فنلحظ سيطرة الغريزة الاجتماعية . كذلك تقوى الغريزة الجنسية فى مرحلة المراهقة . وليس معنى ذلك بالطبع أن هذه الغرائز يقتصر ظهورها على هذه المراحل دون غيرها ، أو أنها تكون الوحيدة فيها .

ويرتبط النمو البيولوجى بالنمو السيكولوجى ارتباطاً وثيقاً ، وينبغى أن يظل كذلك دوما . فالغريزة — كما نعرفها — هى « نزعة » للسلوك بصورة معينة . ولا تكون هذه الصورة من السلوك ممكنة إلا عن طريق الجسم الذى يكون نموه قد وصل إلى الدرجة التى تجعل مثل هذا السلوك ممكناً . فالسلوك الجنسى الناضج لايكون ممكناً قبل حوالى السادسة عشرة عند الأوروبيين فى المتوسط ، على الرغم من أن الغريزة الجنسية تكون موجودة نشيطة قبل ذلك بوقت طويل ، ولكن الاهتمامات العاطفية لاتظهر فى أحلام اليقظة قبل المراهقة .

فأحلام يقظة الأطفال التى تظهر فى مختلف مستويات النمو تدل بوضوح على نشاط أنواع من الاهتمام قوية مسيطرة ترتبط بإحدى الغرائز الرئيسية التى عجزت عن الحصول على وسيلة ملائمة للاشباع فى محيط الحياة الواقعية . فهى لذلك تعتبر

من ناحية ، نقداً موجهاً إلى البيئة الاجتماعية والمادية على السواء حيث يتم نمو الطفل ، ومن ناحية أخرى تعبر عما يريده الطفل من بيئته ، وما يشتهيه من فرص لتحقيق مطالبه . ـــ

والتربية هى توجيه نمو الطفل نحو غايات مختلفة التحديد . ويرى بعض زعماء التربية فى العصر الحديث أن طريقة التربية ينبغى أن تكون تهيئة البيئة الصالحة لتيسير الفرص لأنواع النشاط التى تلائم كل مرحلة من مراحل نمو الطفل ، وحث الطفل على استغلال هذه الفرص فى المراحل التالية . ويختلف المربون فى آرائهم عن كيفية الوصول إلى ذلك الهدف ، ولكنهم مجمعون على أن لكل طفل حاجاته الخاصة التى قد تختلف فى كثير أو قليل عن المتوسط ، أن المدرسة ينبغى لذلك أن تكون بالشكل الذى يتيح للمدرس أن يعنى بحاجات الأطفال الفردية حق العناية ، ولن يكون ذلك ممكناً إلا إذا كان المعلم واسع الخبرة ، طويل المران ، وكانت الفصول قليلة العدد .

ويستطيع هؤلاء الذين لا يزالون على قيد الحياة من قدامى المدرسين بانجلترا أن يذكروا ذلك الوقت الذى كانت فيه الفصول فى المدارس الانجليزية تضم سبعين تلميذاً ، أو ما يزيد على ذلك فى بعض الأحيان . فكان التعليم الذى يقدم لتلاميذ تلك الفصول هو بطبيعة الحال العلم الممكن فى مثل تلك الأحوال . ولم يكن عديم الجدوى بتاتاً فان كثيراً من الأفراد الذين تخرجوا فى تلك المدارس ، وأصبحوا فيما بعد من خيرة المواطنين ، شهدوا بأنهم تعلموا من العمل الجمعى فى تلك الفصول كثيراً مما أفادهم فى حياتهم العملية . ولكنه كان كما ذكرنا تعليما من نوع معين . فقد كان على المعلم أن يفيد سبعين أو ثمانين تلميذاً فى وقت واحد ، فلم يكن يستطيع قط أن يفكر فى بذل العناية الفردية إذ كان ينبغى عليه أن يوجه همه إلى الفصل كوحدة كاملة ، فيكون مثل جندى التمرين فى الجيش يعامل الفصل كأنه فرقة من الجنود تحت التمرين ، يعلمهم القراءة والكتابة

والهجاء وقواعد اللغـــة والتاريخ والجغرافيا وغيرها على شكل تمرينات صارمة ، فيضع لهم قوائم بأسماء الأنهار والخلجان والرءوس والجبال ثم يطلب منهم أن يكرروا قراءتها المرة تلو المرة بالطريقة الجمعية حتى يستظهروها ، و بنفس الطريقة يجعلهم يحفظون التواريخ والتعاريف اللغوية وغيرها . وهكذا ينتهى الأمر بالتلميذ إلى أن يتكدس فى ذاكرته محصول ضخم من المعلومات التى لا قيمة لها فى الحقيقة كما كان يستطيع القراءة و إتقان الخط والهجاء وتلك أمور لهـا بعض القيمة بلا شك ، ولـكنها لم تـكن مستطاعة إلا لأن المدرسين عرفوا كيف يستغلون الظروف السيئة الميسورة لهم وقتئذ أقصى استغلال .

أما النمو فلم يكن موضع الاهتمام والعناية ، لأن الناس كانوا يعتقدون أن تقدم الطفل فى السن يكفى لتقوية جسمه ، و يمكنه من أداء الأعمال التى تتطلب مزيداً من ذكائه . ولهذا يتوقعون منه أن يكتب كلمات صعبة ، و يقرأ كتباً أكثر تعقيداً ، و يجمع مقادير حسابية كبيرة . وكانت عمليـــة ضبط التلاميذ وتعويدهم النظام من أشق الأمور على المدرس ، فـكان يوقع على الـكبار منهم عقوبات أشد صرامة من التى يوقعها على الصغار .

لم يكن هناك إذن اعتراف بوجود نزعات داخلية تكافح فى سبيل الإشباع . إذ لم يكن يتاح للتلاميذ فى الفصول التى أشرنا إليها فرص للتعبير الذاتى أكثر مما يتاح للجندى فى حفلات الاستعراض . فلم يكن التلاميذ يحصلون على تلك الفرص إلا خارج للدرسة . ومن ثم كثرت حوادث التخريب وأعمال العنف والأذى التى كان يقوم بها الصغار ، مما جعل نظار المدارس يتلقون سيلا لا ينقطع من شكاوى السكان وأصحاب المتاجر فى المنطقة المجاورة للمدرسة . كذلك كان القتال بين عصابات الأطفال فى الشوارع والطرقات من الأمور المألوفة .

جميع تلك الحالات من مظاهر السيطرة العنيفة المنحرفة تشير إلى أن حاجات الطفل كان ينقصها الإشباع بشكل خطير . فالرجل الذى يلتهم الطعام

فى شراهة الذئب لا يرجع ذلك منه إلى سوء الأدب بقدر ما يرجع إلى الجوع ، إذ ليس من المعقول أن نتوقع ممن استبد به الجوع أن يراعى آداب المائدة . كذلك الطفل الذى يكون حب السيطرة عنده قوياً مكيناً يدفعه إلى العنف والمشاكسة ليس إلا طفلا عادياً قد حرم من إشباع نزعاته الغريزية . فسلوك (توم سوير) فى طرقات القرية مثلا لم يكن إلا نتيجة حتمية لتربيته فى البيت والمدرسة ، فإنه عند ما وجد نفسه محروماً من الفرص الضرورية لإشباع حاجاته النفسية وجد نفسه مضطراً بسبب ذكائه المتوقد ونشاطه وحيويته إلى أن يخلق تلك الفرص لنفسه . أما سواه من الأطفال الذين كان ينقصهم ذكاؤه وجرأته فكانوا يكتفون بالاستمتاع والتفرج على ما يقوم به من أعمال الشر والعدوان التى كانت تبعث فى نفوسهم الغيرة والحسد .

والمشكلة التربوية لا تحل بشكل حاسم مرض من مجرد الاختبار السطحى لأحلام اليقظة . فقد نقول إن الطفل الذى يبتدع لنفسه « رفقاء خيال » إنما يعبر عن حاجته إلى صحبة سواه من الأطفال ، وإنه لذلك سوف يحصل على قسط أكبر من السعادة لو أدخل إحدى مدارس الحضانة . ولكن المسألة أكثر تعقيداً من ذلك . فابتداع رفيق خيالى يشير إلى وجود شعور بعدم الارتياح إلى أشخاص حقيقيين فى بيئة الطفل ، وإلى أن ثقة الطفل فى والديه قد تزعزعت . وقد نرى أن من مصلحة الطفل أن نبعث به خارج البيت حيث يستطيع العثور على الرفيق الذى ينشده ، ولكن ما الذى ينبغى عمله فى داخل البيت نفسه ؟ إن تركيز الاهتمام فى جانب واحد من جوانب مشكلة معقدة لا يفضى إلى حلها حلا كاملا .

ونستطيع أن نلاحظ فى كثير مما كتب عن التربية ميلا ظاهراً من الكاتب نحو أحد الطرفين ، فقد يكون ميله قوياً إما إلى الفكرة القائلة بأن التربية هى تلقين المعلومات ، وإما إلى الفكرة التى تنادى باتخاذ النمو محوراً أساسياً للتربية .

ومقياس النجاح فى نظر أنصار الرأى الأول هو قدرة التلاميذ على النجاح فى الامتحانات ، أو بعبارة أخرى درجة حفظهم لما تعلموه . بينما يميل مؤيدو الرأى الثانى إلى أن يقولوا : « لا يعنينا كثيراً ما يعرفه الطفل من معلومات . ولكننا نهتم الاهتمام كله بنوع الفرد الذى سيكونه » . وقد يضيفون إلى ذلك إيمانهم بضرورة الاهتمام بتكوين الخلق .

وقليل من المربين اليوم من يعترف بإيمانه التام بأحد هذين المذهبين المتطرفين . ولكن أغلبهم يكشف فى إدارته للمدارس أو وضعه لخطط الدراسة عن تشيع ظاهر لواحد منها أكثر من الآخر . فمنهم من يعتقد أن المحور الأول للعمل المدرسى هو الدروس والمحاضرات والمواد الدراسية ، ومنهم من يقول بأن النشاط بأنواعه المختلفة ينبغى أن يكون الأساس الذى يفضل على سواه . وكثيراً ما يكون عدم تحديد نوع التربية الذى نؤمن به سبباً فى تعريض مذهبنا فى التربية إلى النقد والانتقاص من قيمته .

بيد أن العالم نفسه قد تغير أثناء تلك السنوات الطويلة التى انقضت فى الجدل والمناظرة الجوفاء . فلسنا نستطيع الآن أن نهمل جانب الشخصية فى فريق من أفراد الأمة بحجة أنهم يتقنون من المعلومات ما يكفى لنجاحهم فيما وكل إليهم به من أعمال . كما أننا لا نستطيع أن نتجاهل قيمة المعلومات وكميتها إطلاقاً . أى أننا أصبحنا لا نقدر على شطر نظمنا التربوية شطرين متمايزين نختص بكل منهما فريقاً من الناس دون الفريق الآخر ، فإن ظروف الحياة تفرض علينا الآن اتجاهاً آخر يتخلص فى أن الفرد الذى يعيش فى العالم الحديث يحتاج إلى قدر كبير من العلم والقدرة على تطبيقه تطبيقاً ناجحاً مفيداً . كما ينبغى له أن يبلغ من النمو ما يكفى لأن يجعل منه أفضل شخص ممكن فى حدود قدراته .

ولذلك فإن مدرسة المستقبل سوف تهتم بتزويد التلاميذ بالمعلومات ، وبتأكيد عملية التعلم أكثر من عملية التعليم . كما أنها سوف تعنى بطرق التربية

الحديثة مثل طريقة المشروعات وطريقة دالتون وغيرها من الطرق التى تتيح للتلاميذ فرصاً لإشباع حاجاتهم النفسية ، و بالتالى لتحقيق نموهم الكامل . وسوف تحاول أن تهيىء لهم بيئة تيسر للنشاط الفردى والجمعى أن يكون شاملا لجميع حاجات التلميذ دون استثناء . سيكون فى مدرسة المستقبل إذن دروس ومحاضرات ومعارض ووسائل إيضاح ومعامل وفترات دراسية ومناقشات وفترات دراسات خاصة ورحلات ، يشرف عليها جميعاً هيئة من المدرسين ذوى المؤهلات الصالحة ، القادرين على تفهم نمو الأطفال وحسن توجيههم .

والمحك الأخير لنجاح أى نظام تربوى أو فشله هو النوع الذى ينتجه من رجال ونساء . فقد رأينا فى انجلترا مثلا كيف استطاع الشعب فى فترة لا تتجاوز جيلا واحدا أن يتحمل بجلد وشجاعة حربين ضروسين ، وهبوطاً اقتصادياً عنيفا ، وسنوات من الحرمان القاسى ، ولدينا من الأسباب ما يكفى للاعتقاد بأن قليلا من الناس فى العالم من كان فى وسعه أن يواجه تحدى الأحداث لكيانه بهذا الصبر والاحتمال دون أن تهبط روحه المعنوية و يصيبه اليأس القتّال . ومما لا شك فيه أن المدرسة كان لها الفضل الكبير فى كل ذلك ، و إذ لم يكن من المستطاع تحديد مدى هذا الدور الذى لعبته المدرسة لأن أحداً حتى الآن لم يهتم ببحث وقياس العلاقة بين المدرسة والروح المعنوية فى الأمة بحثاً مجرداً عن الهوى والتحيز .

غير أنه على الرغم من أن الطريقة التى يجابه بها الناس الأحداث الطارئة تعتبر مقياساً نهائياً لتربيتهم ، إلا أنها مع ذلك ليست المقياس الوحيد . فإن مجابهة الظروف العادية فى الحياة لا تقل عن ذلك فى أهميتها . ولكن الصورة هنا مختلفة . فقد دلت وسائل التشخيص الحديثة على أن انتشار التعاسة والعجز الناتجين من الصراع العقلى الذى تثيره مشاكل الحياة العادية يرجع أصلا إلى التربية المبكرة فى كل من البيت والمدرسة . فالتعاسة التى يحس بها المرء فى بيته أو مكان عمله ،

و إخفاق الفرد فى تكييف نفسه لسواه من الناس ، والشعور بالنقص والحرمان ، والميل إلى التمرد الذى لا معنى له ولا خير يرجى من ورائه ، هى مظاهر كثيرة الانتشار . ولا شك أن القضاء عليها أو تخفيفها يزيد فى مقدار سعادة الأفراد وكفاءتهم فى عملهم . بيد أن الوقاية خير من العلاج وتخفيف الآلام . وخير وسيلة للوقاية هى التربية الصحيحة التى تعرف كيف تشبع جميع حاجات الطفل النامى تمام الإشباع .

[تم طبع كتاب « أحلام اليقظة » فى مطبعة لجنة البيان العربى بالقاهرة فى يوم الاثنين ٢٥ رمضان سنة ١٣٦٩ الموافق (١٠ يولية سنة ١٩٥٠) . والحمد لله أولاً وآخراً]

السيد محفوظ كامل

المدير الفنى للمطبعة

obeikandl.com

مراجـــع

(ا) باللغة العربية

١ — التحليل النفسى — تأليف چورج هـ . جرين ترجمة ابراهيم حافظ

٢ — أسس الصحة النفسية — للدكتور عبد العزيز القوصى

٣ — مبادىء التحليل النفسى وتطبيقاته للأستاذ محمد فؤاد جلال

٤ — الأمراض النفسية — للدكتور أحمد عزت راجح

٥ — نفسية المراهق — « رياض عسكر

٦ — مبادىء التربية — س . هـ . چاكسون واسماعيل القبانى ومحمد على مصطفى ومحمد مظهر سعيد

٧ — الطفل فى المدرسة الابتدائية — تأليف سوزان أيزاكس وترجمة محمد مختار متولى

(ب) باللغة الإنجليزية

The psychology of Daydreams, by J. Varendonck.
(London : Allen & Unwin) .

Jung's "The psychology of the Unconscious" .
(is a study of the fantasies of a young woman).

Children as Artists, by R. R. Tomlinson.
(London & New York : the King penguin Books) .

Child Art' by W. Viola .
(London : The University of London press, Limited).

The Psychological Significance of some Children's Comic Papers, by George H. Green.
(The Egyptian Journal of psychology).

An Outline of Abnormal Psychology,
by william Mc. Dougall (Methuen & Co.)

Imagination in early Childhood.
(by Ruth Griffiths) .

الفهرس

			صفحة
الفصل الأول	:	مقدمة .	٣
الفصل الثانى	:	حلم اليقظة .	١٨
الفصل الثالث	:	رفقاء الخيال .	٥٠
الفصل الرابع	:	حلم اليقظة والعاطفة .	٧٨
الفصل الخامس	:	حلم اليقظة والجماعة .	٩٣
الفصل السادس	:	الخيال العاطفى .	١٢١
الفصل السابع	:	مراحل النمو .	١٣٨
الفصل الثامن	:	حلم اليقظة والأدب .	١٥٥
الفصل التاسع	:	حلم اليقظة والفن .	١٧٩
الفصل العاشر	:	حلم اليقظة ودين الطفل	٢٠٣
الفصل الحادى عشر	:	خاتمة .	٢٢٤

obeikandl.com

قائمة مطبوعات اللجنة

			ص
١	— يسألونك	: الأستاذ عباس محمود العقاد ...	٢٥
٢	— أثر الشرق في الغرب ...	: الدكتور فؤاد حسانين	١٥
٣	— قصة الكهرباء واللاسلكي	: الأستاذ محمد عاطف البرقوقي ...	٢٥
٤	— مشكلاتنا الاجتماعية... ...	: الأستاذ محمد عطيه الإبراشي ...	٢٠
٥	— الحبشة	: « حسن محمد جوهر ...	٢٠
٦	— الغزل عند العرب	: « حسان أبو رحاب ...	٢٥
٧	— عائشة أم المؤمنين	: الآنسة زاهية مصطفى قدورة ...	٢٥
٨	— الفلسفة القرآنية	: الأستاذ عباس محمود العقاد ...	٣٠
٩	— أحاديث الصباح	: الشيخين محمود شلتوت ومحمد المدني	١٥
١٠	— أبطال الشرق	: الأستاذ محمد عطيه الإبراشي ...	١٥
١١	— أبو العتاهية	: « محمد أحمد برانق	١٥
١٢	— الراهبة المتوحشة	: دكتور عباس إبراهيم حسن ...	١٠
١٣	— المهد الذهبي	: الأستاذ وهبي اسماعيل حقي ...	١٠
١٤	— صرخة في واد...	: الأستاذ محمود غنيم	٣٠
١٥	— الصحافة والصحف	: المرحوم الأستاذ عبد الله حسين	٢٥
١٦	— ولّاده	: الأستاذ على عبد العظيم	١٥
١٧	— اللعب والعمل	: دكتور على عبد الواحد وافى ...	٨
١٨	— من كل نبع قطرة	: الأستاذ حسن محمد جوهر ...	٦
١٩	— عبد الله بن قيس الرقيات ...	: الأستاذ على النجدى ناصف ...	١٥
٢٠	— الاستعمار الفرنسي	: الأستاذ أحمد رمزى	١٥
٢١	— الوزراء العباسيون	: « محمد أحمد برانق ...	٢٠
٢٢	— سحر المطور	: « أحمد على الشحات ...	١٢

٢٣ — أكسير الحياة ... ... : الدكتور محمود محمد سلامة ... ٢٠

٢٤ — دراسات فى علم النفس الأدبى : الأستاذ خالد عبد القادر ... ٣٠

٢٥ — التيارات السياسية فى حوض البحر الأبيض :
الأستاذ محمد رفعت أحمد بك ٥٠

٢٦ — مسلم بن الوليد ... ... : الأستاذ حسن علوان ٢٥

٢٧ — الإسلام والديمقراطية ... ... : معالى محمد على علوبة باشا ... ٥

٢٨ — فقه اللغة ... ... : دكتور على عبد الواحد وافى ٥٠

٢٩ — علم اللغة ... ... : دكتور على عبد الواحد وافى ٥/٠

٣٠ — كيمياء المعادن ... ... : دكتور محمود يوسف الشواربي ١٠٠

٣١ — طب الطبيعة ... ... : الأستاذ محمد عاطف البرقوقى

٣٢ — أحلام اليقظة ... ... : تأليف دكتور ج . هـ . جرين
ترجمة إبراهيم حافظ... ... ...
ومراجعة زكى المهندس بك ...

---

obeikandl.com